معارف قرآنية

فوزي آل سيف

أطياف للنشر والتوزيع
Atiyaf For Pub. & Dist.

معارف قرآنية

فوزي آل سيف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

يشكل القرآن الكريم بالنسبة للإسلام مثل العمود الفقري بالنسبة لجسم الإنسان فباستقامته يستقيم البدن ويشد بعضه بعضا بل هو قلبه الذي يغذيه بالدم اللازم لحيويته ونشاطه، بل يترقى ليصبح بمثابة الروح السارية فيه، وبدونه سيكون هذا الدين هيكل جنازة.

ولذلك كان من الضروري التعرف عليه أولا، والتعرف به على الطريق القويم، حيث أنه (يهدي للتي هي أقوم)، التعرف عليه بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار وتدارس علومه التمهيدية، والتعرف به من خلال تدبر معانيه، وتأمل مفاهيمه وهداياته.

وفي إطار التعرف عليه والتشويق لتلاوته كان لدينا أحاديث طيلة شهر رمضان المبارك ١٤٤٠هـ. تناولت مواضيع متعددة ترتبط بالقرآن الكريم والتدبر فيه وتفسيره، والمناهج الصحيحة والأخرى الخاطئة التي يتعامل بها مع القرآن. وقد لقيت بفضل الله ثم ببركة القرآن، إقبالا حسنا.. كان ذلك حافزا لتفريغها من قبل عدد من الأخوات الفاضلات، قمت بعد ذلك بشيء من المراجعة السريعة لها. فكانت هذه المواضيع التي هي بين يديك.

كنت في كل سنة أفكر في كتابة جديدة، من الأساس للموضوع الذي ألقيه في شهر رمضان، ولا يحصل التوفيق، فالغالب أنه ؛ إذا كثرت القيود قل الموجود.. فرأيت أن أبادر العمر الذي يتصرم بإنجاز هذه المكتوبات وإن كانت ليست في المستوى الأعلى الذي أتمناه.. وربما أستطيع لو دام هذه التوفيق أن أنجز عشرة مواضيع لا تزال رهينة الأشرطة أو الصورة الأولية لها..

لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر للأخوات الفاضلات وبعض الاخوة ممن ساهم مساهمة فعالة في إخراج هذه الصفحات إلى النور وقد أشرت في نهاية الكتاب لأسمائهن، ليكون ذلك كالصدقة العلنية التي دورها قد يكون في بعض الحالات أكبر من السرية..

أسأل الله لي ولمن يقرأ أن نحشر مع القرآن الكريم وهو الشافع المشفع وأن يكون قائدا لنا لجنة الله ورضوانه.

فوزي بن المرحوم محمد تقي آل سيف
١٠ / شوال / ١٤٤٠ هـ.
جنوب لبنان

القرآن الكريم في بطاقة تعريفية

﴿إِنَّ هَذَا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[1]

تعريف القرآن الكريم

قرآن، وهو الاسم العلم الذي ورد مراراً في داخل القرآن، وورد أيضاً بأسماء أخرى، مثل الذكر وأمثاله، لكن كلمة القرآن، عندما تطلق، فهي تعني هذا الكتاب المعيّن، الذي يحتوي على الوحي الإلهي.

القرآن الكريم، ككلمة جاءت من قرأ، قرأ قراءة، وقرآنا، هذه الحروف: القاف، والراء، والألف، في اللغة العربية هي أصل يدل على اجتماع، ولذلك تراها في موارد مختلفة تستعمل بهذا الاستعمال، تسمى القرية قرية لأنها تجمع أهلها وتجمع الناس الساكنين فيها.

(١) الإسراء / ٩.

يقال أيضا: قرء ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾[١]، قروء: جمع قرء، القرء أيضاً جاء من هذه بمعنى اجتماع الشيء، المرأة عندما يجتمع في رحمها، دم العادة الشهرية تكون ذات قرء، سواء كان بمعنى الحيض والدورة الشهرية أو بمعنى الطهر.

فالأصل في هذه الكلمة أنها تدل على نحو اجتماع، باعتبار أن الذي يقرأ لا بد أن يجمع الحروف مع بعضها حتى تصبح قراءة، فأنت عندما تريد أن تقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ هذه البسملة، مكونة من حروف، من الباء والسين والميم والألف واللام ثم اللام ثم الهاء وهكذا، ولكي تقرأها لا بد أن تجمع حروفها مع بعضها البعض حتى تتحول إلى قراءة.

أما إذا قرأت الحروف منفردة عن بعضها كأن تقول: باء، سين، ميم، هذه لا تعد قراءة.

فقيل سمي قرآناً، لأن القارئ الذي يقرأه لا بد أن يجمع حروفه إلى بعضها البعض لكي يصبح مقروءاً ومتلُوَاً، وقيل أنه قرآن باعتبار أنه يجمع السور ويجمع الآيات، وقال آخرون: سمي قرآناً لأنه يجمع ما فيه من الأحكام والعقائد والقصص والمواضيع المختلفة، هذا في الاستعمال اللغوي، ففي هذا المعنى لا يختص كلمة قرآن بالوحي النازل من الله عز وجل، لأنه حتى قراءة الكتاب لا بد أن تجمع الحروف فيها.

أما المعنى الاصطلاحي، القرآن فهو عندما تقول لإنسان: أعطني قرآناً، أو اشتريت قرآناً، فلا يتبادر إلى ذهنه أي شيء آخر إلا هذا الكتاب المقدس الخاص.

---

(١) البقرة / ٢٢٨.

فالقرآن بهذا المعنى الاصطلاحي وهو ذلك الكتاب الذي أُنزل من خلال الوحي الإلهي بلفظه ومعناه من الله عز وجل بواسطة جبرائيل على نبينا المصطفى محمد ﷺ، فلا يستطيع أي أحد أن يجاري هذا الوحي النازل من الله عز وجل بمعناه وبلفظه لا ملك مقرب ولا نبي مرسل.

فهو كلام الله الذي بعث به جبرائيل واحتمله عن الله عز وجل بمعناه ولفظه إلى رسول الله ﷺ وهو الكلام المعجز، لكل أحد إلا الله سبحانه وتعالى فهذا هو القرآن الكريم.

القرآن المعجزة الخالدة

يعتبر القرآن الكريم معجزة الإسلام الخالدة والتي لا زالت باقية بين أيدينا إلى الآن، فلا توجد معجزة شاخصة إلى الآن لنبي من الأنبياء أو رسول من الرسل إلا القرآن، أما باقي المعاجز فهي عبارة عن أخبار وأنباء.

فنبي الله عيسى على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام، كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله تعالى، لكن هذا بقي خبرا، لا تجد له عيناً قائمةً وشيئاً مجسداً الآن.

كذلك الحال في قضية نبي الله موسى عليه السلام، وتحول عصاه إلى ثعبان تلقف ما يأفكون، فهذا أيضاً خبر من الأخبار لا تجد له عيناً أو أثراً ظاهراً تستطيع أن تدل الناس عليه.

لكن القرآن الكريم شاخص بين يدي البشر، فإن أحداً تساءل عن معجزة الإسلام ومعجزة رسول الله ﷺ قدم له نسخة من القرآن الكريم، فهو المعجزة الواضحة والشاهرة وتعهد الله سبحانه وتعالى بحفظه وإبقائه وخلوده: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١].

القرآن يهدي للتي هي أقوم

جعل للقرآن الكريم غاية أساسية بالنسبة للبشر وهي قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَذَاالقرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾. فعبارة ﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ في حياتهم الشخصية والاقتصادية والثقافية والسياسية وفي جميع نواحي الحياة، لذلك أنت تلاحظ أنه لم يعين جانبا دون آخر فهو يهدي للتي هي أقوم، فأي طريقة تتصورها يوجد فيها جانبان، سيء وجانب قيّم وسوي، لكن القرآن الكريم لا يهدي للقيّم بل للتي هي أقوم من القيّم.

هل أجزاء القرآن الكريم الثلاثون هي تجزئة ربانية؟

القرآن الكريم يشتمل على أجزاء وسور وآيات وكلمات وحروف، وبالنسبة للأجزاء الثلاثين التي قسم القرآن لها لا يوجد دليل على أنها تجزئة ربانية أو نبوية أو معصومية، وإنما شيء تعارف عليه المسلمون في وقت متأخر بعد وفاة رسول الله ﷺ، ويشبه ذلك ما ورد في التحزيب.

فهذه الأساليب التي تعارف عليها المسلمون كانت من أجل الحفظ أو التلاوة.

هل سور القرآن الكريم ترتيبها رباني؟

كذلك السور بترتيبها المتعارف الآن لا يوجد دليل على أن ترتيبها ترتيب إلهي

---

(١) الحجر / ٩.

أو مروي عن النبي ﷺ، نعم المعلوم أن فاتحة الكتاب هي أول الكتاب، بعض السور في زمان رسول الله ﷺ كانت معروفة الترتيب، وبعضها الآخر ليست كذلك، فلا يوجد عندنا دليل واضح على أن ترتيب كل السور في القرآن هو من عند الله عز وجل، أو النبي بمعنى أن يجعلوا بعد الفاتحة البقرة ثم آل عمران وهكذا كما هو موجود.

ولهذا في بعض النسخ السابقة للقرآن قبل أن يجمع الناس على ترتيب معين في زمان الخليفة الثالث تختلف فيها السور تقديماً وتأخيراً.

ترتيب الآيات في السورة والكلمات في الآية:

ويختلف الأمر بالنسبة لترتيب الآيات، فيما بينها فالآية قياساً إلى ما قبلها وما بعدها كانت من السماء وبتوجيه من النبي ﷺ توضع في المكان المحدد. فقد روي في مواضع متعددة عن النبي أنه قال: ضعوا هذا الآية في مكان كذا [1].

هذا حسب الروايات وأيضا هو مقتضى الاعتبار.

ماذا يعني مقتضى الاعتبار؟

الحروف التي نستخدمها في اللغة العربية مثلاً هي واحدة لكن الكلام يختلف من شخص لآخر في ترتيبه للجملة الواحدة فيتميز كل شخص عن الآخر في طريقة الكلام فكلامي يختلف عن كلامك، وكلامنا يختلف عن كلام العالم الفلاني، مع

(١) مسند أحمد بن حنبل ١/ ٣٣٤ (.. كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات العدد فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب له فيقول ضعوا هذه في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا وإذا أنزلت عليه الآيات قال ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا..

أن الحروف التي نستخدمها هي حروف واحدة، ولكن الفرق ما هو؟ الفرق أنه من خلال ترتيب الكلمات عند ذلك العالم يستطيع استخراج نظرية جميلة، فأنا لا يوجد لدي هذا الترتيب مع أن عندي الحروف وعندي نفس الكلمات، وهذا واحد من أوجه التحدي الذي ساقه القرآن لمن يتحداه. يقول له هذه الحروف: (آلم)، و(حم)، و(حم عسق)، (وكهيعص)،هي ذلك الكتاب لا ريب فيه. ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، هذه الحروف موجودة عندكم، الكلمات نفسها موجودة عندكم، الأدوات كلها عندكم لكن نتحدى أن تأتوا بكتاب من مثله بل نتحدى أن تأتوا بعشر سور، بل وصل التحدي أن تأتوا بسورة واحدة وهذا أبلغ في التحدي. الفرق هو في ماذا؟

الفرق هو أن نفس هذه الحروف كيف أجمعها في كلمة، وهذه الكلمات كيف أجمعها في جملة، ولذلك لا بد أن تكون هذه الحروف نحو جمعها، فيما هي كلمة واحدة، وفيما هي في كلمات، لا بد أن تكون من قبل الوحي، لا بد أن يكون من عند الله، ارتباط هذه الآية بالآية التي قبلها والآية التي بعدها أيضا كذلك،. لأنه أحياناً تغيير الكلمة في الجملة، وتغيير الجملة في موضعها بين هذه الجمل، قد يغير المعنى تغييرا كاملا.

قم بتكوين جملة واحدة، وغير ترتيب مواضع الكلمات فيها، الكلمة الأخيرة ضعها في الأول والتي في الأول ضعها في الأخير والتي في المنتصف غير موقعها كذلك، فستلاحظ أن المعنى تغير تماماً.

كذلك بالنسبة لترتيب الكلمات في الآية، وترتيب الآيات فيما بينها تقديماً وتأخيراً بالإضافة إلى ما ورد الإخبار عنه أن رسول الله ﷺ كان يأمر هو مقتضى الاعتبار، فلو تغير يتغير المعنى ويحصل التحريف، وأحياناً لا يكون لهذا الكلام

معنى أصلاً، مع أن الكلمات هي نفس الكلمات، إذا تغير ترتيبها واختلف.

فإذن الآيات فيما بينها والكلمات فيما بينها ترتيبها ترتيب من الوحي من الله عز وجل.

لماذا اختلف عدد الآيات عند العلماء؟

اختلف الباحثون في عدد آيات القرآن الكريم، فهل هذه دلالة على أن في القرآن زيادة أو نقيصة؟

ذكرنا أن أجزاء القرآن الكريم هي ٣٠ جزءًا وعدد السور هو ١١٤ سورة [١]،أما بالنسبة للآيات فقد اختلفوا في ذلك وذكروا أن آيات القرآن الكريم، ما بين ٦٦٦٠ كحد أعلى و ٦٢٠٠ آية كحد أدنى ويتبين بهذا أن الفرق بين العددين يصل إلى ٤٠٠ آية، كيف هذا؟ هل هذا معناه أن القرآن ناقص؟

لا، ليس الأمر كذلك، فحتى الذين اختلفوا في عدد آيات القرآن الكريم اتفقوا على أنه لا يوجد اختلاف بينهما لا نقيصة ولا زيادة، إذن من أين الاختلاف؟

قالوا: جاء الاختلاف من أمور عارضة، فمن تلك الأمور:

١. حساب أو عدم حساب البسملة كآية من الآيات، عندنا البسملات في أوائل السور: ١١٣ بسملة، في أوائل السور[٢] فقسم من المسلمين، لم يعدوا

(١) بعض السور في خصوص الصلاة تحسب سورتان سورة واحدة مثل سورة الفيل وقريش، والضحى وألم نشرح.. في رأي الامامية حيث يوجبون قراءة سورة كاملة بعد الفاتحة.

(٢) مع ضم ما هو موجود في داخل سورة النمل: (إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) يكون المجموع ١١٤ بسملة. لكن في بدايات السور هو ١١٣ بسملة لـ ١١٤ سورة، نظراً لأن سورة التوبة المعروفة بسورة براءة، ليس في أولها بسملة.

البسملة آية، خلافاً لمدرسة أهل البيت التي تقول أن البسملة هي أعظم الآيات، ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يقرعهم وينعى عليهم، يقول: «وعمدوا إلى أعظم آية في كتاب الله فزعموا أنها بدعة إذا أظهروها وهي بسم الله الرحمن الرحيم»[1]، هذه البسملة هي عنوان، كانوا يقولون: كنا لا نعرف سورة عن سورة إلا بالبسملة، لأنها الفاصلة بين هذه وتلك، فإذا جاء جماعة، كما عليه قسم من المسلمين ولم يعدوا البسملة آية، هذا يؤثر في العدد بلا إشكال.

٢. عندما تمت كتابة القرآن الكريم في وقت متأخر وتم رسم الأعداد في نهاية الآيات، اختلفوا في هذا في بعض الأماكن، قسم من الذين كتبوا القرآن، كما سيأتي لم يكونوا ضابطين لقواعد الخط العربي، ولذلك ورد فيها بعض الأخطاء من ناحية قواعد الإملاء والإعراب وهذا لا يضر فيها، ولكن عندما كتبت في المصحف الذي اعتمد على مستوى الأمة في زمان الخليفة الثالث، كان فيه أخطاء إملائية، حتى أن الخليفة الثالث التفت إليه حسب الرواية الرسمية، ولكن عندما سئل أمير المؤمنين عليه السلام كما ورد في الرواية، لم يشأ أن يفتح باب التعديل حتى لا يتعرض القرآن من قبل حاكمين للجرأة عليه، وعندما وصل الدور إلى التنقيط والتشكيل ووضع الحركات،وصار في نهاية كل آية ترقيم، فهنا حدث اختلاف، مثلاً يأتي أحدهم ويقول: ﴿ق*وَالقرآن الْمَجِيدِ﴾ فيعتبر (ق) آية، فيضع علامة دائرة بعدها، ﴿والقرآن المجيد﴾ آية أخرى فتكون هذه آيتين، يأتي كاتب آخر فيعتبرها كلها آية (ق وَالقرآن الْمَجِيدِ)، ويضع دائرة بعدها فتكون عند هذا الكاتب آية واحدة، فالأول لم يحذف آية والثاني لم يضف آية وإنما الاختلاف فقط في الترقيم،

(١) بحار الأنوار ٨٩ / ٢٣٨.

كذلك الأمر بالنسبة لسورة ص (ص والقرآن ذي الذكر)، وأيضا هذا ينطبق على مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ البعض هنا وضع دائرة في نهايتها فصارت آية، والبعض الآخر قال: لا، ليست هذه نهاية آية، نكملها للأخير. فهذه أمور في الكتابة والرسم والإملاء جعلت شيئا من الاختلاف في عدد الآيات النهائي.

وأما عن العدد: فقد ذكر ذلك الشيخ الطبرسي رضوان الله تعالى عليه (ت ٥٤٨هـ) في كتابه مجمع البيان[١]، قال: الموجود الآن من الآيات بحسب هذا التعداد هو ٦٢٣٦ آية، وهو الموافق الآن للمصحف الموجود والمشهور في كتابته بين المسلمين.

هل نزل القرآن دفعة واحدة أم تدريجياً؟

القرآن الكريم، كما هو المشهور، عُبّر عنه مرة بأنه نَزَل، وعُبّر عنه مرة أخرى بأنه نزِّل. مرة: (إنا أنزلناه)، (نزل به الروح الأمين)، ومرة أخرى: (ونزلناه تنزيلا)، فصار لدى العلماء مسألة وهي: هل أنه نزل مرة واحدة أو نزل متعدداً، منجماً على فترات؟ لا سيما إذا أضفنا إلى ذلك، مسألة وهي أننا نقرأ في القرآن الكريم: (إنا أنزلناه في ليلة القدر)، فإذن القرآن أنزل في ليلة القدر في شهر رمضان.

من جهة أخرى، نحن نعلم، أن أول آيات سورة العلق، نزلت على رسول الله ﷺ في السابع والعشرين من رجب[٢]، الذي كان فيه بعثة النبي ﷺ، فكيف؟، هل نزل

(١) في رواية أن عليا عليه السلام سأل النبي ﷺ، فكان مما قال النبي: ثم قال النبي ﷺ جميع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، وجميع آيات القرآن ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون آية.. مجمع البيان ١٠ / ٢١٢.

(٢) روي عن الإمام الصادق عليه السلام: (لا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب؛ فإنَّه اليوم الذي نزلت فيه النبوَّة على محمّد ﷺ، وسائل الشيعة ١٠/ ٤٤٧ .

في رجب أو نزل في رمضان أو صار نزول متعدد أو غير ذلك؟

هناك من لا يرى وجود اختلاف بين الانزال والتنزيل، وقد يستفاد هذا من كلمات بعض اللغويين ففي لسان العرب لابن منظور: «وتَنَزَّله و أَنْزِله و نَزَّله بمعنى. قال سيبويه: وكان أَبو عمرو يفرُق بين نَزَّلْت و أَنْزَلْت ولم يذكر وجهَ الفَرْق؛ قال أَبو الحسن: لا فرق عندي بين نَزَّلْت وأَنزلت إِلاَّ صيغة التكثير في نزَّلت في قراءة ابن مسعود: وأَنزَل الملائكة تَنْزِيلاً ؛ أَنزل: كنَزَّل»..

وبناء على هذا فإن بعض الأسئلة لا تبقى..

وأما بناء على ما هو المشهور كما هو عند أغلب اللغويين، كما صرح به الراغب في المفردات وغيره في غيره..

فيبقى السؤال:

وقد أجاب العلماء عن هذا بإجابات، منها ما عن السيد الطباطبائي في الميزان، قال:

«.. فإن الآيات الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة منه إنما عبرت عن ذلك بلفظ الانزال الدال على الدفعة دون التنزيل كقوله تعالى:﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[١] وقوله تعالى: حم. والكتاب المبين إنا أنزلناه في ليلة مباركة): الدخان ٣، و قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[٢]، واعتبار الدفعة أما بلحاظ اعتبار المجموع في الكتاب أو البعض النازل منه كقوله تعالى:﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾[٣]، فإن المطر إنما ينزل تدريجا لكن النظر هيهنا معطوف إلى اخذه

(١) البقرة/ ١٨٥.
(٢) القدر/ ١.
(٣) يونس/ ٢٤.

مجموعا واحدا، ولذلك عبر عنه بالانزال دون التنزيل، وكقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[1]، وإما لكون الكتاب ذا حقيقة أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي الذي يقضي فيه بالتفرق والتفصيل والانبساط والتدريج هو المصحح لكونه واحدا غير تدريجي ونازلا بالانزال دون التنزيل. وهذا الاحتمال الثاني هو اللائح من الآيات الكريمة كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾»

وبعد ان استشهد بجملة من الآيات لمختاره.. انتهى إلى القول:

«ثم إن هذا المعنى اعني: كون القرآن في مرتبة التنزيل بالنسبة إلى الكتاب المبين ونحن نسميه بحقيقة الكتاب بمنزلة اللباس من المتلبس وبمنزلة المثال من الحقيقة وبمنزلة المثل من الغرض المقصود بالكلام هو المصحح لان يطلق القرآن أحيانا على أصل الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾، إلى غير ذلك وهذا الذي ذكرنا هو الموجب لان يحمل قوله: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، وقوله:﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، وقوله:﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، على إنزال حقيقة الكتاب والكتاب المبين إلى قلب رسول الله ﷺ دفعة كما أنزل القرآن المفصل على قلبه تدريجا في مدة الدعوة النبوية.

وهذا هو الذي يلوح من نحو قوله تعالى:﴿ولا تعجل بالقرآن﴾ [2]، وقوله تعالى:﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[3]، فإن الآيات ظاهره في إن رسول الله ﷺ كان له علم بما سينزل عليه فنهى عن الاستعجال بالقراءة قبل قضاء الوحي، وسيأتي توضيحه

(١) ص/ ٢٩.
(٢) طه/ ١١٤.
(٣) القيامة/ ١٦- ١٩.

في المقام اللائق به»[١].

وقد ذهب آخرون إلى رأي آخر يقول: بل نزل بجملته، وبكامله، من البيت المعمور، إلى السماء الرابعة، أو إلى السماء الدنيا، أو إلى قلب النبي ﷺ..ثم بدأ بعد ذلك يتنزل تدريجياً مع كل حادثة ومع كل قضية. وهذا يختلف عن القول السابق بأنه لا يضطر إلى تأويل النزول الدفعي بأنه (حقيقة الكتاب) أو (الكتاب المحكم) وإنما نفس القرآن نفسه الذي سينزل منجما ومتفرقا فيما بعد هو نفسه بجملته وبكامله نزل دفعة في ليلة القدر في شهر رمضان.

وصية النبي ﷺ بالقرآن وبأهل بيته، هل راعتها الأمة؟

هذا القرآن الكريم، الذي يهدي للتي هي أقوم في الحياة الدنيا ودار السلام في الآخرة ويبشر المؤمنين، الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً، هو خير وديعة أودعها رسول الله في الأمة، وأوصى بها وألفت النظر إليها، وكم من المرات تحدث النبي عن القرآن الكريم، إلى أن جعله في وصية الثقلين (إني مخلف فيكم، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي أبدا أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله وعترتي أهل بيتي)، وفي روايات أخرى (تارك فيكم الثقلين) لعلك تقول هل الرواية الأصلية تارك فيكم أو مخلف فيكم، أي منهما؟ كلا العبارتين صحيحة لأن الإنسان إذا اهتم بقضية معينة، يكثر من الوصاية بها بمختلف الألفاظ وفي مختلف الأوقات، وبمختلف السبل.

فمن الممكن، أن يقول في مجمع: (إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي)، وممكن في مجمع آخر، يقول: (مخلف فيكم)، وفي مجمع ثالث

(١) الميزان ٢/ ١٨.

يضيف إليه: (أحدهما أكبر من الآخر)،وفي مجمع رابع، يقول: (فانظروا كيف تخلفوني فيهما) وهكذا.

كان النبي ﷺ في سنواته المختلفة، يوصي بهذه الوصايا المختلفة بالقرآن وبالعترة، ولكن للأسف لم تلتفت الأمة في سلوك طغاتها وكبارها إلى وصايا رسول الله ﷺ أما القرآن الكريم، فزووه عن العمل به، لا بل مزقه بعض طغاة هذه الأمة وليس فقط لم يعملوا به وإنما أهانوه وهتكوا حرمته، فهذا الوليد بن يزيد الأموي الفاسق المعروف، أخذ القرآن ليستفتح به، وكما هو معروف عندنا أن الاستفتاح بالقرآن والتفؤل به غير محبذ شرعاً، لماذا؟ لأن هذا قد يجر إلى تكذيب القرآن.

الوليد بن يزيد[1] كان يريد أن يتفأل بالقرآن، فتفأل به واستفتح فإذا بالآية المباركة، ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾[2]، فغضب ووضع القرآن على جدار وأخذ سهاماً وظل يرشقه بالسهام، حتى مزق القرآن ويقول:

تهددني بجبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد
لئن لاقيت ربك يوم حشر ... فقل يا رب مزقني الوليد

(١) ذكره ابن الأثير في الكامل في التاريخ فقال: الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم وأمه بنت أخي الحجاج بن يوسف،..وكان منهمكاً في اللهو والشرب وسماع الغناء فظهر ذلك من أمره فقتل. ومما شهر عنه أنه فتح المصحف فخرج: واستفتحوا وخاب كل جبارٍ عنيدٍ.. فألقاه ورماه بالسهام وقال: تهددني بجبار عنيدٍ فها أنا ذاك جبار عنيدإذا ما جئت ربك يوم حشرٍفقل يا رب مزقني الوليدفلم يلبث بعد ذلك إلا يسيراً حتى قتل.

(٢) ابراهيم ١٥ـ١٦.

جمع القرآن في رواية مدرسة الخلفاء

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[1].

من المعلوم عند المسلمين جميعا، وهو محل الاتفاق، أن القرآن الكريم، نزل على رسول الله ﷺ، نجوما، أي بشكل متفرق، وبحسب المناسبات والأحداث، في مدة تصل إلى ٢٣ سنة. هي مدة البعثة النبوية، وكان النبي ﷺ يقرأه على المسلمين، ويأمر بكتابته وتدوينه. إلى أن توفي رسول الله ﷺ، بعد هذه الفترة، يبرز السؤال: كيف تم جمع القرآن الذي كان بصورة متفرقة؟ فقد كانت الآية والآيتان، تنزل على رسول الله، ويأمر رسول الله بكتابتها، وتقرأ على المسلمين. فيما بعد، صار هذا قرآنا.

فكيف تم الجمع؟ من الذي جمع؟ ما هي المناسبات والظروف التي أدت إلى جمع القرآن الكريم؟

---

(١) القيامة / ١٦ـ ١٩.

توجد نظريتان بين المسلمين، الأولى نظرية الإمامية، شيعة أهل البيت، تصرح: بأنه في زمان رسول الله ﷺ قد تم جمع القرآن الكريم، وما مات النبي إلا والقرآن مجموع ملتئم[١]. فيما بقيت بقية نهائية، أوصى النبي ﷺ أمير المؤمنين، قبيل وفاته، أن يأخذ هذه الآيات، وكانت عند رأسه الشريف، وأن يجمعها، يعني يضمها في كتاب واحد. وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل.

النظرية الثانية، هي النظرية الرسمية، الشائعة الآن في العالم الإسلامي، والتي تلتزم بها مدرسة الخلفاء، من غير شيعة أهل البيت، وهذه النظرية تقول: لم يكن مجموعا في زمان رسول الله، وإنما تم جمعه، فيما بعد زمن الخليفة الثالث وقبل ذلك كان متفرقا في العسب واللخاف والأكتاف[٢].

هذه الرواية تقول: لما كان حذيفة بن اليمان العنسي في فتح أرمينيا وأذربايجان حوالي سنة ٢٣ هـ، رأى أن جيش المسلمين، المكون من جنود من العراق والشام، والمدينة ومصر، يقرأون بقراءات مختلفة، وكل منهم كان يخطّئ الآخر، فراعه ذلك، ولما رجع إلى الخليفة قال له: أدرك أمة محمد، لا يختلفوا كما اختلفت اليهود والنصارى[٣].

بناء على ذلك، شكل الخليفة عثمان، حسب هذه الرواية، لجنة فيها زيد بن ثابت، وهو الأساس، وضم إليه آخرين مثل سعيد بن العاص، وقام هؤلاء بطلب

---

(١) في جامع الأحكام (تطبيق الكتروني يجمع مسائل فقهاء الامامية المعاصرين أورد فتاواهم وكلها تشير لهذا المعنى.

(٢) العَسيب من السَعف: فويق الكَرَب من النخلة لم ينبت عليه الخوص (كانوا يكتبون عليه، واللِّخَافُ بالكسر حجارة بيض رقاق واحدتها لَخْفة بوزن صحفة، والكتف عظم عريض يكون في أَصل كتف الحيوان من الناس والدوابّ كانوا يكتُبون فيه لقِلة القَراطِيس عندهم.

(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٩٠٨.

الآيات من المسلمين، فلما اجتمعت الآيات كلها، أمر أن يؤتى ببقية المصاحف الموجودة عند الناس، وأحرق تلك المصاحف، وعمَّد مصحفا واحدا، سمي بالمصحف الإمام، كتب منه ست نسخ، وأرسلت إلى الأقطار الإسلامية، وسيق هذا ضمن ما يذكر من آيات المدح والثناء عليه.

وهناك رواية أخرى في مصادر هذه المدرسة تشير إلى أن الجمع الأول كان أيام الخليفة الأول، وذلك لأنه بعد معركة اليمامة سنة ١٢هـ مع أتباع مسيلمة الكذاب، قتل جمع كبير من حفاظ القرآن، قال بعضهم: إن ٧٠ قتلوا، وبعضهم قال: ٧٠٠ !!. فخافوا أن يضييع القرآن، فأمر بجمعه، وكتابته وتدوينه[١].

مناقشة الرواية الرسمية

لا بد أن أشير هنا إلى أن من أراد التوسع في مثل هذا الموضوع، فهناك كتب قيمة، للتوسع فيها، منها مثلا: كتاب البيان: مقدمة تفسير القرآن للإمام الخوئي رحمه الله، وهو على اختصاره يتضمن أصول المطالب في هذه المسألة بدقة.. وكذلك كتاب التمهيد في علوم القرآن للمرحوم آية الله الشيخ محمد هادي معرفة وهو مفصل ووافٍ.. وهناك كتاب جمع القرآن لمؤلفه المحقق السيد علي الشهرستاني وفيه نظريات مبتكرة والتفاتات مهمة.

وأما عن مناقشة النظرية: فنشير أولا إلى رؤية عامة، متسائلة ومتعجبة غير قادرة على الفهم في أن مدرسة الخلفاء، جاءت إلى أعظم المسائل، فجعلتها خارج إطار الاهتمام النبوي، والالهي..

فهي بالنسبة للقرآن، وهو القانون الكلي للإسلام. وفيه العقائد، والأحكام،

(١) المصدر السابق ٤/ ١٩٠٧.

والأخلاق، تقدم صورة عنه أن النبي ﷺ لم يعتن حتى بكتابة نسخة واحدة منه ! فكيف ينسجم هذا مع قوله «إني مخلف فيكم، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا من بعدي: كتاب الله».. كيف يخلفه فيهم وليست هناك نسخة واحدة متفق عليها؟ وكيف يمكن التصديق أن النبي كان والعياذ بالله من قلة الاهتمام ما لم يقم بإعداد حتى نسخة واحدة؟ هذا مع سهولة الامر ووجود من يكتب من كتاب الوحي، وشدة الحاجة ولزوم الأمر؟

تأتي في مرحلة ثانية لترى التعامل مع السنة.. فهم يروون الرواية (كتاب الله وسنتي) كيف يجتمع هذا مع ما رووه عنه من أنه منع من تدوين سنته والاحتفاظ بها، ومحو ما كان المسلمون قد كتبوه؟ هذه السنة التي هي بمثابة الشرح والتفصيل للكتاب السماوي ! فالأصل وهو القرآن لم يلق الاهتمام المطلوب والشرح وهو السنة أيضا هي كذلك !

في مرحلة ثالثة.. من يقوم على الكتاب والسنة ويكون عارفا بهما، ويدير أمر المسلمين وهو الخليفة أو الوصي والإمام من بعده، فإن النبي بحسب نظرية مدرسة الخلفاء مات ولم يستخلف ولم يوص لأحد ! مع شدة الحاجة إليه لحفظ الاستمرار والامتداد النبوي.. وإمكانية ذلك !

هل يتصور تضييع أعظم من هذا؟ حاشا رسول الله من ذلك !!

هذه ملاحظة عامة على كل المنهج والآراء.. وأما خصوص نظرية جمع القرآن.

٣. فإنهم يذكرون أنه لما تم جمع القرآن، بعد وفاة النبي أي الجمع الأول، أيام أبي بكر، قالوا: أمر زيد بن ثابت، باعتباره رئيس اللجنة والكاتب، وكان معه عمر بن الخطاب أن يجلسا على باب المسجد، ونودي في المسلمين بأن من آيات من النبي، فليأت بها حتى تكتب وتدون ! ولكن ليكن معه شاهد يشهد

أنه سمعها ولذلك فإنهم قالوا أيضا في هذه الروايات أن عمر بن الخطاب نفسه جاء بآية رجم الشيخ والشيخة، «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، ولما لم يكن عنده شاهد يشهد معه ردوها ولم يقبلوها منه ! بينما ذكروا أن خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، جاء بآية لوحده، فقبلوها، لأن النبي قبل شهادته عن شهادتين !.

هنا نتساءل هل القرآن معجز في آياته أو لا؟ فإن كان معجزا فلا يحتاج لشاهد أو شاهدين وإن لم يكن معجزا فهو خلاف القرآن نفسه فهل إذا جاء بالشاهد ستصبح الآية معجزة؟ وإذا لم يأت به ستفقد اعجازها؟

٤. نتساءل.. أين كان من يحفظ القرآن خلال هذه المدة من بعثة النبي إلى زمان الخليفة الثالث؟ هناك ٢٣ سنة هي مدة بعثة النبي إلى وفاته سلام الله عليه وآله، وهناك من سنة ١١ إلى ٢٣.. ١٢ سنة والمجموع يكون ٣٥ سنة.. لا ريب أن هناك مئات إن لم يكن ألوفا من المسلمين حفظوا القرآن ووعوه في صدورهم.. بحيث قيل إن في معركة واحدة وهي قبل خلافة عثمان بحدود ١٢ سنة قيل إن عدد من قتل من حفاظ القرآن في معركة واحدة اليمامة تجاوز السبعين وبعضهم بالغ فقال إنهم بحدود سبعمائة.. فأين كان أضعاف هؤلاء من حفظة القرآن؟ حتى تتم الحاجة إلى النداء بين المسلمين، ولا يتمكن الواحد أن يأتي بشاهد على ما سمعه من النبي؟ ويحتاجون إلى أن يجمعوه من الأكتاف والعسب واللخاف؟ ثم أين كانت مصاحف كبار الصحابة، فإنهم يذكرون أن عددا كبيرا من أصحاب رسول الله كان لدى كل منهم مصحف خاص به.

وأما إذا تم ما ذكرناه من قضية التواتر التي اشرنا لها هنا، وفي مواضع أخر فلا يأتي هذا الكلام أصلا !

٥. إن هذا ينتهي إلى التشكيك في نظريتهم في عدالة الصحابة، فمدرسة الخلفاء تعتقد بعدالة الصحابة أجمعين. وأنهم أفضل البشر، بعد رسول الله، وأنهم كلهم في الجنة، وأنهم فوق مستوى العدالة.. فإذا كان كذلك فلماذا يطلب من الصحابي القادم بآية أن يأتي معه بشاهد؟ نعم طلب القرآن في بعض الموارد شاهدين[1]، وفي بعضها الآخر أربعة، وهكذا.. لكن هذا المورد ليس من تلك الموارد ! ولا نعلم ما هو مبرر طلب الشاهد هنا؟ مادام في رأيكم هو من أفضل البشر بعد النبي وهو فوق العدالة.. فإما أن يتخلى عن نظرية العدالة تلك أو يتخلى عن هذه الممارسة !

٦. تصدي غير المعصوم للجمع لا يمكن أن ينتج كتابا معصوما. فالناس شخصان: إما معصوم، أو غير معصوم. أما المعصوم، كالنبي، عند المسلمين جميعا، والإمام عندنا الإمامية، لا يخطئ، لا عمدا ولا سهوا، وأما غير المعصوم فهو عند الجميع قابل للخطأ والسهو حتى لو لم يتعمد الخطأ والذنب فإنه محل الخطأ والسهو ومخالفة الواقع وعدم الاحاطة.. الى غير ذلك.

ولا ريب عند الجميع أن زيد بن ثابت ومن كان معه لم يكونوا معصومين فكيف يتوقع منهم أن لا يخطئوا ولا يسهوا ولا يتجاوزوا في مثل هذا المقدار الكبير من الآيات؟ وهي ٦٢٣٦ آية؟ ولذلك ورد من طرق مدرسة الخلفاء، أن بعض السور كانت تقرأ في أكثر مما هو موجود في القرآن ! أو أن سورة أكلتها الداجن فلم يعثر عليها !!

(١) ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُم﴾(البقرة ٢٨٢)، ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾(النور ٤).

نحن نعتقد بخطأ ذلك، ولكن من يقول بأن الجمع تم على يد شخص غير معصوم لا بد أن يلتزم بهذا اللازم.. فكيف يكون كتابا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والحال أن هذه الطريقة التي تم الجمع بها على رواية مدرسة الخلفاء لا تنافي وقوع الخطأ والنسيان والزيادة والنقصان فيه؟

ولو أردنا أن نضرب مثالا في ذلك أنه لو أردنا جمع أشعار الشريف الرضي مثلا، وشكلنا لجنة في ذلك وعملت جهدها في الجمع والاستقصاء.. وأخرجت كتابا.. فإنها لا تستطيع أن تقول إن هذا هو كل ما قاله الشريف الرضي.. أو أن ما هو مجموع الآن هو كلماته كلها ولم تبدل كلمة بأخرى !! والسبب في ذلك أن من جمع شعره فعل ذلك بعده، وأنه غير معصوم وبالتالي فقد ينسى ويخطئ ! ونفس القضية تنطبق على الرواية الرسمية لمدرسة الخلفاء.

وهذا هو الذي فتح لبعض المستشرقين المعاندين باب القول أن الطريقة التي جمع بها القرآن وهم يقصدون الرواية الرسمية لمدرسة الخلفاء لا تجعل الباحث مطمئنا بأن هذا النص كله من عند الله، أو أنه لم يضع منه شيء !

٧. بل هناك كلام حتى بالنسبة للقائمين على قضية الجمع، فإن رئيس تلك اللجنة هو زيد بن ثابت وهو عندما جاء النبي إلى المدينة كان كما قالوا عمره ١٠ سنوات.. وصار بعدها من كتاب الوحي يعني أنه أولا لم يشهد المرحلة المكية والتي احتوت على أكثر السور (٨٦ سورة على المشهور)، وعندما صار النبي في المدينة كان زيد في هذا السن المبكر، ولذلك فقد اعترض عدد من الصحابة لا سيما ابن مسعود[١] وأُبي بن كعب على تعيينه على رأس

(١) نقل عن ابن مسعود قوله: والله لقد قرأت من في رسول ﷺ سبعين سورة، وإن زيدا لذو ذؤابتين يلعب بالمدينة!.

تلك اللجنة مع وجود كبار حفظة القرآن ممن شهدوا المرحلة المكية وكانوا في المرحلة المدنية متميزين بالعلم بالقرآن.

فأين كان هؤلاء؟ أين علي بن أبي طالب الذي رافق النبي منذ اليوم الأول للبعثة إلى اليوم الأخير من حياة النبي؟ وأين ابن مسعود؟ وأبي بن كعب؟ وأبو الدرداء وغيرهم؟

٨. اختلاف روايات الجمع إلى حد التهافت، أشار إليه الإمام السيد الخوئي، فقد تتبع روايات الجمع بحسب ما جاء في مصادر مدرسة الخلفاء، ورأى أن بعضها يشير أن الذي أمر بالجمع هو أبو بكر، وبعضها الآخر أنه عمر والثالث أنه عثمان ! وأن المناسبة التي دعت إلى ذلك في بعضها كان: أنه استحر القتل في حفاظ القرآن في معركة اليمامة زمان الخليفة الأول، وفي بعضها الآخر أنه كان بناء على الاختلاف بين المسلمين في أذربايجان في عهد عثمان، وما هو دور زيد بن ثابت فإن بعضها يثبته وبعضها ينفيه.. وينتهي من ذلك إلى أن هذه الروايات في تفاصيلها متعارضة متهافتة.. ثم يقول إنها أيضا مخالفة لحكم العقل ولصريح القرآن الكريم (فإن كثيرا من آيات الكتاب الكريمة دالة على أن سور القرآن كانت متميزة في الخارج بعضها عن بعض، وان السور كانت منتشرة بين الناس، حتى المشركين وأهل الكتاب، فإن النبي ﷺ قد تحدى الكفار والمشركين على الاتيان بمثل القرآن، وبعشر سور مثله مفتريات، وبسورة من مثله، ومعنى هذا: أن سور القرآن كانت في متناول أيديهم)[1].

٩. من جملة ما يذكر مما فيه إشارة إلى أن القرآن كان مجموعا ولو في كل

(١) البيان ٢٥٢.

مرحلة بنسبتها هو الاشارة إليه بعنوان الكتاب تارة وبعنوان المصحف أخرى، والكلام عن استحباب النظر إليه ثالثة، فإنه لا معنى لقول النبي: تارك فيكم كتاب الله، مع كونه غير مكتوب ! وليس بالامكان تناوله ! بل حتى في قضية (حسبنا كتاب الله) إشارة لذلك فإن النبي لما طلب دواة وكتفا ليكتب كتابا، قالوا: حسبنا كتاب الله يعني إنه موجود بين أيدينا وهو يكفينا.

ولا يصدق على القرآن المحفوظ في الصدور أنه كتاب ! وأوضح من ذلك ما ورد من الروايات عن النبي حول المصحف والنظر فيه وأن من ينظر فيه يمتع ببصره في الدنيا !

جمع القرآن في رؤية الشيعة الإمامية

عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال (ما أحدٌ من هذه الأمة جمع القرآن إلا وصي محمد)[1].

وعن أبي عبدالله جعفر ابن محمد الصادق عليه السلام أنه قال إن رسول الله قال لعلي: (يا علي القرآن خلف فراشي في الصحف والحرائر والقراطيس فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة، فانطلق عليٌّ فجمعه في ثوبٍ أصفر، ثم ختم عليه في بيته، وقال لا أرتديه حتى أجمعه، فإنه كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه)[2].

الرأي المشهور الذي يُفتي به مراجع التقليد في هذا الزمان أن القرآن الكريم قد جُمع في زمان حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وأكمل ذلك الجمع بصورته النهائية أمير المؤمنين علي عليه السلام بوصية من رسول الله صلى الله عليه وآله كما يفيد ذلك ما روي عن الإمام الصادق مفصلا.

(١) تفسير القمي ؛ علي بن إبراهيم القمي ٢ / ٤٥١.
(٢) نفس المصدر السابق والصفحة.

يخالف الإمامية مدرسة الخلفاء في طريقة وصول القرآن الكريم، وفي مقدار الضمانات التي يؤكدون وجودها بالنسبة إلى القرآن الكريم، بحيث لا يمكن مع هذه النظرية أن يتطرق أي احتمال بأي نسبة كان من وجود خللٍ أو خطأ أو غير ذلك.

بينما على النظرية الأخرى، التي ذكرنا عددًا من الانتقادات الموجهة إليها في جمع القرآن، يتطرقُ الشك وتنفتح الأبواب من قبل أعداء الدين والمخالفين للقرآن الكريم للتشكيك في مصداقيته بكامله أو في كماله وتمامه.

أسخف الطرق في إثبات القرآن

وأعجب من هذا عندما يتبجح بعض من المسلمين بالقول:أنا لي سند للقرآن وهو عن فلان عن فلان عن فلان إلى رسول ﷺ، هذا من أسخف الطرق من الناحية العلمية عندما نريد أن نُثبت القرآن بسند يعتمد على خبر الأحاد، لو فهم القائلون لهذه الكلمات مؤدى كلامهم لستروا هذا الكلام، القرآن أسمى في ثبوته وبقائه ووصوله إلى المسلمين من هذا وأعظم وأكبر.

وصول القرآن إلى المسلمين

يقول الإمامية بأن هناك ثلاثة عوامل مهمة في وصول القرآن للمسلمين:

الأول: التلقي المباشر

التلقي مباشرة من الله عز وجل عبر جبرئيل ثم رسول ﷺ وبخط أمير المؤمنين عليه السلام، هذه مراحل من العصمة تنتهي إلى أمير المؤمنين وقد ذكرنا في موضوع سابق أنه لا يُعقل أن يُنتِج غيرُ المعصوم كتابًا معصومًا.

يعتقد الإمامية بأن الله أوحى إلى رسوله صلى الله عليه بواسطة جبرئيل عليه السلام، ورسول ﷺ حفظ ذلك وألقاه إلى كُتابِ الوحي، وأعظمهم وأهمهم وأولهم علي أمير المؤمنين عليه السلام، الذي يقول(ما من آية في كتاب الله عز وجل إلا وهي إملاء رسول ﷺ بخط يدي)[1]وبعد هذا الحديث الشريف لا نحتاج إلى مثل ما قيل(اجمعوها من العسب) أو نريد شهودا هل سمع فلان هذه الآية أم لا، وما شابه ذلك.

كذلك نحن لا نحتاج ٢٣ سنة بعد هجرة رسول ﷺ حتى يُجمع القرآن كما هو المدعى في رواية مدرسة الخلفاء ! بل كان هذا الكتاب مجموعا في زمان رسول ﷺ وأيامه بمقدار معين، الختم النهائي لهذا الجمع كان عند وفاة رسول ﷺ، وكان ذلك بأمر رسول الله، فقد أمر علي عليه السلام أن يأخذ هذا الشيء المكتوب المدون لكي يكمله ويعطيه صورته الأخيرة.

هذا التلقي المباشر يُفوت أي احتمال أو إمكانية لأن يُقال مثلاً (أكلت الداجن السورة الفلانية) أو (كنا نقرأ سورة الأحزاب بمئتي آية) وما شابهها من الأحاديث غير الصحيحة، فالتلقي كان من فم رسول الله وخط علي ابن أبي طالب.

العامل الثاني: العرض الجبرئيلي

فإن الأمين جبرئيل كان ينزل على الأمين محمد ﷺ بالآيات خلال السنة حتى إذا تمت تلك السنة نزل مرة أخرى فعرض عليه ما نزل خلال هذا السنة من جديد.

لو فرضنا أنه تم نزول ٤٠ آية في شهر محرم، وفي شهر صفر مثلها وهكذا، فإنه

(١) نقله السيد الشهرستاني في دراسة له منشورة في مجلة تراثنا عدد ١١٠ (نسخة الكترونية عن كتاب سليم بن قيس (..فلم ينزل الله تعالى على رسول الله ﷺ آية إلاّ وقد جمعتها، وليست منه آية إلاّ وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلّمني تأويلها.

هذه كلها تُسجل وتُدون من فم رسول ﷺ إلى قلم علي عليه السلام وباقي كُتاب الوحي، ومنهم إلى المسلمين، وبعد نهاية السنة كان ينزل جبرئيل ويعرض كل الآيات التي نزلت على الرسول ﷺ خلال هذه السنة بكاملها.

ولهذا يشير ما روي عن رسول الله في مواضع متعددة ولاسيما وهو يودع في السنة الأخيرة أنه كان يقول (إن جبرئيل كان يعارضني في كل سنة مرة بالقرآن وقد عارضني في هذه السنة مرتين)[1]-يُعارض هنا من باب المُفاعلة أي يعرضُ علي وأعرض عليه ؛ تعارض بمعنى تبادل العرض-ومن ذلك علم النبي وأفهم أصحابه بأنه سوف يغادر الدنيا في هذه السنة، فمعنى هذا الكلام أن هذا الكتاب المجيد تمت مراجعته وتدقيقه ٢٤ مرة خلال ٢٣ سنة.

ونرى أنه لا يمكن أن يصل التدقيق في شيء ما حتى يصل لأربعة وعشرين مرة في الوضع الطبيعي، لنفترض مثلاً أن شخصًا ما يمتلك شركة، فيدقق حساباته سنويا، يراجعها ثم يرفعها إلى المدير، يراجعها المدير بدوره ثم يرفعها إلى المحاسب القانوني، يراجعها هذا ويرفعها إلى شركة محاسبة تراجعها، هذه الحسابات يتم تدقيقها ٥ أو ٦ مرات في أقصى الحالات، بعدها ينتهي الموضوع.

ولكن القرآن الكريم لم يُدقق مرة أو مرتين أو ثلاث بل تمت مراجعته بما مجموعه ٢٤ مرة، تم فيها عرض القرآن وختمه بين جبرئيل وبين رسول ﷺ بالمقدار الذي أوحي إليه.

في السنة الأولى لنفترض نزلت ٣٠٠ آية، هذا المقدار يعرضه جبرئيل على

(١) حديث النبي ﷺ لفاطمة في أواخر حياته.. نقله الشيخ الصدوق في الأمالي / ٦٩٢.. وفي مصادر مدرسة الخلفاء كل من تحدث عن مناقب فاطمة الزهراء عليها السلام كالبخاري ٤/ ١٨٣ ومسند أحمد ٦/ ٢٨٢.

رسول ﷺ ورسول الله يعرضه على جبرئيل، في السنة الثانية لنفترض نزلت ٣٠٠ أخرى، أيضا يتم العرض مرة أخرى بين الرسول وجبرئيل لمجموع ما نزل في السنتين، السنة الأولى والسنة الثانية، بعدها في السنة الثالثة مجموع العرض يكون للسنوات الثلاث وهكذا.

هنا لا يمكن أن لأحد من المستشرقين لو كان منصفا أن يقول أن القواعد تقتضي بأنه مادامت طريقة الجمع هي هذه المذكورة في كتب المدرسة الأخرى فهناك احتمالات كبيرة لأن تكون آيات لم تُذكر وآيات قد نُسيت وما شابه، لأنه بناءً على هذه الرؤية التي ذكرنا من التلقي والعرض المتكرر فمن المستحيل حصول ذلك.

العامل الثالث: التواتر

التواتر بمعنى أن النبي استلم الآيات المباركات، وأخبر كُتاب الوحي فكتبوها، وخرج على المسلمين وأَقرَأَهُم هذه الآيات. والأخبار من الطرفين ومن المدرستين قائمة على أن النبي كان يخرج على الناس بعشر آيات عشر آيات، ويقرأها عليهم حتى يحفظوها ويعرفوا معانيها.

إذن هنا لم يكن فقط كُتاب الوحي من كان يكتب الآيات ويحتفظ بها، وهنا نرى الاختلاف الذي بين اليهود والمسلمين. فعامةُ الناس لا شأن لهم بالتوراة عند اليهود،، ومن لهم شأن بالتوراة ؛ يكتبونها ويحفظونها هم الفئة الدينية ، ولكن المسألة تختلف عند المسلمين، فالإنسان المسلم مسؤول عن كتابه المنزل في قراءته وحفظه وتلاوته وتعلمه.

رؤية المدرسة الإمامية في جمع القرآن

منذ نزول القرآن إلى وفاة رسول ﷺ نجد أن من سمع القرآن وتلاه وحفظه

لم يكونوا بالعشرات، بل بالمئات، وهذا ما بيناه سابقا أنه حتى بناءً على روايات المدرسة الأخرى فيما حدث في معركة اليمامة والإخبار بأن المسلمين فقدوا أو استُشهِدَ منهم ٧٠ حافظًا من حفظة القرآن الكريم، فهذا عدد من استشهد من حفظة القرآن، وليس كلهم، فليس كل من حضر المعركة استشهد، قسم من الحفاظ لم يذهب للمعركة، وقد كانوا من الحفاظ أيضاً، فكان عدد حفاظ القرآن كبيرا لاسيما مع تأكيد الرسول ﷺ على الحفظ والتلاوة[1]،ولذا نتعجب من القصة التي تذكرها مصادر مدرسة الخلفاء حول جمع القرآن.. وكأنما كان القرآن قد ضاع، واحتاجوا إلى النداء في الناس: من سمع آية من القرآن فليأت وليذكرها، ومن جاء بآية أو أكثر فليأت بشاهدين للتأكد من كلامه !!..

نعتقد في مدرسة أهل البيت أن القرآن وصل في كل عصر إلى أعلى درجات التواتر، فمئات في زمان رسول الله وما بعد زمانه قرأوا القرآن وحفظوا القرآن واهتموا به،وأخذه عنهم آلاف، وهكذا كلما ارتقينا في عصرٍ زاد العدد.. لذلك لو قال شخص أنا أروي القرآن وطريقي إليه بسند عن فلان عن فلان عن فلان، نجيب عليه بأن هذا ظلم للقرآن، لأن هذا الكلام يفتحُ باب التشكيك في القرآن الكريم. ويؤيد مقالة بعض المستشرقين الذين شككوا في سلامة وصول القرآن للمسلمين !

(١) مثلما روي عن رسول الله: (اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه). وعنه (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها). (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده). (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول (الم حرف ولكن: ألف حرف ولام حرف، وميم حرف).(يجيء صاحب القرآن يوم القيامة، فيقول: يا رب حله، فيلبس تاج الكرامة. ثم يقول: يا رب زده فيلبس حلة الكرامة، ثم يقول: يا رب إرض عنه، فيقال إقرأ وإرق ويزاد بكل آية حسنة. (خيركم من تعلم القرآن وعلمه).

مهام أمير المؤمنين علي بعد وفاة رسول الله

يتحدث الامام علي عليه السلام عن قربه من رسول الله وانسجامه معه، وعن شدة اهتمام النبي به بما نقله الشريف الرضي في نهج البلاغة:(وقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّه ﷺ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ والْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِه وأَنَا وَلَدٌ يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِه، ويَكْنُفُنِي فِي فِرَاشِه ويُمِسُّنِي جَسَدَه، ويُشِمُّنِي عَرْفَه، وكَانَ يَمْضَغُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُلْقِمُنِيه، ومَا وَجَدَ لِي كَذْبَةً فِي قَوْلٍ ولَا خَطْلَةً فِي فِعْلٍ، ولَقَدْ قَرَنَ اللَّه بِه ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِه، يَسْلُكُ بِه طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ الْعَالَمِ لَيْلَه ونَهَارَه، ولَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُه اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرَ أُمِّه، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِه عَلَماً، ويَأْمُرُنِي بِالِاقْتِدَاءِ بِه، ولَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحِرَاءَ، فَأَرَاه ولَا يَرَاه غَيْرِي، ولَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ، غَيْرَ رَسُولِ اللَّه ﷺ وخَدِيجَةَ وأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ والرِّسَالَةِ وأَشُمُّ رِيحَ النُّبُوَّةِ، ولَقَدْ سَمِعْتُ رَنَّةَ الشَّيْطَانِ حِينَ نَزَلَ الْوَحْيُ عَلَيْه ﷺ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّه مَا هَذِه الرَّنَّةُ، فَقَالَ هَذَا الشَّيْطَانُ قَدْ أَيِسَ مِنْ عِبَادَتِه، إِنَّكَ تَسْمَعُ مَا أَسْمَعُ وتَرَى مَا أَرَى، إِلَّا أَنَّكَ لَسْتَ بِنَبِيٍّ ولَكِنَّكَ لَوَزِيرٌ)[1].

وفي ذلك الوقت المبكر لم يكن هناك زيد بن ثابت ولا غيره من أصحاب النبي الذين بدؤوا بكتابة الوحي بعد الهجرة غالبا.. وحده الامام علي عليه السلام كان من اليوم الأول للبعثة مع النبي وشهد تنزل القرآن منذ ذلك الوقت، ولعل هذه الجهة هي التي يشير إليها حديث الامام محمد الباقر عليه السلام: (ما جَمَعَ من هذهِ الأمة أحدٌ القرآن غيرُ وصي مُحمد).

وفي نص آخر في تقرير هذه الحقيقة يقول الامام علي عليه السلام : (ما من آية في كتاب

(١) نهج البلاغة ٢/ ١٥٧.

الله إلا وهي إملاء رسول الله وخط يدي)[١].

وبالنسبة لجمع القرآن، فقد كان مكتوبا عند رسول ﷺ، ونسخته في بيت النبي، لكن حيث أنه ما دام النبي على قيد الحياة فإن القرآن الكريم لم يُختم بعد، ويُحتمل أن ينزل عليه الوحي بآية مثلاً. لذلك فإنه في آخر لحظات حياته ﷺأوصى عليا عليه السلام أنه إذا قضيت نحبي، هذا المصحف خلف فراشي وهو في القراطيس والحرير والقماش وغير ذلك، فخذه واجمعه حتى لا يختلف المسلمون فيه كما اختلفت اليهود في التوراة، فجمعه عليٌ كما أُنزل[٢].

أخذ الإمام علي عليه السلام هذه القراطيس والجلود والأقمشة وذهب إلى بيته، وكان الناس قد انشغلوا في ذلك الوقت بقضية الخلافة والسقيفة، بينما أمير المؤمنين بقي في بيته وقام بمهمتين:

المهمة الأولى: توحيد كتابة هذا القرآن

كل قسمٍ من القرآن الكريم كان مكتوب في شيء مختلف، بعضه على ورق وبعضه على قماش وجلد وغيرها، فقام أمير المؤمنين بتوحيد هذا المكتوب وكتبه في شيء واحد.. يعني وحد ما يكتب عليه.

المهمة الثانية: جمع القرآن كما أُنزل

جمعه الإمام عليٌ كما أُنزل. بمعنى لم يكن فيه أي زيادة أو نقيصة، وفي بعض الروايات لم يُغادر ألِفًا ولا لاما، أي حتى من الناحيةِ الإملائية والخطية. وأيضا يحتمل ان يكون الإمام عليه السلام رتب السور بحسب نزولها التاريخي، يعني مثلاً أول

(١) تقدم ذكر مصدره.

(٢) كما ورد في خبر الإمام الصادق عليه السلام.

ما بدأ بالترتيب كانت سورة العلق﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنسان مِنْ عَلَقٍ﴾، فمن المعروف أن هذه السورة أو على الأقل آياتها الخمس الآوائل كانت أول ما نزل إيذانًا ببعثة رسول ﷺ، البعض يقول كل السورة والبعض الآخر يقتصر على الآيات الخمس الأوائل، وهذا له بحثه.

إذن إن أردنا ترتيب القرآن ترتيبًا تاريخيًا، المفترض أن تكون هذه السورة هي الأولى. ثم نظر إلى السورة الأخرى التي نزلت بعدها في قضية رجوع النبي ﷺ إلى بيته وهي سورة المدثر﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، فتكون هذه السورة هي الثانية، السورة الثالثة بحسب الترتيب سورة نون ﴿ن*وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، تأتي بعدها سورة المزمل﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ وهكذا.

وكما قلنا في وقتٍ مضى، أن ترتيب السور في هذا القرآن الموجود بين المسلمين ليس ترتيبا توقيفياً، أي لا يوجد دليل على هذا الترتيب وإنما هو أمر تم التعارف عليه، وهو الترتيب الذي حصل في زمان الخليفة الثالث كما هو مشهور، ورُتب على أساس حجم السور، أولا بدأوا بالسبع الطوال كما يسمونها، البقرة، آل عمران، النساء وهكذا، ثم بعدها تأتي المِئون وهي السور التي آياتها حوالي المئة، ثم بعدها المفصل ثم قصار السور فالترتيب هنا كان على أساس كمي وعلى أساس عدد الآيات في كل سورة.

فائدة الترتيب التاريخي للقرآن الكريم

هناك فرق بين أن يكون الترتيب في القرآن الكريم على أساس تاريخي أو أن يكون على أساس كمي، الترتيب التاريخي ينقل للإنسان تطور مرحلة الدعوة الإسلامية وحركة النبي ﷺ شيئاً فشيئاً، وكأنك تُرافق النبي ﷺ من الناحية التاريخية، وفي

هذا الترتيب منافع عظيمة، ولذلك بعض علماء القرآن، حتى من مدرسة الخلفاء، يقولون أنه لو كان الأمر على طبق الرواية من أن عليًا عليه السلام رتب القرآن كما أُنزل من الناحية التاريخية فإن فيه علمًا كثيرًا وقد فات الناس.

لنأخذ على سبيل المثال لو كنت طبيبًا، وأتى إليك مريض، وكان بإمكانك أن تعرف تاريخ مرضه من ١٠ سنوات وأنه كان يعاني من كذا ثم بعدها بسنتين تطور الحال إلى شيء آخر، كطبيب ستكون الرؤية لديك واضحة من ناحية تطور المرض في هذا المريض. وهذا كما ينطبق على الافراد ينطبق كذلك على المجتمعات.

وبالنسبة للرسالة والدعوة لو عرفنا تاريخ هذه السور، والآيات وكيف تماشت مع حركة النبي صلى الله عليه وآله سيكون لدينا رؤية واضحة ولكن ما حصل كان غير هذا.

السؤال هنا هو أين ذهب هذا القرآن الذي رتبه الإمام علي عليه السلام؟! سنتحدث عن هذا الأمر فيما بعد، ونشير إلى ما ذكره باحثون من أن الأصل للقرآن الذي نقرأه هو ما كتبه علي عليه السلام، وأن ما حصل فيه من تغيير من قِبَل الخليفة الثالث هو تقديم وتأخير في ترتيب السور فقط.

ضمانات عدم تغيير القرآن الكريم

هذا الاهتمام بالجمع من قِبَل رسول الله صلى الله عليه وآله وبمباشرة علي عليه السلام يتوافق مع مقتضى الاعتبار، في أنه لو أن النبي (لم يكتب لأنه مأمور بذلك) ولم يأمر بالكتابة فلم يجمع القرآن في زمانه لكان ذلك يُعد والعياذُ بالله تضييعًا لأهم قضية تربط الأمة وهو القرآن.

وأما بناءً على ما يراه الامامية فإن الله عز وجل أوحى، والنبي تلقى الوحي وعليٌ وليس أي كاتب وإنما كاتب معصوم، وليس برواية غير مباشرة عن أحدٍ ما وإنما من

لصيق برسول الله من اليوم الأول للبعثة. سمع رنة الشيطان في أول وحي، وبقي مع النبي إلى آخر لحظة عند رأسه، وكان في هذه المدة لا يُفارقه، هذه ضمانة أكيدة.

تضمين آخر ذكرناه وهو قضية العرض الجبرئيلي في كل سنة إلى أن وصلت ٢٤ مرة في ٢٣ سنة.

تواتر القرآن صيانة عن التحريف

قراءة المسلمين للقرآن تصل لحد التواتر. تواتر القرآن هذه فكرة ينبغي أن يُفكر فيها أتباع المدرسة الأخرى .فلا معنى أبدا لأن يقول فلان عندنا سند إلى القرآن، والحال أن أعلى مراتب التواتر والذي يعني أنه في كل طبقة مجموعة كبيرة من الناس يقرأون القرآن، مجتمعٌ كامل يقرأ القرآن.

لو أردنا أن نفهم معنى التواتر في القرآن فلننظر إلى العالم الإسلامي اليوم وكيف يتعامل مع القرآن؟ فالحكومات من جهتها لأسباب مختلفة تعنى بالمسابقات القرآنية، وطباعة القرآن، ومسابقات حفاظ القرآن، والتفسير، وغير ذلك، هذا على المستوى الرسمي في كل البلاد الإسلامية.

ثم ننزل إلى طبقات أخرى من المجتمع، هيئات شعبية ومؤسسات، فقسم كبير من المسلمين يجدون التقرب لله والأجر في أن يدفعوا من أجل القرآن، وطباعته، وتشجيع حفظه وتلاوته ويوقفون الأوقاف القرآنية، للاهتمام به..

نأتي الى المستوى العام في كل المسلمين، فكل شخص ملتزم يحاول أن يختمه على الأقل في شهر رمضان، ولو مرة واحدة.

نفس هذه الصورة انقلها إلى ما قبل مئة سنة تجدها نفسها تماما في زمن

أجدادك، أيضا قبل ٢٠٠ سنة نفس الكلام وهكذا إلى أن تصل إلى زمان رسول ﷺ فلو طلب شخص أو باحث راويا واحدا يروي القرآن في هذا الزمان ستسخر منه، أنت تتحدث عن عشرات الملايين وهذا يطلب راويا واحدا !

عنوان الكتاب لدى المسلمين

ذكرنا أيضا فيما مضى أن كلمة الكتاب كانت معروفة بين المسلمين وبين غيرهم، حتى الكفار يقولون ﴿اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[1]، اكتتبها يعني طلب كتابتها، وهم يعلمون أن النبي ﷺ لا يكتب مع ذلك يزعمون الاكتتاب يعني أتى بجماعة يكتبون له.

غاية الأمر أن هذا الكتاب، في كل مرحلة كان بحجمه ،في السنة الأولى كان بحجم، في الثانية صار أكبر وهكذا، الحجم النهائي والأخير كان الذي قام بجمعه أمير المؤمنين عليه السلام، ولم نكن بحاجة إلى أن ننتظر إلى ما بعد سنة ٢٣ هجرية حتى نجمع القرآن.

ورواية أن الامام عليا قد جلس في بيته وقال إنه لا يضع الرداء حتى يجمع القرآن يذكرها كل مؤرخي تلك الفترة على اختلاف أهدافهم وغاياتهم من نقلها، الشيعة يأتون بهذه الرواية باعتبار أن هذا الجمع يُنسب إلى أمير المؤمنين، المدرسة الأخرى يروون هذه الرواية حتى يُستفاد منها في قضية الخلافة، وأن الامام لم يتأخر عن بيعة أبي بكر رفضا له وإنما انشغالا بالقرآن.. لكنهم يجمعون على قيامه بهذا العمل.. فماذا يعني أن يتم جمع ما هو مجموع وكامل؟

يُؤهل الإمامَ عليه السلام لهذا الجمع ما كان لديه من قرب للرسول ﷺمما تكلم عنه

(١) الفرقان / ٥.

بنفسه [١] ومن إمكانات ذاتية، ﴿وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[٢] قال النبي ﷺ (سألت الله أن يجعلها أُذنك يا علي)، هو أيضا عليه السلام يقول:(فوالله ما في القرآن آية إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت، في سهل أو في جبل، وإن ربي وهب لي قلبا عَقولا، ولسانا ناطقا)[٣] فالإمكانات كُلها لديه، قدرة على الكتابة، وأذن واعية، وقلب عقول معرفة باهتمامات النبي ﷺ وأقرب الناس إليه فهو تربية يده ﷺ.

(١) في الفقرة السابقة التي نقلناها من نهج البلاغة.

(٢) الحاقة / ١٢.

(٣) موسوعة الإمام علي بن أبي طالب (عفي الكتاب والسنة والتاريخ – محمد الريشهري ١٠ / ٥٢.

صفحات من تاريخ القرآن المجيد

﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].

هذا الموضوع يتناول صفحات من تاريخ القرآن المجيد إلى أن أخذ صورته النهائية المنقّطة والمعرّبة المضبوطة الموجودة بين أيدي المسلمين الآن، وقد مرّ بعدة مراحل:

المرحلة الأولى

عندما كان القرآن الكريم في اللوح المحفوظ ونزل دفعة واحدة، ويطلق بعض الباحثين على هذه المرحلة ب (مرحلة النزول الكلي أو الدفعي)فالقرآن الكريم كان في لوح محفوظ كما تعبّر الآية الكريمة ﴿بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ﴾[2]، ما هو اللوح المحفوظ نحن لا نعلم ذلك لكنه قد ورد في الآيات والأخبار أنّ هذا القرآن المجيد في لوح محفوظ ثم نزل دفعة واحدة من ذلك المكان إما إلى قلب

(١) سورة طه أية ١١٤.
(٢) البروج / ٢١ـ ٢٢.

رسول الله ﷺ، أو نزل إلى السماء الدنيا، وقيل أنّه نزل إلى بيت العزة في السماء الرابعة.

لا شك ولا ريب أنّه نزل على قلب رسول الله ﷺ دفعة واحدة ثم نزل نجومًا، وهذا هو النزول الأول وهو النزول الدفعي.

المرحلة الثانية: التنزيل الثاني

كان تنزيلًا تدريجيًا، والهدف هو إقراؤوه للناس واعتماده في البعثة قال تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[1].

وغاية هذا التنزيل بشكل متدرج أن يتفقّه به الناس ويلتزمون به ويحفظونه، وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾[2]، وفي الآية التي ذكرناها أول الكلام ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ وإن كان هذا في قلبك يا رسول الله إلا أنّ المطلوب أن يكون على دفعات أي على هون لكي يحقق غاياته.

المرحلة الثالثة: جمع القرآن الكريم

مدرسة الخلفاء ذهبت إلى أنّ أول من جمع القرآن الكريم هو الخليفة الثالث وفي عهده كان الجمع الأكبر، وهذه النظرية تواجه إشكالات وملاحظات كثيرة، وإنّ الصحيح ما ذهب إليه الإمامية من أنّ القرآن الكريم كان يكتب في زمان رسول الله ﷺ وأنّه لم يذهب رسول الله عن هذه الدنيا إلا والقرآن مكتوب، بل والأكثر

(١) سورة الإسراء / ١٠٦.
(٢) هود / ١.

من ذلك أنّ عليا عليه السلام بتوصية النبي صلى الله عليه وآله أكمل ذلك الجمع والتدوين بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله بأيام.

وما حدث في زمن الخليفة الثالث في رأي الإمامية أنّه جمع الناس على قراءة واحدة. وهذا يختلف عن جمع القرآن الكريم، فكما ذكرنا أنّه كتب وجمع في عهد رسول الله، وكان في دار رسول الله نسخة من القرآن الكريم والصحابة الكبار وخصوصًا كتّاب الوحي كان لديهم نسخهم الخاصة أمثال (مصحف عبد الله بن مسعود المعروف ومصحف أبي بن كعب، ومصحف المقداد ومصحف أبي الدرداء الانصاري.

إن «الذي صنعه عثمان هو أنه قد جمع القرآن في زمانه، لا بمعنى أنه جمع الآيات والسور في مصحف، بل بمعنى أنه جمع المسلمين على قراءة إمام واحد، وأحرق المصاحف الأخرى التي تخالف مصحفه، وكتب إلى البلدان أن يحرقوا ما عندهم منها، ونهى المسلمين عن الاختلاف في القراءة»[1].

وقد عبر عن الفكرة السابقة بعض العلماء من غير مدرسة أهل البيت عليهم السلام ووصل الى هذه النتيجة، ولعل ذلك قد جعل البعض يتخذ منهم موقفًا شديدًا، ومن هؤلاء (الحارث بن أسد المحاسبي) الذي توفي سنة ٢٤٣ للهجرة كما نقل عنه السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن)، فقد نقل عن الحارث المحاسبي هذه الفكرة التي يقول فيها (والمشهور عند الناس أنّ جامع القرآن عثمان وليس كذلك إنما حمل عثمان الناس على قراءة بوجه واحد على اختيار وقع بينه وبين من شهده من المهاجرين والأنصار لما خشي الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام) يقول ولو أنّ المشهور أنّ جامع القرآن هو عثمان لكن هذا في رأيه ليس صحيحًا.

(١) البيان / ٢٥٨.

وقد يكون لهذا السبب ولغيره من الأسباب قيل عنه أنّه مبتدع ومخالف للسنة وقالوا فيه كلامًا شديدًا.

إذن كان في عهد الخليفة الثالث عملية جمع القرآن على قراءة واحدة، وبقاء نسخة واحدة وأغفلت بقية النسخ بل وأحرقت بقرار رسمي من قبل الدولة آنذاك.

ولا يستبعد بعض الباحثين أن يكون حذيفة بن اليمان العنسي وهو صاحب فكرة جمع القرآن على قراءة واحدة ومن أشار على الخليفة بذلك، ومن المعروف أنّ حذيفة بن اليمان كان من الموالين لأهل البيت ولأمير المؤمنين عليه السلام، وكان ولاؤه قويًا، إذ يصنف من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان إيجابيًا في التعاطي مع الخلافة القائمة، وكان موقفه كموقف البقية من أصحاب أمير المؤمنين كعمار بن ياسر وغيرهم وحذيفة وخالد بن سعيد بن العاص، حيث كانوا في حالة إيجابية مع الخلافة ولم يعارضوها مع اعتقادهم بأولوية علي عليه السلام وأحقيته في الخلافة، حيث قادوا الجيوش ومنهم سلمان الفارسي حيث تولى الولايات وذهب إلى المعارك، وكذلك حذيفة بن اليمان قاد الجيوش وعمار بن ياسر أصبح والٍ على الكوفة في فترة من الفترات وهكذا.

لا يستبعد أن يكون حذيفة قد أخذ نسخة أمير المؤمنين عليه السلام والتي كتبها بيده وهي التي اعتمدت من قبل الخلافة مع تغيير في ترتيبها وإعادة كتابة عدة نسخ منها، وبطبيعة الحال يبقى الأمر في دائرة الاحتمال ويحتاج إلى قرائن تاريخية ومثبتات.

المرحلة الرابعة

تغير ترتيب سور القرآن الكريم في زمن الخليفة الثالث وأنّ القرآن بعد ما كان مرتبًا على أساس النزول التاريخي للسور المباركة وهو الذي كان عليه مصحف

الامام علي عليه السلام، فأصبح بعد ذلك مرتبا على أساس العدد الكمي للآيات فأصبح في بداية القرآن بعد الفاتحة السور الطوال وبعدها السور المئون التي تصل آياتها الى المائة وأكثر، ثم سور المفصل، ثم السور القصار، هذا التغيير أصبح ولكن بقيت النسخة التي كانت بالأساس من رسول الله صلى الله عليه وآله وبكتابة أمير المؤمنين عليه السلام كما يحتمل بعض الباحثين أصبحت أرضية لبقية المصاحف الأخرى وربما يستشهد أصحاب هذا الرأي بأن أهم القراء وأهم القراءات تنتهي إلى أمير المؤمنين عليه السلام لأنّ القراءة المشهورة في الفرق الإسلامية كلها هي قراءة(حفص عن عاصم)[1].

قراءة حفص عن عاصم

قراءة حفص عن عاصم هي قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام، لأنّ حفصا من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وعاصم بن أبي النجود من أصحاب الإمام الباقر عليه السلام وأدرك الإمام زين العابدين عليه السلام وأخذ حفص القراءة عن عاصم وعاصم أخذها عن أبي عبد الرحمن السلمي وهو من خواص أمير المؤمنين عليه السلام وهو المقرىء الأساس في الكوفة وهو الذي يقول (أقرأني علي بن أبي طالب القرآن حرفًا حرفًا وأنا أقرأته لعاصم) وعاصم أقرأه لحفص راويه، وهذآ التسلسل ينتهي إلى أمير المؤمنين عليه السلام لكن البعض ربما يصعب عليه القول بأنّ النسخة الأصلية من القرآن الكريم قد كتبها أمير المؤمنين عليه السلام، فهي ليست قراءة حفص بن عاصم لكنها قراءة أمير المؤمنين عليه السلام

(١) في مقال نشر في موقع مركز الأبحاث العقائدية جاء فيه.. الكلام حول تشيعه من خلال اقوال علماء الخاصة فيه. فقد ذكره الشيخ الطوسي ضمن اصحاب الامام الصادق (عليه السلام والرواة عنه فقال: اسند عنه. راجع رجال الطوسي ص١٨٩ .ووصف الطوسي للراوي بكلمة (اسند عنه) يعتبر عند المحققين توثيقا له حيث هو مصطلح يدل على كونه حين وصف راو به انه من الاربعة الاف راوٍ الذي وثقهم ابن عقدة في رجاله. راجع خاتمة المستدرك للنوري الطبرسي ومجلة تراثنا العدد ٣ السنة الاولى.و قال الميرزا النوري الطبرسي في خاتمة المستدرك ٧/ ٢٩٧: حفص بن سليمان: ابو عمرو الاسدي الغاضري المقري البزاز الكوفي، اسند عنه، من اصحاب الصادق (عليه السلام).

لأنه الأستاذ الأصلي، ولكن ليس هذا المهم عند أمير المؤمنين بأن تنسب القراء إليه وتكون باسمه، المهم أنّ الأمة تلتزم بالقرآن الكريم الذي نزل على سيد الأنبياء محمد ﷺ.

قراءة حمزه الزيات

قيل أنّ من القراء أربعة وقيل ستة يحسبون على التشيع لأهل البيت[1]، ومنهم حمزة الزيات وقراءته تنتهي لأمير المؤمنين عليه السلام أيضًا فهو من خواص الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام و الإمام أخذها عن أبيه محمد بن علي الباقر ومحمد بن علي أخذها عن أبيه زين العابدين وهو أخذها عن أبيه الحسين عن أبيه علي أمير المؤمنين عليه السلام.

قراءة الكسائي

وهو تلميذ حمزة الزيات بنفس الترتيب أخذ القراءة عن هؤلاء جميعًا وغيرهم بالنتيجة قرأوا عن أمير المؤمنين عليه السلام، بل حتى سائر القراء مثل أبي العلاء أخذها عن يحيى بن يعمر العدواني ويحيى بن يعمر أخذها عن أبي الأسود الدؤلي وهو التلميذ المقرّب لأمير المؤمنين عليه السلام.

هذه المرحلة الرابعة ويحتمل فيها بعض الباحثين أنّ النسخة التي تمّ اعتمادها

(١) وقال الشيخ محمد هادي معرفة في التمهيد ٢/ ٢٤٠: كان اربعة – ان لم نقل ستة– من القراء السبعة شيعة فضلا عن غيرهم من ائمة قراء كبار، كابن مسعود وابي بن كعب وابي الدرداء والمقداد وابن عباس وابي الاسود وعلقمة وابن السائب والسلمي وزر بن حبيش وسعيد بن جبير ونصر بن عاصم ويحيى بن يعمر وعاصم بن ابي النجود وحمران بن اعين وابان بن تغلب والاعمش وابي عمرو بن العلاء وحمزة والكسائي، وابن عياش وحفص بن سليمان ونظرائهم من ائمة كبارهم رؤوس في القراءة والاقراء في الامصار والاعصار. أهـ وراجع للاستزادة والتفصيل لكل الطبقات الجزء الثاني من كتاب التمهيد لمحمد هادي معرفة.

بعد تغيير ترتيبها من ترتيب النزول التاريخي إلى ترتيب العدد الكمي للآيات لكن الأصل والمتن والآيات موجودة في النسخة التي كتبها أمير المؤمنين عليه السلام ويشهد ذلك أنّ هؤلاء هم قرّاء الإسلام المعروفين وأنّها القراءة الباقية إلى يومنا هذا، لاسيما في المشرق الإسلامي وما يتبعه، وهناك قراءات في المغرب الإسلامي لكنها محدودة .

المرحلة الخامسة: مرحلة التنقيط والتشكيل

كان القرآن مكتوبًا بلا نقاط وبدون ضبط للشكل، والحركات الإعرابية، بل والأكثر من ذلك أنّ الألف لا توجد في وسط الكلمة ربما لتأثر الخط الكوفي الذي كان يكتب به العرب في ذلك الوقت، بالخط السرياني لأنّ الخط السرياني لا يوجد فيه ألف في وسط الكلمة كما قالوا، وقد انعكس ذلك على كتابة القرآن الكريم، فعلى سبيل المثال كلمات مثل (الحياة) و(جنات) و(انعام) و(الشيطان) و(الملائكة).. وكثير من الكلمات.

ولما كان الكثير ممن دخل الإسلام من غير العرب لم يكن لهم سليقة عربية إذ لم تكن لغتهم الأصلية هي العربية، فقد لقي هؤلاء صعوبة في قراءة القرآن من غير نقاط ولا تشكيل ولا ألف في وسط الكلمة، بل والأكثر من ذلك أنه عندما خُطّ القرآن في زمن الخليفة الثالث واعتمدت النسخة الموحدة كان فيها بعض الأخطاء (بحسب قواعد الاملاء) لأن بعض كتّاب القرآن وناسخيه لم يكونوا على دراية كافية بالإملاء وقواعده، ولذلك وجدت أخطاء من الناحية الإملائية ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾[1] وأيضًا ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾[2]، وبالطبع فإن

(١) العلق / ١٥.
(٢) يوسف / ٣٢.

وجود عدد من الأخطاء الإملائية لا يضر بالقرآن الكريم فإنه كان من خطأ النساخ والكتاب.. وقد ذكر أنّ الخليفة الثالث قد لاحظ هذا الأمر حين الكتابة وينقلون عنه أنّه قال (إني أجد فيه لحنًا ولكن ستقيمه العرب بألسنتها)[١].

ولكن هذه كانت تعتبر مشكلة بالنسبة للموالي من غير العرب الذين يريدون قراءة القرآن الكريم، فالعرب بالاضافة إلى أن القرآن كان على وفق سليقتهم ولا يكادون يخطئون فيه، قد حفظوه في الصدور، أما الموالي فكانوا يجدون صعوبة في القراءة، هنا جاء دور الإمام أمير المؤمنين سلام الله عليه، حيث كان لديه تلميذً من خلّص أصحابه وقد علّمه قواعد النحو وهو أبو الأسود الدؤلي، وقال له (انح هذا النحو)[٢]، ومن هنا انطلق أبو الأسود الدؤلي وأخذ الخطوط العامة من الإمام ووضع قواعد النحو، وهنا أصبحت الفرصة سانحة لتشكيل القرآن الكريم و ضبط الحركات وكذلك التنقيط، حيث جاء باثنين من تلامذته ؛ يحيى بن يعمر العدواني الذي توفي سنة تسعين هجرية وكان ذلك في زمن الحجاج، حيث أمر أبو الأسود الدؤلي تلامذته بالتنقيط والتشكيل وقال (أَبُو الأَسْوَدِ: إِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ فَتَحْتَ فَمِي بِالْحَرْفِ فَانْقُطْ نُقْطَةً أَعْلاهُ، وَإِذَا رَأَيْتَنِي ضَمَمْتُ فَمِي فَانْقُطْ نُقْطَةً بَيْنَ يَدَيِ الْحَرْفِ، وَإِنْ كَسَرْتُ فَانْقُطْ تَحْتَ الْحَرْفِ، فَإِذَا أَتْبَعْتُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ غُنَّةً فَاجْعَلْ مَكَانَ النُّقْطَةِ نُقْطَتَيْنِ) ومن هنا بدأ يعرب الكلمات بهذه الطريقة وأصبح القرآن مضبوطًا بالشكل .

وكانت القراءة بدون التنقيط والتشكيل صعبة على من يريد القراءة من غير

(١) كتاب المصاحف لأبي داود السجستاني / ٤١، وسير أعلام النبلاء للذهبي ٤/ ٤٤٣.. وقد شكك بعض المتاخرين من أتباع مدرسة الخلفاء في صدور هذه الكلمة من الخليفة الثالث، ولعل التشكيك بل تكذيبها ناشئ من شناعة الفكرة.

(٢) المفصل في تاريخ العرب. جواد علي ١٧/ ٣٥.

العرب، إذ أنّ النقط هي من تعين على فهم الكلمات، فكلمة (يشكر) بدون نقط قد تكون (يسكر) أو (ينكر)، وكذلك بالنسبة للحروف السين والشين والباء والتاء والثاء، فبدأ بتنقيط الحروف ووضع الشين ثلاث نقاط وحرف الجيم نقطة في وسطها، والخاء نقطة فوقها، وهكذا أصبح القرآن الكريم مضبوطًا بالشكل ومضبوطًا بالحركات ومنقطًا.

كل هذا بأمر من تلميذ علي بن أبي طالب عليه السلام، وأكمل المهمة يحيى بن يعمر العدواني، والعجيب أنهم يقولون أنّ يحيى بن يعمر وضع النقاط والإعراب بأمر الحجاج بن يوسف الثقفي، مع أنّ الحجاج بعيد عن هذه الأمور، بل إنّ علاقته مع يحيى بن يعمر علاقة غير جيدة حيث نفاه إلى خراسان في قضية مفصلة[1].

(١) يقول الشعبي (دخلت يومًا على الحجاج وهو يقول أنا اليوم أريد أن أضحي بأحدهم وبعدها جيء بيحيى بن يعمر العدواني (وهو رجل شيخ كبير في السن فقال الحجاج له بلغني أنك تقول الحسن والحسين ابنا رسول الله، هل هما أولاد رسول الله فإذا جئت بآية من القرآن صريحة لك عشرة آلاف درهم. وإلا قطعت عنقك، ولكن لا تأت بأية المباهلة (..وأبناءنا وأبناءكم..) ناقل الرواية يقول لما قال الحجاج هكذا بدأتُ أتصببُ عرقًا قلت في نفسي الرجل سيقتل يحيى العدواني حافظ القرآن الكريم، بعد قليل قال يحيى وقرأ (ووهبنا له إسحاق ويعقوب..... وزكريا ويحيى وعيسى)ولما وصل إلى عيسى قال من أين اصبح من ذرية إبراهيم وهو ليس له أب أصلا؟؟ أليس من طرف أمه؟، هنا أطرق الحجاج برأسه وأصبح يفكر فقال له يحيى: إبراهيم وعيسى بينهم مسافة طويلة بل آلاف السنين ومع ذلك نسبه الله إلى إبراهيم من طرف أمه، ورسول الله ليس بينه وبين الحسن والحسين إلا فاطمة الزهراء عليها السلام وأنت تأبى أن ينسبا إلى رسول الله ﷺ، رأى جوابه قويًا فأخذ صرة الدراهم ورماها في وجهه وقال خذها لا بارك الله لك فيها)هكذا كان الحجاج يريد أن يورّطه ويسفك دمه ولم يهتم بقضية القرآن الكريم وضبطه بالشكل وآخر الأمر نفاه إلى خراسان وقال له أنا لا أريدك أن تبقى معي في العراق.لم يهُن على المؤرخين أن ينسبوا الفضل ليحيى وهو تلميذ أبي الأسود (المعروف بإخلاصه لأمير المؤمنين بل لم يشاؤوا أن ينسبوا الأصل لأبي الأسود الدؤلي وإنما ذكروه في رواياتهم على أنه من ما أمر به زياد بن أبيه، مع ما هو معروف من عداء زياد لشيعة الامام عليه وإخلاص أبي الأسود لإمامه علي بن أبي طالب.

المرحلة السادسة

وهي المرحلة الأخيرة حيث جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي، وهو مؤسس (علم العروض) وهو ميزان الشعر، حيث كانت العرب تقول الشعر على السليقة والبديهة بدون ميزان، فجاء الخليل وابتكر علم العروض حتى ينظم الشعر موزونًا وكان ذلك في زمن الإمام الكاظم عليه السلام والمعروف عنه شدة إعجابه بأمير المؤمنين عليه السلام وأنه أفضل أصحاب النبي صلى الله عليه وآله حتى سئل عن ذلك فقال (احتياج الكل إليه واستغناؤه عن الكل دليل على أنه إمام الكل).

كل أصحاب النبي احتاجوا إليه ولم يكن بحاجة إليهم، فالبعض قال (لولا علي لهلك عمر) ولم يقل لولا فلان لهلك علي، وكلما عجز أحدهم عن مسألة ذهبوا إليه، وفي أنحاء كثيرة دلّت على احتياج الكل إليه لذا هو سيد الكل.

الخليل بن أحمد الفراهيدي أكمل ما بدأه الدؤلي وتلامذته، حيث وضعوا النقاط، فقام الخليل وابتكر الفتحة والضمة والكسرة والسكون، وهذا ما استقرّ عليه القرآن المجيد حيث كان النص لأمير المؤمنين عليه السلام والتشكيل والتنقيط لتلامذته، وهذا هو الموجود بين أيدينا والقراءة الرسمية في العالم الاسلامي هي قراءة وصي محمد صلى الله عليه وآله.

الآن أشهر القراء تنتهي قراءتهم إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأشهر القراءات هي قراءة حفص عن عاصم عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أمير المؤمنين عليه السلام، فما أعظم منة الله على هذه الأمة بهذا القرآن وبهذه العترة الطاهرة التي سيدها علي أمير المؤمنين عليه السلام.

لماذا كان قرآناً عربياً

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[1].

من الواضح أن لغة القرآن هي اللغة العربية وأنهُ قد وصفَ نفسه بأنه عربي في مواضعَ متعددةٍ بلغت أحد عشر موضعا، منها ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، و﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ وأمثال ذلك.

هنا تأتي أسئلةٌ متعددة، منها: هل أن هذا يُشير إلى فضيلةٍ للعرب لأن القرآن الكريم قد نزل بِلُغَتهم؟ الجواب أنه ليس بالضرورة ذلك، وإنما كان في بعض فترات التاريخ الإسلامي تحزُبات ناشئة على أساس قومي، فأصبحت جماعة من ذوي النزعةِ القومية العربية يرونَ العربي أفضلَ من غيره، لا لشيءٍ إلا لأنه عربي.

ونَمَتَ هذه النزعة في زمان الأمويين، وبالذات في زمان عبد الملك وصاعدًا، لا سيما مع بعض الولاة مثل الحجاج الثقفي، وخالد بن عبدالله القسري وأمثالهم ممن كانوا يُعادون الموالي ويُهِينُونَهم ويذلونهم لا لشيءٍ الا لأنهم ليسوا من العرب، فهم

(١) الشعراء/ ١٩٢-١٦٥.

في نظرهم في مرتبةٍ أدنى وأقل. حتى وإن كان هؤلاء الموالي أعلى منهم في العلم والتقوى.

وكانت هناك ممارساتٌ سُلطوية تُؤيدُ هذا الاتجاه، ونَشأت في مقابل هذا نَزعةٌ مقابلة اصطُلِح عليها باسم الشعوبية، وهي عند غير العرب، تقول أن العرب أمةٌ متخلفة وبقيةُ الأمم كالفُرس والتُرك والديلم أشرف منهم وأفضل، ولهم ميزاتٌ عقلية خاصة، ويَصِفُون العرب بأنهم أهلُ البوادي والجهل، وظل هذان التوجهان يصطرعان.

كِلا التوجهين خطأ، والميزانُ الإسلامي يقول ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. فأنتَ لم تَختر أن تكون عربيا، وُلدت من أبوين عربيين ولا تستطيع تغييره، وذاكَ وُلد من أبويين فارسيين أو تركيين.

والشيء الذي لا يكون باختيار الإنسان فإنه لا يستطيع أن يتفاخر به على غيره. ولكن هذا الأمر كان موجوداً في تلك الفترة، لذلك قال قسمٌ من الذين كانوا يُريدون تفضيلَ العُنصر العربي على غيره : إن من آيات فضلنا أن القرآن الكريم نزل بِلُغتنا، والطرف الآخر كانوا يردُونَ عليهم بالقول أن العرب كانوا في أسوء حالات البشر لذلك جاء القرآن بلغتهم حتى يُعالِجهم.

قد يأخذُ البحث حول قضية العربية في القرآن الكريم هذا المنحى، وهو منحى خاطئ، وقد يكونُ سؤالا كما في بعض حال الأسئلة التي تأتي بأنهُ لماذا تم اختيار اللغة العربية للقرآن الكريم بالرغم من أن اللغات التي عُرفت للبشر يبلغ عددها أكثر من ٣٠٠٠ لغة، وأن من هذه اللغات المتعددة هناك ما يُقارب الـ ١٠٠ لغة قد تحدث بها مئات الأُلوف، فلماذا جُعِل القرآن عربيا؟

هل هو معجز لغير العرب؟

ويُطرح سؤالٌ آخر أنه بالنسبة للعربي القرآن الكريم مُعجِزٌ لأن لغته عربية، ولكن لغير العربي لا معنى لأن يكون القرآن مُعجِزًا، فإذن الإعجاز باللغة العربية هو للعرب وأما للمتحدثين بغير العربية فلا يُعدُ إعجازًا!

هذانِ سؤالانِ مهمان ينبغي أن نُجيب عليهما، وأرى أن من الضروري تقديم مقدمةٍ حول نشأةِ اللغات عند البشر، كيف أصبحت اللغات موجودة عند البشر؟ ثم نشير إلى ميزات اللغة العربية ومن خلالها سيتم الاجابة عن السؤال المتقدم.

اتجاهات نشأة اللغة

هناك نظريات متعددة في هذا الجانب، و حتى لا نَتَطَرَقَ إلى التفاصيل، فإن هذه النظريات تنتهي إلى اتجاهين أساسيين:

الاتجاه الأول: يقول أن نشوء اللغات

عند البشر هو نشوءٌ ديني من الله عز وجل، أي أن الله سبحانه عندما خلق هذا الإنسان زودهُ بآلات ووسائل للتواصل اللغوي مع بني جنسه. فأعطاه السمع والبصر واللسان والقدرة على البيان، وأعطاهُ أيضًا العقل لِيَعقِل به الأشياء ويحفظ به الأمور ويستنتجها، هذه الأمور هي بمثابة أدوات وآلات للتواصل اللغوي، بعدها عندما أرسل الأنبياء فإنه كما أعطى الأنبياء برنامجًا للحياة السعيدة في هذا الدنيا والذي يُوصلهم إلى رضوان الله في الآخرة، فهو أيضًا أعطى للبشر طريقةً للتخاطب، وهي اللغة. فعَلّم الأنبياء اللغة وهم بدورهم علموا أقوامهم. ثم تطورت وتكاملت بصورة اجتماعية.

وممن «التزم بها ابن فارس صاحب (معجم مقاييس اللغة) والمحقق النائيني، وبعض المفسرين كالقرطبي حين شرح (وعلم آدم الأسماء) ورأى أن اول من تكلم بالعربية آدم.. وذلك أن الله خلق الخلائق متواصلة، ليس بين البشر وحدهم بل بين البشر وسائر المخلوقات (علمنا منطق الطير) وفي البشر كان من أهم صفاتهم (علمه البيان) واستخدم القلم للتعليم (علم بالقلم).. وفي بداية الخلق (علم آدم الأسماء كلها) وبعدما جهز الإنسان بوسائل النطق والتعليم والبيان، وألهم الأنبياء أصول الكلمات واللغة، انتشرت وتفرعت »[1].

وبإمكان القائلين بها أن يستفيدُوا مثلًا في اليهوديةِ من بعض العبارات التي تقصُ قِصة آدم، وهي موجودة لدينا أيضًا في القرآن الكريم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ موجودٌ في التوراة ما يُشبه هذه الآية تقول (المُعلم للأسماء هو الله سبحانه وتعالى)، وبداية معرفةِ الأسماء هي بداية اللغة.

لو كان لكَ طفلٌ حديث الولادة، عند بداية نطقه تُعلمه الأسماء، فتقولُ لهُ مثلا (بابا) فيحفظها، (ماما)، (باب)، (كأس) فيحفظها وهكذا، فهو تدريجيا يلتَقِط هذه الأسماء ويبدأ باستخدامها ويتعلمُ اللغة ثم يتعلم بالتدريج وصف الأفعال وبعدها الروابط بين الجمل. نفس هذا الكلام ينطبق على ذلك الزمان، فالله سبحانه علّم آدم الأسماء، وآدم علّم البشر وانتشرت اللغة من خلال ذلك.

هذا طبعا بناءً على تفسير ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بقضية اللغة والكلمات والألفاظ،

(١) فقه الاستنباط ؛ السيد محمد تقي المدرسي ١/ ٨٥.

وإلا فإن هناكَ تفاسير أُخرى[1] وتأويلات لهذه الآية، منها مثلا ما يرتبط بالعقائد كما لدينا في الإمامية أن تفسيرَ هذه الآية هو أن الله علّم آدم أسماء آل محمد ﷺ. ولذلك بعض مُفسري الإمامية يقول أن الله لم يَقُل (ثم عرضها) وإنما قال عز وجل (ثم عرضهم) وكأنما هناك أشخاصٌ أو ذوات.

بناءً على التفسير الآخر أن الأسماء تعني الأشخاص، الكلمات، الألفاظ، الإشارات وهي بداية اللغة، ثم بدأت هذه اللغة تتوسع، هذا المنشأ الأول الذي يتحدث عن نشأة اللغة والذي يُشير إلى أنهُ منشأ ديني.

الاتجاه الثاني هو الاتجاه الاجتماعي

في تفسير نشأةِ اللغة. وهو يقول بأن القضيةَ لا ترتبطُ بالضرورة بأمر ديني ووحي إلهي، وإنما هو تعبير عن حاجةٍ اجتماعية. فإن الله سبحانه بعدما زوّد الإنسان بهذه الأدوات من سمعٍ وبصرٍ وعقلٍ ولسانٍ وقدرةٍ بيانية، اكتشف البشر أنه بحاجةٍ إلى التواصل والتفاهم، فبدأ يبتكر اللغة. بدايةً بَدَأَ بالإشارة، والإشارة تحولت إلى عبارة، والعبارة تحولت إلى لغة.

ويمثلون لذلك بما هو حاصل في المجتمع، فلو التقيتَ مع شخصٍ لا تعرفُ لُغته، كيف تتواصل معه؟ بدايةً تبدأ بالإشارات، ثم ربما تُشيرُ إلى نفسِك وتُخبرهُ باسمك، وهو يقومُ بالفعلِ نفسه، بعدها تدريجيا هذه الإشارات تتحول إلى عبارات وألفاظ، وفي النهاية تبتكرون لغةً تتفاهمون بها، كذلك البشر في أول أمره كان بهذه الصورة.

هناك أشخاص من المتقدمين والمبتكرين عُرِفوا بابتكار الألفاظ، في اللغة

(١) لا يمتنع أن يكون للآية الواحدة وجوه متعددة من التفسير.

العربية مثلا يعرب ابن قحطان كان ممن لهُ قدرةٌ استثنائية، فبدأ يضعُ الألفاظ إلى المعاني، ومِثلُهُ تجد في اللغات الأخرى كالإنجليزية والعبرانية وهكذا.

فإذن القضيةُ مرتبطة بحاجةٍ اجتماعية، وقد يَستَشهِدُ بعضهم على ذلك بأن الإنسان لم يبتكر لُغةً بينه وبينه الإنسان الآخر وحسب، وإنما ابتكر لُغةً بينهُ وبين الآلة أيضا. الحاسب الآلي الآن لهُ لغة معينة تُحول هذه الألة من صامتة إلى ناطقة ومستجيبة لك، لو أزلتَ هذه اللغة من الحاسوب لرجعَ لوضعه الطبيعي وإلى صمته.

الروبوت له لغة معينة ورموزٌ خاصّة لو استخدمتها لتَفَاعلُ معك، ولو أزلت هذه اللغة التي كَوّنَها البشر لعادَ الروبوت قطعةً من حديد. وعليه فإن الإنسان الذي يستطيع أن يبتكر لغة تواصل مع الآلات من السهل عليه أن يبتكر لغةً و طريقة تواصل مع بني جنسه.

وهذه النظرية هي الأكثر قبولًا في هذه الأزمنة، ولذلك ربما كان العلماء البحوث الأصولية العالية وعند تعرضهم إلى مبحث الوضع، وضع الألفاظ للمعاني. يبحثون في كيفية دلالة هذا اللفظ على المعنى المحدد، وعن الارتباط بينهما ؛ هل هو ارتباطٌ حقيقي كما نسب إلى بعض عُلماءِ اللُغةِ القُدامى مثل ابن جني الموصلي[1]. الذي قيل إنه يعتقد وجود ارتباط حقيقي بين الكلمة والمعنى.

أو أنه لا يوجد ارتباط حقيقي بينهما وإنما هو عبارة عن صلة عقدها الواضع (شخصا كان أو مجتمعا) بين الكلمة والمعنى، و (قرن) بينهما أو (تعهد) بأن يستعمل هذا اللفظ في ذلك المعنى وأن يشير لذلك المعنى بهذا اللفظ، أو أنه صنع (ملازمة بينهما).

(١) ابو الفتح عثمان بن جني الموصلي، رومي الأصل ت ٣٩٢ هـ أُستاذ الشريف الرضي رحمه الله، كان إماما في اللغة وصاحب نظريات مبتكرة.

اللغة العربية نشأتها وميزاتها

اللغةُ العربية هي واحدة من اللغات القديمة التي انتشرت في الجزيرةِ العربية، بالذات بعد نبي الله اسماعيل على نبينا وآله وعليه أفضل الصلاة والسلام.

اسماعيل جدُ النبي ﷺ أُصوله عبرانية، فهو في الأصل يتكلمُ العبرانيةَ أو السريانية، لكنهُ جاء إلى المنطقة العربية في مكة المكرمة، وقد كان أهلُها يتحدثُون العربية، ففُتِقَ لسانُهُ بالعربية.

هذه المنطقة تطورت فيها اللغة العربية، استوطنها الناس خاصةً بعد وجود البيت الحرام فيها مع أن الوادي كان غير ذي زرع، هذا الاستقرار يُنتجُ العلم والثقافة والحضارة ويُطَوِرُ اللغة، وهذا ما حصل. وما جاء زمن بعثة النبي ﷺ إلا واللغة العربية وصلت إلى درجات مُتقدمةٍ من السعةِ والإتقان، فنزل القرآن الكريم في هذه المنطقة باللسان العربي.

إضافةً إلى ذلك، فإن الميزات الموجودة في اللغة العربية ليست موجودةً في سائِر اللغات، فهي لغةٌ أغنى، وأثرى، وأوسع. لنأخذ بعض الأمثلة التي توضح بعض ميزات اللغة العربية:

أولا اللغة العربية تعتمد على الاشتقاق من اللفظ الجذري، لو لاحظت قواميس اللغة العربية تجد أنها تذكرُ الكلمة الأولى التي تتكون من ثلاثة حروف، مثلا (ضَرَبَ) معناها أصلٌ يدل على احتكاك شيءٍ بشيء، ثم تبدأ بذكر كل اشتقاقاتها.

الاعتماد على الجذر اللفظي ولا سيما اذا كان قليل الحروف يُعطي اللُغوي مساحة كبيرة للاشتقاق، ولذلك ذكروا أن اللغة العربية فيها ١٦ ألف جذر، وهذا عددٌ كبيرٌ جدا، لنفترض أن كل جذرٍ يُشتقُ منه مئات الكلمات، وهذا ما هو موجودٌ

بالفعل، فإن أعدادَ الكلمات ستكُون هائلة. لذلك أشار العلامة الدكتور جواد علي إلى أن الألفاظ والكلمات الموجودة في اللغة العربية تصلُ إلى ١٢ مليون كلمة عربية [١].

لنقارن هذا العدد بلغةٍ أخرى، فأشهرُ لغة الآن هي اللغة الانجليزية، بعضُ الدراسات تذكر أن كلمات اللغة الإنجليزية عددها ٦٠٠ ألف كلمة. لو قارنا هذا العدد بذاك الموجود في اللغة العربية لوجدنا أن كلمات اللغة العربية تصل إلى ٢٠ ضعفا من اللغة الإنجليزية، والتي تُعد الآن سيدة اللغات في العالم.

سعةُ اللغة، كثرةُ الكلمات فيها وكثرةُ العبارات تجعلُ المُتكلم قادرا على الحركة في مساحةٍ واسعةٍ جدا، لو أراد أن يُعبر عن أدقِ الأفكار فإنه لا يتحير في الكلمة. مثلا لو كان لديك شارعً عرضه نصف متر وشارع آخر عرضه ١٠ أمتار، ولديك أيضا سيارة من آخر طراز، في الشارع الأوسع تستطيع الاستفادة من هذه السيارة بصورةٍ أفضل من الشارع الضيق، لأنه في هذا الشارع الضيق لربما هذه السيارة لا تستطيع أن تتحرك فيه وإن كانت من أفضلِ السيارات.

ومثلُ ذلك اللغة، فاللغة التي تحتوي على كلماتٍ كثيرة، وألفاظٍ متنوعة، ومساحتُها واسعة فإنها تسمحُ للمتكلم والكاتب بحريةٍ ومساحةٍ كبيرة في الكتابة والتحدث. وهذا ما سنتطرقُ إليه فيما بعد لنقول أن المعاني القرآنية العالية المُنَزّلة من السماء تحتاج إلى لغةٍ بحجمها، لغة غنية، وقوية ، أما اللغات ضعيفة التركيب وقليلة الألفاظ فلن تستوعب هذه المعاني الكثيرة.

ثانيا اللغةُ العربية تستفيد من الهيئات. عندنا الكلمات مثل كلمة (ضَرَبَ) هذه

(١) نقل في مواقع الكترونية متعددة، ومقالات عن كتابه المفصل في تاريخ العرب.. ولم يتيسر لي العثور عليه في الكتاب نفسه.

كلمةٌ فيها مادة، مادتها (ض رب)، وفيها أيضًا هيئة والتي تعني الصيغة الخاصّة بها، مثل (ضرب) تختلف عن (ضارِب) و(مضروب) و(ضراب) و (يضرِب). الحروف هي نفسُها ولكن الصِيغ متعددة.

الهيئات في اللغة العربية لها معان، وهذا أيضا يُعطي سعةً كبيرةً للغة، لو نظرنا مثلا لكلمة (كَتَبَ) فمرّةً تُصبح (كَاتِب) ومرّةً (كِتَاب) ومرة (كتَّاب) بمعنى كثير الكتابة، أيضًا تارةً تُبنى للمعلوم « كتب » وتارةً تبنى للمجهول (كُتِبَ) وهكذا. وكُل واحدةٍ من هذهِ الهيئات تَفتحُ بابًا واسعا بحيث لا يحتاج الكاتب إلى شيء غير تغيير الهيئة.

لنضرب مثالان يُذكران في بقية اللغات للتوضيح. مثلا كلمة (كَتَبَ) هي مبنيةٌ للمعلوم فتقول (كَتَبَ فلانٌ الكِتاب). لو أردتَ بناءَها للمجهول تقول (كُتِبَ الكتاب). كُلُ ما تحتاج إلى فِعله هو ضَمُ الحرف الأول وكسرُ الحرف الثاني فتُصبح الكلمة مبنية للمجهول.

لو نظرنا في اللغة الإنجليزية، جملة المبنيِّ للمعلوم تكونُ هكذا

someone wrote the book

(ولتحويلِها للمجهول تُصبح هكذا)

the book has been written

هنا اضطررنا لتغيير الفعل، ولإضافة كلمتين إضافيتين أيضا حتى نُغير الفعل من مبنيٍّ للمعلوم لمبنيٍّ للمجهول.

ولو نظرنا لنفس المثال في الفارسية مثلا، ستصبِحُ جملة المبنيِّ للمعلوم (نوشته شد) احتجنا إلى صيغة (مكتوب) ونضيفُ لها كلمةَ (أصبح) فتُصبح (الكتاب كان

مكتوبًا). في اللغة العربية لا نحتاج لكل هذا،

مثلا صيغةُ (فعّال) نستطيعُ قول (ضرّاب) (كتّاب) وهكذا، نفسُ حروفِ الكلماتِ الأصلية ولكن نُغير صيغتها فقط. وهذا ما يُميز اللغة العربية أن سعتها كبيرة، وتناولها سهل فلا تحتاج لاستعارة عبارات أو كلمات أخرى.

في القرآن الكريم لدينا كلمة ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّه﴾ لو نظرتَ لترجمتها في اللغة الإنجليزية تراها مكتوبةً في سطر كامل !!، ونفسُ الشيء أيضا في اللغة الفارسية، وهذا يدُلُ على حيويةٍ وحركيةٍ وقدرةٍ في الاختصار في اللغة العربية، وهذا غيرُ موجودٍ في اللغات الأخرى.

والكلامُ نفسُهُ أيضا ينطبق على الإعراب والحركات. لو أردنا معرفةَ الفاعلِ والمفعولِ به في سائِر اللغات فإننا نحتاجُ لشيءٍ إضافي يُعرفنا به، في الفارسية مثلا يُضيفون حرفي الراء والألف نُضيفهما بعد الكلمة حتى تُصبح مفعولا به، أو في لغات أخرى نضطرُ للالتزامِ بموقعِ الفاعلِ أو المفعولِ به في الجملة حتى يتم التعرف عليهم.

بينما في العربية لو غيرت موقع المفعول به أو الفاعل فلا يتغيرُ معنى الجملة، كُلُ ما تحتاجُه هو وضعُ الحركاتِ على الحروف، فالإعراب والحركات تكفيك من عناء الاستعانة بإضافات أخرى وبأنماط معينة، ويُعطيك مساحة في تغيير مواقع الكلمات في الجملة بِحُرِية.

وهناك الكثير من القضايا التي تتميز بها اللغة العربية من الاشتقاق، والحقيقة والمجاز، والنحت وما شابه ذلك، ولكننا لا نريد أن ندخل الآن في حديث لُغوي مفصّل، ما ذكرناه يكفي.

هذه الأسباب وأمثالُها تجعلُ اللغةَ العربية أقدرَ من غيرها من اللغات الأخرى في تحمُلِ المعاني القرآنية العالية، هناك معان دقيقة عالية تحتاج لعباراتٍ وألفاظٍ محددة تماما. اللغةُ الغنية، الواسعة، القادرة تُقدم لك ألفاظًا كثيرةً وعباراتٍ متعددة وأنت تُحركها مثل ما تُريد. أما اللغةُ الفقيرة في مفرداتها وجذورها يصعبُ عليها أن تتحمل المعاني العالية والمفاهيم الكبيرة، لذلك كانت اللغة العربية هي الأَوْلَى بِأن تكون وعاءً للقرآن الكريم ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾، «قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»، «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

هل يعني وصف عربي الوضوح دون اللغة؟

نعم البعض هنا قال «عربي» ليس المقصود منها أن ألفاظَهُ عربية وإنما بمعنى فصيح و واضح، لأن مصدرَ هذهِ الكلمة «عربي» يدُلُ على فصاحة فتقول «فلان أَعرَبَ عما في نفسه» أي أنه أفصَحَ عما في نفسه، فالمعنى في الآية هو «قرآنٌ فصيح»، ولكن الجواب على ذلك أن المقصود هو كلا الأمرين، لغةٌ عربية وأيضا لغةٌ عربيةٌ فصيحةٌ ميسرة «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القرآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ»، وهذا هو جوابُ السؤال الأول الذي يستفسر عن سبب اختيار اللغة العربية للقرآن الكريم بالرغم من تعدد اللغات.

وأما السؤال الثاني المتعلق بأن الإعجاز في القرآن الكريم هو إعجازٌ في اللغةِ العربية، أما الفرس والإنجليز فهو ليس إعجازًا لهم. لأن القضية سالبة بانتفاء موضوعها..

الجواب أنهُ إذا كان القرآن الكريم تحدى جبابرة اللغة العربية وعُتَاتَها أن يأتوا بسورةٍ من مثله ولم يستطيعوا ذلك، وهي أغنى وأوسع وأقوى اللغات، فمن بابٍ أولى أن يكون مُعجِزًا في اللغات الضعيفة والهزيلة.

فإنه لو تفوق مثلا فريقٌ رياضي على أقوى فريقٍ رياضي في العالم، فالفُرق الضعيفة يكون التغلبُ عليها بسيطًا بالنسبة لهذا الفريق الفائز. ونفس الكلام ينطبق على اللغات، اللغة العربية بما ذكرنا لها من ميزات هي أقوى وأوسع اللغات وأغناها، وجبابرةُ هذه اللغة لم يستطيعوا مُجاراة القرآن حتى في سورةٍ واحدة، فإذا كان القرآن تغلب على أقوى اللغات وأقوى جبابرتها فبالنسبة إلى سائر اللغات سيكونُ الأمر سهلاً.

هذا بالإضافة إلى أن الإعجاز اللغوي والبياني هو جزءٌ من إعجاز القرآن الكريم، وليس كل اعجاز القرآن منحصرا في لفظه.

القرآن الكريم إلى اليوم له فضلٌ على اللغة العربية في أنها حفِظها، وإلا كان من المحتمل أن تندثر اللغة العربية ككثيرٍ من اللغات التي انتهت، لكن القرآن الكريم ومن قامُوا عليه وهم أفصحُ الناس وأبلغهم، وهذا كان ملفتا للنظر أن نبي الله ﷺ وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام كان لهم ميزةٌ أنهم كانوا أفصَحَ الناسِ في زمانِهم.

رسولُ الله ﷺ وهو « أفصحُ من نَطَقَ بالضاد بيد أنه من قُريش» وفي موضعٍ يتحدث عن نفسه «أُوتِيتُ جَوامِعَ الكَلِم» كلماتٌ قصيرة وقليلة لكن تحوي مجاميعَ عظيمة من المعاني. هذا رسول الله ﷺ وأما أمير المؤمنين عليه السلام فيكيفك قولُ مُحارِبِه فيه وهو معاوية «ما سَنَّ الفصاحةَ لِقريشٍ غيرُه» يقولون أنه عندما خرج محجِن ابنُ أبي محجِن الثقفي وقد كان عندهُ بعضُ الانحرافات في الكوفة، فأمير المؤمنين عليه السلام عاقبهُ بما يستحِق، فغضب وانسل في الليل إلى الشام إلى معاوية وقال له «جِئتُكَ من عندِ أَبخَلِ الناس وأعيا الناس» أعيا يعني أعجزهم عن الكلام فقال له معاوية «من تعني؟» قال «أعني ابن أبي طالب» فقال له معاوية «كيف تقولُ أنهُ أبخلُ الناس؟ واللهِ لو كانَ لهُ بيتان، بيتُ تِبرٍ - ذهب - وبيتُ تِبن» لأنفق تِبرَه قبل تبنه - أي أنهُ

ليس متعلقًا بالمال - وأما قولُك أنه أعيا الناس كيف تقولُ ذلك؟! واللهِ ما سنَّ الفصاحةَ لقريشٍ غيرُه».

وقد نقل ـ في بعض الكتب ـ أن الامام عليا ﷺ مرَّ على جماعةٍ يتحدثون في مسجد الكوفة عن أكثرِ الحروفِ ترددًا في كلام العرب وهو الألف والنُقطة، هل تستطيع الكلام بدونها؟ من الصعب جدا ذلك، فإذا بأمير المؤمنين ﷺ يقف أمامهم ويخطُبُ خُطبةً كاملةً في مباحثٍ عاليةٍ من التوحيد وبعثة رسول الله ﷺ وليس فيها أَلِفٌ واحدة، انتهى منها وبدأ في خُطبةٍ على غراراها ومنوالها لا يوجد فيها نقطةٌ واحدة. ولم يكن كلاما عاديا ، بل كانت مباحثَ دقيقة مرتبة في مسائل علمية من توحيد الله وبعثة النبي ﷺ، لو حاولَ شخصٌ القيامَ بذلك لاضطر للجلوس فترةً في المنزل ومحاولة التصحيح والإعادة والتغيير ولن يستطيع أن يأتي بمثلها أيضا. فهذه فصاحةٌ وبلاغة.

لولا أيضًا أن اللغة العربية فيها هذه المساحة لما كان يمكن هذا الأمر، فالإمام ﷺ لم يأت بألفاظ وكلماتٍ من خارج اللغة، وإنما اللغة العربية فيها هذه الإمكانية والسعة، وعليٌ ﷺ أحاط بها. لذلك القرآن الكريم جاء بهذه اللغة.

والإمام الحسين ﷺ لما بدأ يخطب يوم عاشوراء في كربلاء صاح القائد الأُموي «ويحكم إنهُ ابنُ أبيه، لو وقف عامَّة نهارِه يتكلم لما عَيَّ أو أُحصر» هو كالسيل يتدفق، اقطعوا عليه حديثه وابدأوا المعركة، فهؤلاء ﷺ كانوا في غاية الفصاحة والبلاغة والإحاطة باللغة.

والسيدة زينب ﷺ اللَبُؤَةُ الهاشمية، ثمرةٌ من شجرةِ أبيها في فصاحتها، كأنها تزِنُ كلماتها ميزانَ الذهب في موضعٍ يطيشُ فيه عقلُ الحليم ويخرسُ فيه المتكلمُ في مجلس يزيد بن معاوية حيث ألقت خطبتها المشهورة.

من جهات الإعجاز في القرآن الكريم

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

أول ما نلاحظ في الآية المباركة، أن باب التحدي مفتوح من كل الجهات، فهو لا يختص بقسم من البشر، كأن يكونوا، العرب، مثلا، أو المعاصرين لرسول الله ﷺ أو الذين يأتون بعد عصره، وإنما الإنس، كل إنسي، كل البشر، ولا يختص الأمر فقط بالإنس، وإنما أيضا يضم إليهم الجن، مع قدراتهم المختلفة، لو انضم كل الإنس، إلى كل الجن، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، النتيجة: لا يأتوا بمثله.

وثاني ذلك: أن هذا التحدي مطلق من حيث الزمان والأدوات والكيفية والشروط وسائر الجهات. ولتوضيح ذلك: فإن التحدي عادة ما يكون ذا شروط، كأن يقال: تدخل في سباق السيارات بشرط أن لا يزيد محرك السيارة عن قوة كذا حصانا، وتدخل في مسابقة كرة القدم ولكن عدد اللاعبين يجب أن يكون بهذا المقدار المعين، ويلعب اللاعبون بهذه الشروط الخاصة.. وهكذا يدخل المصارع في هذه

(١) الاسراء / ٨٨.

المصارعة مثلا، بشرط أن لا يكون أكثر من ٧٠ كيلو غراما لأن هذه مخصصة لهذه الفئة وأن لا تدخل مثلا بأدوات حديدية.... هذه الأنظمة والشروط في التحدي، والمسابقة لا بد من مراعاتها.

أما في التحدي الذي أعلنه القرآن الكريم، فلا يوجد أي شرط ! ليكن آلاف في مقابل القرآن الواحد، ليكن جن وإنس ! لا مانع.. ليكونوا مجتمعين أو متفرقين ! ليعضد بعضهم بعضا ويسند أحدهم الآخر.. لا مشكلة ! كما ليس هناك وقت محدد ! فهم يستطيعون الدخول في هذا التحدي ليلا أو نهارا ومتى شاؤوا !

ثالث هذه الملاحظات: أن القرآن يعطي النتيجة بشكل قاطع قبل بدء التحدي العملي، وفي أثناء الدعوة للمبارزة هنا وفي سائر الأماكن (لا يأتون بمثله).

ثم يقرر ذات النتيجة ويخفض من سقف التحدي، ليطالبهم بسورة واحدة فقط من مثله ويقول لهم ذات النتيجة في أول الأمر وقبل البداية (ولن تفعلوا): ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[1] أخبر، (ولن تفعلوا فاتقوا النار).

فدعنا نلاحظ: ما هي جهات الإعجاز في القرآن الكريم؟

لا حدود لجهات اعجاز القرآن كالكون

أولا: جهات الإعجاز في القرآن الكريم، كجهات الإعجاز في الطبيعة والكون، لا حدود لها، كيف أن الله سبحانه وتعالى، عندما خلق هذه الطبيعة، هذا الكون،

(١) البقرة/ ٢٣-٢٤.

ما يعبر عنه بالكتاب التكويني، الكون، والطبيعة، والخلق، جعل فيه من الخزائن والأسرار وآيات الإعجاز، وإبهار العظمة، ما لم يصل، ولا يصل الإنسان، ولن يصل الإنسان إلى عشر معشاره إلى آخر الدنيا. وكل جيل، يأتي يكتشف أبوابا جديدة، وخزائن جديدة، تفتح له آفاقا لم يكن يعرف عنها السابقون، وهو بنفسه لا يزال في حرف الألف من أبجديتها.

كل شيء في هذا الكون، إشارة إلى عظمة الله عز وجل، وعظيم صنعه، ودقة خلقه، من هذه الكائنات، وحيدة الخلية إلى المجرات والافلاك العظيمة، وكل خلق فيه سره وإعجازه، ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾. نفس هذا الكلام موجود في الكتاب التدويني، القرآن المجيد. كلما اكتشف البشر جانبا، لم يكتشفه السابقون، لا يزال في الخطوة الأولى، لا يزال في البوابة، وشاهد ذلك العيني، أمامك فأنت ترى هذا القرآن، منذ نزوله إلى الساعة، والعلماء يكتبون تفاسيره، ويستنتجون آراء وحكما ومعالم ومعاني وأحكاما، و من تأخر يأت بشيء لم يلتفت اليه من تقدمه.

ويكفيك أن تقارن الحجم العلمي والدقة الموجودة في بعض التفاسير المتأخرة قياسا للأخرى المتقدمة فقارن مثلا بين ميزان الطباطبائي ومجمع البيان للطبرسي... هذا مع أن تفسير الطبرسي من أفضل التفاسير وأجمعها في مرحلته وزمانه وربما إلى فترة طويلة بعده.

ثانيا: القرآن معجزة عقلية تفوق المعاجز الحسية:

القرآن معجزة عقلية، في مقابل المعاجز الحسية التي كانت مع سائر المرسلين عليهم السلام.. ما هو الفرق بين المعجزة العقلية والمعجزة الحسية؟

- لكي تكون المعجزة الحسية حجة عليك لا بد أن تكون موجوداً في زمانها حتى تعاينها وترى كيف تنقلب العصا حية تسعى، وكيف يقوم الميت من

قبره صحيحا سالما، وأما إذا انتهى زمانها أو لم تكن من معاصريها لم تكن حجة عليك ! تصبح خبرا تؤمن به من خلال ثقتك بالمخبر.

وهذا بخلاف المعجزة العقلية في مثل القرآن فهي مستمرة ودائمة وتستطيع الاطلاع عليها باستمرار.

- كذلك يقول العلماء، فإن المعجزة الحسية، من الممكن أن يتطرق إليها خداع البصر، وحركات الشعوذة، وما يدعى من سحر العيون، وخفة اليد، بأساليب يعرفها أهلها، ثم قد يشرحها بعضهم فيما بعد.. مع أنك في نفس الوقت لا تكاد تشك بأن هذا أمامك هو نصفان لرجل ؛ نصف علوي وآخر سفلي وكل من النصفين متجه في غير جهة النصف الآخر !!

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قصة نبي الله موسى عليه السلام عندما عبر عنه من جهة بأنه ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1]. وقد أصبح اليوم بالإمكان الاطلاع على قسم من هذه الحركات من خلال الأفلام الوثائقية المسجلة. بإمكانك أن تتأمل في المعجزة العقلية حالات الاستراحة والاسترخاء أو العمل والبحث !! وبدل ساعة المشاهدة يمكنك أن تمكث متمعنا فيه لأشهر !

نحن لا نقول أن المعاجز الحسية للمرسلين هي من هذا القبيل، فإنها واضحة للجميع، ويرى الناس فيها كيف تتدخل قدرة الله، لتحيي الميت وبعدما دفن من أيام ينهض من قبره ويعيش عيشة طبيعية وهكذا سائر المعاجز.

لكن نقول إن المعجزة العقلية أبلغ وأقوى من نظيرتها الحسية، وأبعد عن التهمة والانكار !

(١) الأعراف / ١١٦.

ثالثا: اتحاد المعجزة مع الشريعة

من جهات إعجاز القرآن الكريم، اتحاد المعجزة مع الشريعة. وهذا مختص به، من جهة وبالإسلام من جهة أخرى بينما في سائر الديانات انفصلت المعجزة عن الشريعة فنبي الله ابراهيم يأتي بالصحف التي فيها هداية الله للناس، ولكن معجزته أن تتحول النار المشتعلة إلى برد وسلام عليه، والنبي موسى، يأتي بالتوراة وتعاليمها، ويأتي بالمعجزة عصا، تنقلب إلى أفعى، والمسيح عيسى بن مريم، يأتي رسولا إلى بني اسرائيل مصدقا لما بين يديه من التوراة، وليحل لهم بعض الذي حرم عليهم.. ولكن معجزته هي علمه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وأنه يحيي الموتى بإذن الله ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن ربه.

أما القرآن الكريم، فإنه معجزة نبينا محمد ﷺ، وهو شريعته أيضا. الشريعة الحاوية على العقائد، والأخلاق، والعبادات والأحكام.

رابعا: شدة تأثير القرآن بنحو استثنائي:

من الميزات الإعجازية، في القرآن الكريم، شدة تأثيره. فهو شديد التأثير على من يسمعه، بمعنى أن فيه قابلية قوية، للتأثير فيمن ينصت إليه، ما لم يقرر السامع مقاومة ذلك. من يأت ليتلوه أو يتلى عليه بقلب مفتوح، وصفحة بيضاء، فإن احتمالات تأثره بالقرآن الكريم كبيرة جدا، إلا إذا أصر على أن يغلق أبواب قلبه، ويصم سمع داخله وقرر أن لا يتأثر. هنا ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.وقد أدرك هذه الحقيقة أعداؤه كأحبابه.. فمنع كبراء قريش وسادتهم[1] عامة الناس من الاستماع إلى آيات القرآن، وما ذاك إلا لأنهم وقفوا على قدرته التأثيرية.

(١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ فصلت / ٢٦.

ولعل الآية المباركة، في سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، لعل هذا المثال، الذي يقول: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾، فيه تنبيه إلى الناس لقدرة القرآن، ومداه، أنه لو فرضنا أن جعلت صلة بين القرآن الكريم، وبين الجبل والحجارة، مثل ما توجد صلة بين القرآن، والإنسان، باستماعه، أو قراءته ﴿لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، فإذا كان هذا المقدار من القوة والتأثير يملكه في الجبل، فكيف هو بالنسبة للإنسان الذي هو عواطف، ومشاعر وتعقل وتفهم، المفروض أن تأثيره أكبر وأعظم !!

لقد نقل التاريخ عن كفار عندما لم يقرروا الرفض، قالوا: نستقبل، ثم ننظر، لقد تأثروا، وتغير قسم منهم، وما أكثر من تأثر بالقرآن الكريم، في زمان رسول الله ﷺ حيث كانت الوسيلة الأولى في الدعوة هي قراءة القرآن على الناس وإسماعهم إياه. ولا يختص هذا بذلك الزمان بل نجد في أزمنتنا الحاضرة في قصص الذين أسلموا، وكثير منهم من العلماء، ومن أصحاب الكفاءات والعقول، كان طريقهم إلى الاسلام نسخة قرآن قرأوا ترجمتها. وهذا يشير إلى مسؤولية المسلمين في نشر قرآنهم ومعجزة نبيهم.

وقد اشتهر عند المؤرخين قصة الوليد المخزومي، مع النبي ﷺ. فقد نقل:أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، (وفي نقل آخر أنه قرأ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

فكأنه رقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا. قال: لِمَ؟

(١) النحل / ٩٠.

قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض ما قبله.

قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالا.

قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له.

قال: وماذا أقول؟ فو الله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله أن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: قف عني حتى أفكر فيه، فلما فكر.

قال: إن هذا إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودا * وَبَنِينَ شُهُودا ﴾[1].

ونفس الكلام ما حصل لأهل المدينة، عندما ذهب مصعب بن عمير، استطاع من خلال قراءة آيات القرآن على كبارها وزعمائها أن يجذبهم نحو الاسلام، فهذا القرآن له تأثير كبير. وهذا لا يمكن أن يكون إلا إذا كان هذا الشيء من الله عز وجل. مهما بلغ كلام الإنسان، من الفصاحة والبلاغة إلا أنه عندما يقرأ مرة ومرتين لا يلبث أن يتقادم ويفقد جاذبيته أما القرآن فلا يزداد على النشر إلا طراوة ونضارة !!

ولقد تحدث القرآن الكريم عن الأثر الذي يخلفه على بعض أهل الكتاب من القسيسين والرهبان وكيف أنهم ﴿بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ *

(١) المدثر/ ١١-١٣.

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[1]

هل إعجازه ناشئ من منع الله وصرفه؟

ذهب بعض علماء المسلمين إلى فكرة الاعجاز بالصَّرفة.. ومعنى ذلك أن الله كما يعتقدون قد صرف أنظار كفار قريش واهتمامهم عن معارضة القرآن ومجاراته. وقالوا: إن الكفار قد ذهبوا وراء الطريق الأبعد وهو مقاتلة النبي ومحاربته، وما سلكوا الطريق الأسهل وهو محاولة مجاراته. فمن هذا يتبين أن هناك جهة غيبية جعلتهم ينصرفون عن سلوك الطريق الأسهل وهو بين ايديهم ويسمون ذلك: الإعجاز بالصرفة.

ولكن هذه الفكرة غير صحيحة لأسباب متعددة:

الأول: أن هذا يبطل أصل التحدي الذي قاله الله تعالى في القرآن، من أن الانس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله لا يستطيعون.. هذا التحدي يكون باطلا مع فكرة الصرفة.. إنه حينها يشبه أن تتحدى شخصا في الملاكمة وتقوم بتقييد يديه حتى لا يستطيع ضربك.. ثم تقول إنك انتصرت عليه.

الثاني: إن هذا يبطل فكرة الاعجاز الذاتي للقرآن الكريم، والحال أنه ثابت على مستوى البلاغة والبيان والعلم والتشريع.. فإذا كان عجز القرشيين ناشئا من انصرافهم عن ذلك بقوة غيبية، فإنه يعني أنه لو لا ذلك الجانب الغيبي لكان بإمكانهم أن يقوموا بمجاراته وتحديه !

---

(١) المائدة ٨٢ـ ٨٣.

إنما الصحيح هو أن القرشيين وهم الخبراء في البلاغة عندما اطلعوا على آيات القرآن رفعوا راية الاستسلام، ولم يعرضوا أنفسهم للسخرية بمبارزة القرآن.

إن هذا من الأمور الشائعة أن أحد الطرفين عندما يقيم الموقف فيرى أن الغلبة الباهرة لخصمه، لا يدخل معه في المواجهة، وإنما يتراجع عن ذلك وينسحب. وقد علم كفار قريش المستوى العالي لبلاغة القرآن الكريم وجهات من اعجازه.. وانبهر كبارهم بالقليل الذي سمعوا منه، وتلك قصة الوليد المخزومي شاهدة عليه، وذاك اعجاب أبي سفيان ونظرائه يدفعه إلى التلصص إلى الفجر لاستماع آياته ! ومن جهة أخرى كانوا يعرفون قدراتهم وما هم عليه.. فمن الغباء أن يبرزوا للتحدي معه!

لنفرض أن الله صرفهم.. فهل صرف الجيل من بعدهم من أعداء القرآن؟ وهل صرف أهل الكتاب من النصارى واليهود فلم يدخل التحدي أحد منهم؟ وهل صرف ويصرف من جاء في القرون التالية؟ وهل التفتوا إلى هذا الصرف أو لم يلتفتوا؟ هل شاهدوا من أنفسهم أنهم عندما يأتون لمعارضة القرآن يمسكهم ماسك ويعيقهم عائق؟ بينما إذا أرادوا انشاء القصائد العصماء في غيره من المواضيع انطلقوا؟

كلا.. إنما الصحيح هو أن القرآن في لفظه معجز وفي معناه.. وأن من حاول مجاراته جاء بمهازل ومضحكات.. كما نقل ذلك الإمام الخوئي في كتابه البيان. من أن أحد المسيحيين، حاول أن يأتي بشبيه لسورة الفاتحة، فجاء بما يدل على سخافة منطقه، وجهالة رأيه.

إن كتاب الله وكلامه فيه من الجمال اللفظي والأداء البلاغي والاتقان المحسوب ما يصل إلى مثل حسابات الهندسة العليا، ولا يستطيعه بشر حتى الأنبياء ! ومن خلال ذلك تكذب فرضية أن المعاني القرآنية هي من السماء بينما الألفاظ من النبي، وهذا ما سيأتي الحديث عنه لاحقا، وتخطئته بالبراهين.

إن الدقة حتى في الصورة الظاهرية مما لا ينتظره أحد، ومع ذلك هي موجودة ولا تحصل إلا من قبل السميع العليم ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾. لاحظ ما ذكره بعض الباحثين القرآنيين، من أن الكلمات المتقابلة، التي تشير إلى مفاهيم، هي بعدد واحد، كالحياة والموت، والرجال والنساء، والدنيا والآخرة، والملائكة والشياطين.. مع أنها لو لم تكن بعدد متفق ومتساو.. لم يعترض أحد، وربما لم يؤثر ذلك على بلاغة القرآن في شيء ! فمن يتسنى له من البشر هذا المقدار من الدقة، والهندسة والملاحظة؟ ومن يستطيع أن يحسب هذه الحسابات، وفي نفس الوقت تبقى المعاني في الآيات والبلاغة في الكلمات على حالها، ولا يتأثر شيء بشيء؟ إنه لا يحصل إلا بواسطة رب السماوات والأرض الذي ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

القرآن والإعجاز الإخباري

كما أخبر الله سبحانه في القرآن الكريم عن الماضي والتاريخ وقصص الأقوام السابقة، بصدق ودقة، كذلك فإنه أخبر عن المستقبل وما سيجري فيه، وقد شهدت السنوات التالية لتنزيل الآيات بما أنبأ عنه الكتاب.. بعضها قبل حصولها بفترة قصيرة وبعضها الآخر احتاج إلى سنوات طويلة ليتحقق الناس من صدق إخبارات وإنباءات الكتاب المجيد.. وهذا يؤكد معنى واضحا في أن منزل القرآن هو رب الكائنات الذي يدبر الكون ويجري مقاديره بعلمه وتدبيره.

فعلى مستوى الأفراد، تحدث عن أشخاص، مثل الوليد المخزومي وقال: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾[1] فحكم عليه بأنه سيموت كافرا، ومن الناحية النظرية كان بإمكان الوليد أن يقول: لكي أكذب مقالة القرآن دعني أؤمن

(١) المدثر / ٢٦ـ ٢٧.

! فيكون في ذلك تكذيب القرآن.. كلا لن يحصل هذا لأن الذي أنزل القرآن هو العالم بمصير الوليد ونهايته على طريق الكفر والجحود.

وكذا الحال في مثل أبي لهب، فقد قال في شأنه (تبت يدا أبي لهب وتب)، ولا يستطيع غير الوحي الاخبار الجازم عن مصيره، وتحقق هذا المصير تماما مثلما ذكر القرآن.

وفي ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[1]، احتاج الأمر لسنوات لكي يتحقق ويفرح المؤمنون بنصر الله.

وكذلك فقد أخبر عن النبي وأصحابه وأنهم سيفتحون مكة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾[2]، وفعلا دخلوا المسجد الحرام، فاتحين، وصارت مكة مسلمة.

الحق هو ما قاله الله تعالى عن كتابه ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3].

(١) الروم / ١ـ٣.
(٢) الفتح / ٢٧.
(٣) الإسراء / ٨٨.

عن الاعجاز العلمي والتشريعي في القرآن

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1]

مناحي الإعجاز في القرآن الكريم ليست محصورة في اللفظ ولا في خصوص الأحكام والتشريعات بل إن القرآن الكريم هو ككتاب الكون العظيم الذي خلقه الله عز وجل، ما إن تفتح خزينة من خزائنه حتى تنفتح لك أبواب كثيرة وعلوم متجددة.

هذا بالرغم من أن القرآن الكريم لم يأت ليتكلم عن نظريات في نشر العلوم الطبيعية ولا ليخبر الناس عن حقائق علمية في الفضاء والفلك وطبقات الأرض، فهذا ليس شأن القرآن الكريم.

إنما جاء ليهدي للتي هي أقوم كما وصف دوره. نعم يشجع القرآن على البحث العلمي وعلى اكتشاف آثار عظمة الله في الكون ويأمره بالسير في الأنفس وآفاق الأرض واكتشاف ما أودع الله عز وجل في هذه الطبيعة من أسرار، وزوده بالقدرات

(١) النساء / ٨٢.

على ذلك فأعطاه عقلاً قادراً على الاكتشاف والاستنتاج وزوده بأدوات تعينه على الاكتشاف.

مع كل هذا وعلى طريق الاسترسال وفي الضمن كشف للإنسان علوماً وقضايا في زمان نزول القرآن لم تكن تخطر على بال أحد في ذلك الوقت، وبعضها لم يكتشف ولم يبرهن عليه إلا في وقت متأخر بينما أشار القرآن تارةً وألفت النظر تارةً أخرى إلى هذه الحقائق في وقت مبكر.

ولعلك تسأل، إذا لم يكن غرض القرآن هذا الأمر، فلماذا تحدث عنها ولماذا كشف عنها؟!

والجواب على ذلك: حتى يشير حقيقة عقدية هي أن هذا الكلام القرآن ليس من عند بشر وإنما هو من عند رب البشر، هذا العلم ليس من عند خلق الله وإنما هو من خالق الخلق، وهذه الألفاظ لم تكن صياغة أحد من الناس وإنما هي كلام الله عز وجل والغرض من كشف هذه الأمور أو أحد الأغراض إنما هو غرض عقيدي وهو تثبيت وحيانية القرآن الكريم. أنه من الوحي وليس من أحدٍ اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً وأصيلا، وليس أيضاً من انفعالات نبي كما ذهب إليه بعض المعاصرين.

يريد القرآن أن يقول إن هذه الحقائق والعلوم ليست في مستوى علم البشر وإنما هي من قِبَل خالق الكون الذي أنزل القرآن، فهناك إذاً متحدثٌ واحد هو الخالق لهذا الكون وهو الواضع لأسسه. فوجد العلماء في القرآن الكريم إشاراتٍ إلى حقائق علمية. منهم من كان غير مسلم، كصاحب كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث)[1] فهذا عالم غربي لم يكن مسلماً، ولما عرض آيات القرآن الكريم على

(١) موريس بوكاي (ت ١٩٩٨)، طبيب فرنسي ونشأ على المسيحية الكاثوليكية، وبعد دراسة للكتب المقدسة عند اليهود والمسلمين أسلم وألف كتاب التوراة والأناجيل والقران الكريم بمقياس العلم

الحقائق العلمية الثابتة وجدها متطابقةً تمام التطابق، بينما نظر إلى أمثالها في التوراة والإنجيل فوجدها مختلفة فقال إن هذا القرآن لا يمكن إلا أن يكون من الله سبحانه وتعالى.

بينما سائر الكتب (وحيث أنها تدخلت فيها أيادي البشر) فآنئذٍ يحتمل فيها مخالفة العلم وعدم الإتفاق معه. وعلى أثر ذلك كان هناك بحث عند العلماء بعنوان الإعجاز العلمي في القرآن، بل وتشكلت بعض الهيئات في بعض بلاد المسلمين تُعنى بقضية الإعجاز العلمي في القرآن بمعنى أن القرآن الكريم أشار إلى حقائق كشف عنها العلم متأخراً بينما سبق القرآن العلمَ في الكشف عنها والحديث. وهي فيما يتحدثون كثيراً ونشير إلى بعض الأمثلة منها:

١٠. يتحدثون عن أن دور الجبال في الأرض هو بمثابة المثبت الحافظ لتوازن الأرض، ولو فرضنا أن الجبال أُزيلت من الأرض لا يبقى التوازن فيها كما هو الحال الآن وكأن ذلك أشبه بالمسمار أو الوتد الذي يثبت شيئاً.

وعلماء الجيولوجيا عندما يتحدثون عن هذا يشيرون إلى أن القرآن الكريم ذكر الجبال فقال ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[1] هذه قضية لم تكن معروفة في زمان الوحي عند الناس.

١١. وكذلك بالنسبة إلى مراحل تطور الجنين في بطن الأم وفي رحمها فإن تلك الفكرة كانت موجودة في التاريخ القديم عند الأطباء وهي أن الذي

الحديث. من أشهر مقولاته: «فالقرآن فوق المستوى العلمي للعرب، وفوق المستوى العلمي للعالم، وفوق المستوى العلمي للعلماء في العصور اللاحقة، وفوق مستوانا العلمي المتقدم في عصر العلم والمعرفة في القرن العشرين ولا يمكن ان يصدر هذا عن أميٍّ وهذا يدل على ثبوت نبوة محمد وانه نبي يوحى اليه».

(١) عمّ ٦ـ٧.

يوجد في بطن الأنثى هو شيءٌ كامل مصَّغر، فهذا الطفل بأنفه وعينه ويده ورجله وقلبه وكل شيء يوجد في ذلك المكان بهذا المقدار بنسخة مصغرة جداً ثم يبدأ يكبر ويكبر إلى أن يخرج بعد تسعة أشهر، ولكن القرآن الكريم جاء وقال أن القضية ليست كذلك وإنما هي عبارة عن مراحل حيث يبدأ الإنسان في صورة نطفة ثم يكون مضغة ثم علقة ثم تتكون بعد ذلك العظام ثم تكتسي العظام لحماً، ثم تأتي المرحلة الأساسية والمهمة حيث تنفخ فيه الروح ويتكامل فيصبح إنساناً ثم يخرج من بطن أمه. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ * فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1].

و عندما جاء العلم وتقدم التشريح وأصبحت هناك إمكانيات في تصوير باطن الرحم أمكن لهم أن يتابعوا هذا الأمر منذ أن تتلقح البويضة الأنثوية بالحويمن الذكري، فيؤيدون في ذلك فكرة القرآن الكريم والحقيقة التي تحدث عنها. فالقرآن سبق الناس في الكشف عن هذه الحقيقة ولم يتوصل العلماء إلى هذا الأمر ويبرهنون عليه إلا في أوقات متأخرة .

١٢. يأتي القرآن إلى عالم الفضاء ويتحدث عن الإنسان عندما يصعد إلى الفضاء فيقول ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[2] والإنسان غير المؤمن وغير المطمئن لأمر الله سوف يكون صدره ضيقاً ويشابه ذاك الإنسان الذي يصعد إلى السماء فيكون ضيق الصدر حرج التنفس وفيما بعد جاء العلماء وقالو نعم هناك مشكلة عند صعود

(١) المؤمنون ١٢ـ ١٤.
(٢) الأنعام/ ١٢٥.

الإنسان إلى طبقات الجو، فاختلاف الضغط الجوي في طبقات الجو عنه على الأرض يجعل صدر الإنسان ضيقاً وغير قادرٍ على التنفس فيحتاج إلى أدوات ووسائل اصطناعية للتنفس، فهو لا يستطيع أن يتنفس بشكل طبيعي في هذه الحالة.

١٣. وينظر القرآن إلى قضية دوران الأرض وحركة الأرض فيقول ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ فلا تظنن أن الجبال هي واقفة على الأرض ولا تتحرك وإنما هناك حركة دورانية حول نفسها وحركة أخرى حول الشمس، ففي مثل هذه الحقائق والقضايا يقولون أن القرآن الكريم كشف عن حركة الأرض ودورانها قبل أن يتوصل الفلكيون والعالمون بهذا الجانب إلى هذه الحقائق ويبرهنون على ذلك.

هذه الأمور وأشباهها كثيرة وإذا بحثنا عن موضوع الإعجاز العلمي في القرآن نجد كتبا كثيرة ومقالات متعددة في هذا الجانب.

ملاحظات مهمة في موضوع الإعجاز العلمي

أولاً: إن أحد أغراض إيراد الآيات التي فيها إشارات إلى قضايا العلم هو -غرضٌ عقائدي، وهو أن يؤمن الإنسان بأن هذا القرآن الكريم إنما أنزله رب الكون الذي وضع هذه الأسرار دون غيره وأن الإنسان مهما أوتي من العلم فإنه ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ثانيا: أن قضية الإعجاز العلمي في القرآن في الجملة هي ثابتة لكن لا يصح أن يكون ذلك هاجسا للباحث في القرآن والمفسر بحيث كلما أعلن عن نظرية أتى بآية من القرآن ليقول أنه هذه الآية تدل على هذه النظرية، فليس الأمر كذلك.

لأن قسماً من الأمور العلمية قد تكون في مرحلة النظرية وفرقٌ بينها وبين الحقيقة العلمية فالنظرية تحتاج طي مراحل طويلة إلى أن تتحول إلى حقيقةٌ مسلَّمة وثابتة.

كذلك فإن بعض النظريات قد تكون في وقتها بحسب المتوفر من العلوم حقائق، ولكنها وبعد مدة من الزمان من الممكن أن يتقدم العلم وأن تتغير تلك الأفكار، ولا يجوز الإصرار على أن كل قضية علمية يكون عليها الدليل من القرآن كذا وكذا.

فلو تغيرت هذه النظرية بعد مدة أربعين سنة أو اكثر واختلفت فكيف سيكون دور الآية التي أخذت للدليل على هذه النظرية؟!

في ذات الوقت الذي نقول إن هناك انسجاما بين الكتاب التدويني وبين الكتاب التكويني، بين القرآن وبين الكون في أن منشأها واحد فخالق الكون هو منزل القرآن وهو الله عز وجل وهذا يقتضي الانسجام بينهما والالتئام، إلا أنه لا يصح أن يكون للإنسان هاجس في كل قضية علمية بأن القرآن يدل عليها. لأن ذلك قد ينتهي إلى تكذيب الآيات.

فنقول في الجملة أن القرآن الكريم كشف حقائق وأشار إليها والغرض منها أن يعتقد الإنسان أن هذا القرآن نزل به الروح الأمين على قلب رسول الله ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾[1] بالإضافة إلى تشجيع الإنسان على البحث والتنقيب والتحقيق في آيات عظمة الله وقدرته.

الاعجاز اللفظي والبياني في القرآن

من آيات الإعجاز في القرآن الكريم هذا الانسجام في البيان طيلة مدة البعثة

(١) الشعراء / ١٩٣ـ ١٩٤ .

النبوية وهذا ينفي إمكانية كونه من بشر فنلاحظ أنه لو لم يكن القرآن نازلا من السماء كمعجزة إلهية خالدة فإن كل الظروف تساعد على أن يكون فيه اختلاف، لذلك يقول القرآن الكريم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1]. لكنه لأنه لا يوجد فيه اختلاف لا كثير ولا قليل فإذن هو من عند الله تعالى.

من تلك الظروف طول المدة وهي ثلاث وعشرون سنة فالإنسان العادي مهما أوتي من الفصاحة والبلاغة فإنه وفي خلال ثلاث وعشرين سنة ستختلف طريقة حديثه من أول هذه السنين إلى آخرها وهذا يتضح مثلاً مع العالم الفلاني حيث ينتج نظرية في بادئ الأمر ثم بعد مرور خمس سنوات يغير هذه النظرية، أو يصححها أو يطورها، فكيف لو كان بعد عشرين سنة؟

ومنها: اختلاف حالات الإنسان في هذه الدنيا فالإنسان يمر بحزن وفرح ورضا وغضب ويأس وأمل وغير ذلك، وهذا كله يؤثر على كلامه فالغاضب بتكلم بطريقة والراضي يتكلم بطريقة أخرى ومن يكون لديه أمل يتكلم بطريقة تتناسب مع هذا الأمل واليائس المحبط يتكلم بطريقة أخرى وهكذا.

ولهذا نقول لبعض من قال خاطئا (وللأسف بعضهم من المسلمين)إن القرآن الكريم عبارة عن انفعالات شعورية من النبي مثلما يحصل للشاعر والعارف عبَّر عنها بألفاظه وكلماته ونقول هل هذه الانفعالات الشعورية كشفت عن الفضاء؟! وهل كشفت عن نظريات في البحار؟! هل كشفت عن حقائق في خلق الإنسان؟! هل كشفت عن حقائق في طبقات الأرض؟! وهل هذه الحالة المشاعرية هي نفسها في الحرب وفي السلم؟! وفي الرضا والغضب؟! في الحزن والسرور؟! في الهزيمة وفي والنصر؟!

(١) النساء / ٨٢.

ومنها: اختلاف المواضيع وكثرتها (كثرة المواضيع كعناوين والزوايا المتعددة للعنوان الواحد) والتي تطرق إليها القرآن الكريم فلو كان من عند غير الله لوُجِد الاختلاف في هذه المواضيع حيث تحدث القرآن عن صفات الله وعما في السماوات، وعن الملائكة، وعن الشياطين، وعن تاريخ الأنبياء، وعن قصص الأقوام البائدة، وعن الأخلاق، وعن العقائد، عن الأحكام، وتحدث عن صفات الجنة وعن صفات النار وعن مشاهد ذلك العالم وتحدث عن غير ذلك من الأمور ويكفيك إذا أردت أن تعرف المواضيع التي تحدث عنها القرآن أن ترى عناوين السور مئةً وأربعة عشر عنوانا تتحدث فيه السورة على الأقل عن جانب من الجوانب ومثال ذلك سورة النساء حيث تحدث في بعضها عن النساء فضلاً عن سائر المواضيع كذلك سورة البقرة حيث تكلم عن البقرة وقصة بني إسرائيل وفي آل عمران تحدث عن آل عمران وهكذا..

فأنت أمام ما لا يقل عن مائة وأربعة عشر عنوانا فضلاً عما لم يكن في العناوين.

ومن الواضح أنه لو تكلم أحدهم في عُشر هذه المواضيع فإن احتمال الاختلاف في الأسلوب والمفردات والنتائج كبيرة، ولا سيما عند تكرار الحديث عنها في سور متعددة. ولكن هذا القرآن هو من عند الله وما كان من عند الله لا يكون فيه الاختلاف.

تصديق الإمام علي بإعجاز القرآن

في هذه المساحة الكبيرة من الآيات (٦٢٣٦) آية، ظل البيان القرآني محافظا على أعلى درجات البلاغة وتصوير الموقف. ويقول أحد العلماء لقد كان أمير المؤمنين على درجة عالية من البلاغة والمعرفة وهو بتلك العقلية الجبارة والقدرة

الهائلة من حيث البلاغة والبيان حتى قيل في كلامه أنه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوقين فما دام سلّم هذا الإمام العظيم بأن هذا القرآن هو من عند الله ولا يعجزه شيء فإن هذا يكفي للتصديق بوحيانية القرآن وكونه من الله. فليس الإمام ﷺ شخصاً عادياً وإنما هو قمة القمم علماً وهو سيد البلغاء بيانا ومع ذلك يخضع ويخشع ويبخع للقرآن الكريم، وفي هذا آية على أن هذا القرآن هو من الله عز وجل.

وللتأمل في بعض كلمات القرآن نورد بعض الشواهد من بيان القرآن الكريم في توصيف مشهد من نموذج من مشاهد القيامة:

تعرض الآيات بعض مشاهد القيامة، وتصور حال القسمين ؛ من أوتي كتابه بيمينه ومن أوتي كتابه بشماله في نفس السورة ولكن تجعلنا نستشعر الصورة وكأنها صورة ثلاثية الأبعاد للمشهد وكأنك حاضر في هذا المشهد... فتأمل طريقة التعبير في كل منهما مع أنهما في سورة واحدة !

يقول ربنا تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾.[1]

أهل اليمين كأنهم لا ينتظرون النداء بأسمائهم وإنما يبادرون من الفرحة ويقدمون كتبهم فيقول أحدهم، ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ أي تعالوا و(انظروا إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ) (وظننت بمعنى استيقنت)[2] أي أنني كنت متيقناً من هذا الأمر فهو (بناءً على هذا) في عيشةٍ راضية، في جنة عالية، قطوفها دانية،.

(١) الحاقة/ ١٩-٢٤.

(٢) قال المفسرون بأن الظن المتعلق بالآخرة يقين، وقال بعضهم: إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وقد وردت الكلمة بمعنى استيقن في مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ *الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.

فهذا مشهد من المشاهد كلماته هادئة وخفيفة. وبشارات وطمأنينة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ ومع الجنة التي هي معدة في الأساس للمؤمن بكل ما فيها ومع ذلك يحصل المؤمن على مزيد من التكريم والاحتفاء والدعوة للاستمتاع بما فيها (كلوا واشربوا).

ومشهدٌ آخر: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ (يا ليتني لم أعط كتابيه) ويا ليتني كنت قضيت قبل أن أصل إلى هذا الموقف ثم يبدأ بعد ذلك الندم وتوبيخ الذات فيقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[1]. فأين هذا التكبر والتجبر وأين الظلم والخيلاء؟ وما نفع المال والسلطان والأعوان؟ أين كل ذلك؟ هلك عني سلطانية ثم يأتي بعد ذلك الجواب:

فلا يقول إن مصيره جهنم أو القوه في النار وإنما يقول (خذوه فغلوه)وكأنك تسمع الصوت وهنا تغيرت اللهجة، فأين هذا وأين العيشة الراضية وأين الجنة العالية (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) والسبعون هنا استخدمت للتكثير. فيصور القرآن بهذا البيان الجانب المفرح والمسر من جهة، ومن أخرى الجانب الكئيب الحزين، والرادع والمخيف والذي تسمع فيه خشخشة السلاسل، وملائكة العذاب يقولون خذوه فغلوه، نعوذ بالله من ذلك.

ولهذا يستحب للإنسان أن يستعيذ بالله من نار جهنم وأن يطلب الجنة، وأن يسأل الله الحور العين. في الدعاء (اللهم اعذنا من عندك، وأفض علينا من فضلك وانشر علينا من رحمتك وأنزل علينا من بركاتك، اللهم أعتقنا من النار وأدخلنا

(١) الحاقة ٢٥- ٢٩.

الجنة وزوجنا من الحور العين [١].

الاعجاز التشريعي

هناك تشريعات في القرآن الكريم لو أن البشر التفت أليها وعمل بمضمونها لوصل إلى سر سعادته:

أ. إن إحدى أعظم المشاكل على مستوى العالم هي قضية التمييز على أساس العرق واللغة أو على أساس الدين والمذهب.. فكم من الجرائم ارتكبت في هذا حتى وصلت إلى الحروب والقتل على أساس أن هذا من تلك القبيلة وذاك من الأخرى، أو أن هذا أبيض وذاك أسود وهذا من هذا المذهب وذاك من ذلك المذهب الآخر، وكم دفعت البشرية من أثمان غالية على أثر التمييز العنصري والعرقي والطائفي والمذهبي والديني؟ إن القرآن هنا يقف موقفا حازما في أساس التفضيل والشعور به هو الذي يدعو إلى التمييز وممارساته فيقول ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا * إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ * إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢] لاحظ أن الخطاب للناس جميعا، لا لأتباع دين دون آخر !! والقاعدة في الجميع سارية ! وبالتالي فهو يبطل كل ادعاءات التفوق الجنسي أو العنصري أو اللغوي أو الديني، ويخاطب أصحاب الديانات السماوية، واليهود بشكل

(١) في وسائل الشيعة ٦/ ٤٦٦: عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال أربعة أعطوا سمع الخلائق: النبي صلى الله عليه وآله وحور العين والجنة والنار فما من عبد يصلي على النبي صلى الله عليه وآله أو يسلم عليه إلا بلغه ذلك وسمعه وما من أحد قال اللهم زوجني من الحور العين إلا سمعنه وقلن يا ربنا إن فلانا قد خطبنا إليك فزوجنا منه وما من أحد يقول اللهم أدخلني الجنة إلا قالت الجنة اللهم أسكنه في وما من أحد يستجير بالله من النار إلا قالت النار يا رب أجره مني.

(٢) الحجرات / ١٣.

خاص حيث عرف عنهم ادعاء (شعب الله المختار) فيقول سبحانه ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾(١).

وعلى فرض حصل تضارب في المصالح، فينبغي المصير إلى العدل، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا* اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ * إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٢).

ب. وعندما نلتفت إلى الحياة الزوجية في المجتمعات، ونرى كيف تشتعل بعض البيوت بالخلافات والمشاكل.. وهم لا يحتاجون إلى العمل بأكثر من آية واحدة من القرآن وهي كفيلة عند تطبيقها بحل تلك الخلافات والمشاكل وهي ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ * فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٣).

ج. ولصيانة حقوق الناس وأموالهم وقيام الاقتصاد (بل كل التعاقدات الاجتماعية) على أساس متين، أمر بالوفاء بالعقود فيما بين الناس، كواجب شرعي تترتب عليه الآثار والاحكام الوضعية، ففي البيع والشراء أمر بالوفاء بالعقود ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾(٤). وألزم المتعاقدين أن يؤدي كل منهما ما تعاقد عليه، من تسليم الثمن والسلعة، واعطى للحاكم الشرعي صلاحية أن يلزم المتخلف منهما بذلك، ما لم يتراضيا على التراجع والتقايل.

وقد كتبت دراسات قيمة في ميزات التشريع الاسلامي وتفوقه على سائر

(١) النساء / ١٢٣.
(٢) المائدة / ٨.
(٣) النساء / ١٩.
(٤) المائدة / ١.

التشريعات، وكونه طريقا لتحقيق السعادة الفردية والسلم الاجتماعي والعمران الاقتصادي، فليرجع من يحب التفصيل إلى تلك الكتب، ومن المعلوم أن القرآن هو الذي قرر أصول تلك التشريعات وجذورها.

مستشرقون في مواجهة القرآن الكريم

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

نفتتح بهذه الآية ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُون إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ بالرغم من أنّ هذه الفرية والتهمة بحق النبي قد قالها كفار قريش، إلا أنّ المستشرقين الذين واجهوا القرآن الكريم في العصور المتأخرة أعادوا إنتاج هذه الفرية والكذبة من جديد وحاولوا تسويقها في الثقافة العربية عبر الكتب وفي الجامعات عبر تلامذتهم.

في الزمن السابق حاول كفار قريش أن يسقطوا وحيانية القرآن الكريم وكونه من الله عز وجل، نظرًا لأنّهم لو سلّموا بأنّ هذا من عند الله فإنهم ملزمون بقبوله وباتباعه!

فالطريق إلى عدم اتباعه أن يقال إنّه ليس من عند الله، إذن من أين؟

(١) سورة النحل آية ١٠٣.

قالوا عدة ملاحظات وأفكار حول القرآن الكريم وحول رسول الله سوف نجد أن بعض المستشرقين أعاد صياغتها وإنتاجها من جديد:

الملاحظة الأولى

قالوا: إنّ هناك غلامًا نصرانيًا صانعًا للسيوف أصله من بلاد الروم، وكان مستقرا في مكة، وعنده علم بالتوراة والإنجيل، وأنّ محمدًا ﷺ حسب افترائهم كان يذهب لهذا الغلام صانع السيوف الرومي ويأخذ منه المعلومات حول قصص الأنبياء والتاريخ وما يرتبط بالفرائض والعبادات. يقول القرآن لهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ أي هذا الغلام النصراني الرومي وقيل اسمه (جبر) أو (يسار) كان هو المعلم والكلام الذي يقوله محمد إنّما علمه منه هناك، وأصل كتابه من هناك فالقرآن يردّ عليهم مباشرة: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وهذا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ لسان هذا الغلام رومي أَعجمي غير عربي و غير قادر على إنتاج مثل هذا الكلام العربي الراقي الذي عجز عنه فحول شعراء العربية!

العجيب أنّ هذه الفرية التي كانت في زمان الجاهلية وغيرها من الأكاذيب والافتراءات تلقّفها بعد مرور آلاف السنين بعض المستشرقين بصياغة جديدة وعبارات جديدة وأصدرها في كتب باللغة العربية ليقرأها العرب من جديد!

هذا الكلام الذي صدر من قرشيين جهلة أعاد إنتاجه مستشرقون أجانب من جديد وأعادوا تصديره وساهم في ذلك تلامذة هؤلاء المستشرقين، كما سنتحدث عنهم عند الحديث عن تيار الحداثة والعلمانيين وموقفهم من القرآن الكريم وكيف أعادوا هذه الفرية بصيغة جديدة وأضافوا إليها فريات أخر.

وسيأتي الحديث عن أن بعض المستشرقين المتعصبين دينيا سوف ينفخون في

هذه الفكرة، وفكرة أخرى هي تضخيم دور ورقة بن نوفل مستفيدين مما ورد في بعض أحاديث مدرسة الخلفاء.

الاستشراق والمستشرقون

اصطلاح يتكلم عن مجموعة من الغربيين سواء كانوا أمريكيين، أم أوروبيين فرنسيين وهولنديين وألمان أو حتى يابانيين، فهم فئة من الغرب التفتوا إلى بلاد الشرق لاسيما البلاد المسلمة فحاولوا دراسة عادات وتقاليد أهل الشرق، و دياناتهم وقبائلهم، وبيئتهم وزراعتهم وأدبهم، و البعض منهم وهو الأكثر جاؤوا إلى الشرق ومكثوا فيها لا سيما الإسلامية منها وحاولوا التعرّف عليها.

الغرض من اطلاع المستشرقين على بلاد الشرق

معرفة هذه البلاد وأحوال أهلها وما يحرّكهم وكيف يفكرون، وما هو تاريخهم وماهي أديانهم، و ماهي فرقهم ومذاهبهم.

ومع أنّ حركة الاستشراق كانت مبكرة جدًا ولكن ليتبيّن حجم الاهتمام الذي أولته هذه الجماعة ببلاد الشرق لاسيما بلاد المسلمين، تقول بعض الإحصاءات أنّه بلغ عدد ما أصدره المستشرقون خلال قرن ونصف من الزمان من كتب، (منذ أوائل القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين) ستين ألف كتاب [١]، وكان منها الكثير حول تاريخ القرآن الكريم، وتاريخ الأدب العربي، و حول القراءات، والمذاهب والفرق، وجغرافيا العالم الإسلامي، و حول التحريف في القرآن على حدّ ما زعموا، و حول المكي والمدن، وحول الكثير بما يرتبط بالدراسات القرآنية.

وإذا صحّت هذه الإحصائية فإنّ هذا الإنتاج من منتصف القرن الثامن عشر يعتبر

(١) عن ادوارد سعيد في كتاب الاستشراق / ٢١٦.

مذهلا بحجمه وعدده.

وإذا كانت لهم في ذلك غايات، فيجب أن يهتم الباحثون المسلمون بهذه الحركة ونشاطها وفهم غاياتها لأكثر من سبب:

الأول: أنّ هذا الإنتاج الثقافي وكثير منه معاد للقرآن الكريم وللإسلام والنبي محمد ﷺ لايزال يتربّع على رأس قائمة المصادر الرئيسية التي يرجع لها طلاب الدراسات العليا عند دراستهم الإسلامية مثل (كتب كارل بروكلمان، و كتب جولد تسيهر، وكتب ادوارد بروان، و كتب لامانس) أمثال هؤلاء وهم كثيرون جدًا يعود لهم أصحاب الدراسات العليا، وتلامذة هؤلاء المباشرون كانوا لفترات طويلة في بلاد مسلمة وعربية مشرفين تربويين ومستشارين تعليميين وأساتذة جامعات يتكفّلون بالتوجيه العلمي والثقافي لطلاب الجامعات بل لاستراتيجيات الجامعات، فإذا كان هؤلاء من يوجّه الجامعة ويوجّه الدراسات العليا وطلابها وينتج الثقافة والعلم، وكانوا معادين أو مخالفين وفي الحد الأدنى مشككين بهذه المنظومة الدينية من القرآن الكريم والنبي والشريعة فلا شك أنّ هذه الأفكار تنعكس بشكل أو بآخر على طلابه، وعامة على التوجيه التعليمي في الأمة.

الثاني: إن الكثير من هذه الشبهات تعاد وتردّد على طلابنا المغتربين في الخارج عن طريق تسريبها من أساتذة الجامعات لأبنائنا الذين أقصى ما درسه بعضهم هو مستوى الثانوية وتحصيل مقدار بسيط من الثقافة، وبالتالي تتسرّب لهم هذه الأفكار الخاطئة عن دينهم وقرآنهم ونبيهم فتُلقى الشبهات في أذهانهم.

الثالث: الكثير من الجاليات التي تعيش في بلاد الغرب يُقدّم لهم هذا الطعام المسموم ! ولهذا يجب أن نتعرّض لشيء من هذا المعنى عن نظرة أولئك وما يجب أن يُقال في نقدها ومواجهتها.

أقسام المستشرقين

لا ريب أنّ قسمًا من المستشرقين كانوا منصفين بل إنّ بعضهم حينما انفتح على المصادر الإسلامية بدون خلفيات مسبقة اعتقد بها وآمن بها و أسلم[١]، فالبعض منهم بدراستهم للقرآن الكريم و بدراستهم لتاريخ رسول الله وللتاريخ الإسلامي توصّل إلى نتائج انتهت به إلى الإيمان.

و قد ذكرنا في ما سبق أنّ مثل (موريس بوكاي)[٢] مؤلف كتاب (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم بمقياس العلم الحديث) قد أطّلع على القرآن الكريم ووجد التطابق بينه وبين مؤدّيات العلم و حقائق التاريخ الثابتة، واعتقد أنّ هذا القرآن كتاب الله وأنّه لم يتطرّق إليه خلل خلافًا لباقي الكتب السماوية التي طرأ عليها التحريف.

وقسم آخر من المستشرقين لم يسلموا أو يؤمنوا بل بقوا على طريقتهم السابقة ولكنهم درسوا الإسلام والقرآن الكريم بعقلية منفتحة ومنصفة، بل إنّ بعضهم ردّ على المستشرقين المتطرّفين وعلى التهم الجزافية والشبه الاعتباطية التي ذكروها بما يرتبط بالقرآن والنبي ﷺ.

ونحن لا نتحدّث عن أيٍ من هذين القسمين لكنّنا نتحدث عن القسم الثالث الذين جعلوا طريقتهم معاداة القرآن الكريم والوحي الإلهي والرسول والشريعة المحمدية.

وقد نلاحظ أنّهم قد أتوا من جهات كالتعصب الديني مثل (جولد تسيهر)

---

(١) منهم: الفرنسي ميشو بللر، والسويسري يوهان بوركهارت (١٧٨٤-١٨١٧) والألماني فريتس كرنكوف (١٨٧٢-١٩٥٣)، والمجري عبد الكريم جرمانوس..كما ذكر ذلك عامر الحافي في مقاله/ الاستشراق ودراسة الاسلام، ونشر في موقع تعددية. على الانترنت.

(٢) مرت ترجمته.

الذي كان متعصبًا ليهوديته بشكل كبير فلا يعقل أن يقول في القرآن الذي يقول في اليهودية: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أو ﴿وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾أو ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ وقوله ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ وغير ذلك! فحين يأتي من خلفية دينية متعصّبة لا يستطيع أن يتقبّل أنّ هناك دينا آخر بعد اليهودية وأنّ هناك وحيًا إلهيًا من قبل الله، وأنّ هناك كتابًا ككتاب التوراة الأصلي الذي كان من قبل الله.

الملاحظة الثانية: تضخيم دور ورقة بن نوفل

سوف نلاحظ في هذه الفئة المتعصبة والمتطرفة أنهم يؤمنون بأنّ القرآن الكريم ليس نازلاً من السماء وإنما هو كتاب أرضي ساعد في تأليفه ورقة بن نوفل بن خويلد الراهب المسيحي، (هذا الرجل الذي للأسف نال تضخيماً كبيراً منهم)، واستفاد هؤلاء من الدور الذي نسبته إليه روايات مدرسة الخلفاء، تصل إلى حد أنّه هو من أقنع محمداً بالنبوة! وأنّ النبي جاء من غار حراء فزعًا لا يعرف ما يفعل، وجاء ورقة بن نوفل وهدّأ من روعه[1] وقام بتجربة للتأكد من أنّ الذي زار النبي في الغار كان جبرائيل عليه السلام وليس شيطانًا وطمأنه بأنّ هذا جبرائيل وكان ينزل على موسى وأنّه نبيٌّ مرسل من عند الله كموسى، وأنّه لولا ورقة لما علم رسول الله بأنّه نبي، وهذه الرواية غير صحيحة عند أهل البيت عليهم السلام ولا أصل لها!

في المقابل قال هؤلاء المستشرقون أنّ هذه الرواية موجودة في كتب صحيحة عند المسلمين وقالوا أنّ ورقة بن نوفل علّم محمدا النبوة، وأنّ كلّ ما يعرف من علوم كان من ورقة وكانت له معه جلسات تعليمية فكلّ ما عنده هو مما علمّه إياه

(١) كذّب أئمة أهل البيت هذه الروايات، ولم يقبلوها.

ورقة بن نوفل وقد كان ذكيًا وفهم الدرس جيدًا! إذاً هو ليس نبياً من السماء كما يزعم، وهذا القرآن إنّما هو كلمات ورقة بن نوفل جاء بها من التوراة والإنجيل ودرّسها لمحمد!

هذه فكرة باطلة اتخذها المستشرقون، وبالإضافة لهذه الفكرة ما ذكرناه سابقاً عن الغلام النصراني صانع السيوف وكان عنده علم بالتوراة والإنجيل ودرّس النبي فتعلم منه وقام بصنع القرآن. لهذا يقول تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[1] إذ أنّ النبي مع علمنا أنّه يقرأ ويكتب على الرأي المختار في قضية الأمي إلا أنّه كان ممنوعًا عليه أن يظهر القراءة والكتابة، لأنّه لو عُرف أنّه كاتب لكانت التهمة أسهل أنّه قرأ ودرس الإنجيل والتوراة من عند ورقة بن نوفل ويسار الرومي! ولو كان يُعرف عنه الكتابة لصدق مقالهم ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ !

المستشرقون واجهوا القرآن الكريم وقالوا أنّه غير منزّل من السماء إنّما هو تجميع من العهدين القديم التوراة والجديد الإنجيل بمختلف الوسائل، وهذا ينفي كون النبي يُوحى إليه وأنّه وحي من السماء وهذا ضرب لكون القرآن الكريم وحيًا من السماء ! وذهب إليه بعض المستشرقين لنفي قوله تعالى ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.

الملاحظة الثالثة

كما فعل القرشيون الأوائل بالنسبة لشخصية النبي، تعرضّ هؤلاء المستشرقون للنبي ﷺ وقالوا كلامًا أدناه حتى لا يجرحوا أحدًا أنّه كان لدى النبي هوس ووضعه

(١) العنكبوت / ٤٨.

النفسي غير مستقر، و أمّا الإساءة الأكبر ما صرّح به بعضهم (تبّت يداه وخرُس لسانه) أنّ محمدًا لديه صرع حيث أنّه عند نزول الوحي يتعرّق بدنه وتصيبه برحاء الوحي وينقطع عمّن حوله ! وما يحدث له حالة صرع وحين إفاقته منه يتذكّر ما يصيبه بهذه الحالة ويلقيها على الناس على أنّها وحي قرآن. وقال بعضهم أنّ هذه الحالة ليس صرعًا إنّما هي حالة انفعالية شعورية!

الرد على هؤلاء المستشرقين

٤. إنّ العلماء يقولون أنّ حالة الصرع حين تعتري الإنسان فإنّها تسيطر على قواه العقلية وتعطّلها (فهم يصفون أنّ بعض أنواع الصرع إنّما هي زيادة في كهرباء المخ وفي هذه الحالة تتعطّل القوة الذهنية) فكيف بمن تعطلت قواه الذهنية يستطيع بأن يأتي بتاريخ البشر من آدم ماراً على كل الأنبياء بدقة لا مثيل لها! أو يأتي بآيات في الإعجاز العلمي لم تكنْ تخطر على بال البشر في ذلك الوقت، وفي حالة اليقظة والتفكير لا يخطر ببال الإنسان الطبيعي أنّ الأرض تدور والجبال أوتادًا أو الغلاف الجوي والضغط الجوي يتغيّر ويضيق على الإنسان، فهل في حالة الصرع سيدرك المصروع ذلك!

أو هل يستطيع هذا المصاب بالصرع أن يأتي بالقوانين والتشريعات التي لم يتوصّل البشر إلى كمالها مع اجتماعهم وتجاربهم! وتلك المبادئ الأخلاقية، والقضايا العقائدية مثل قضايا السماء والقيامة! كيف سيختلق كل هذا!

٥. الهوى والعصبية حين تلازم إنسانا تجعله لا يبصر الطريق، وهذا حال هؤلاء المستشرقين الذين كان همّهم معارضة القرآن الكريم والنبي محمد ﷺ، وكان تركيزهم على ما يعتبرونه ثغرات في الدين كتحريف القرآن و يبحثون في هذه الأمور! فتراهم يذهبون لمصادر مدرسة الخلفاء ويبحثون في تلك

الروايات الضعيفة عن تحريف القرآن، وفي الزيادة والنقيصة وهي روايات غير صحيحة ثم يأخذونها ويضعونها في كتبهم، ثم يأتون لكتب مدرسة أهل البيت عليهم السلام وهناك روايات ساقطة من حيث السند والدلالة تتحدّث عن تحريف القرآن فيجمعونها في كتبهم ولا يذكرون آراء العلماء في أنّ هذه الروايات ساقطة سندًا ودلالة، لم يقلْ بها علماء معتبرون والرأي العام الذي قام عليه الإجماع في المدرستين وهو عدم التحريف ولكنه يتمسكّون بهذا الرأي!

فهؤلاء المستشرقون يتركون الرأي العام والمحقّق فيه والمجمع عليه والقائل بعدم تحريف القرآن الكريم و يذهبون للرأي الشاذ، الذي ينفعهم في كتبهم ويساعدهم على ضرب القرآن الكريم وإثبات تحريفه، ونحن لا نؤمن بأيٍ تحريف للقرآن بناء على أنّ النسخة الموجودة لدى المسلمين هي ما كتبها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهي قراءته وجمعه للقرآن.

الملاحظة الرابعة

جاءت فئة منهم تقول إنّ القرآن لا بلاغة عربية فيه (مع العلم أنّ قسمًا منهم لم يقرؤوا القرآن بلغته بل بترجمته) وأيّ مترجم لا يستطيع إعطاء تمام المعنى في القرآن الكريم إنّما يعطي معنى تقريبيا، فيعني هنا أنّ المحاسبة هي للمترجم وليس للقرآن لقصر فهم المترجم و قلة استطاعته على التعبير عنها.

ثم قالوا إنّ القرآن يتحدّث عن قصة موسى ثم يقطعها في المنتصف ! وأوعزوا هذا لكون السرد القرآني والقصص القرآني ليس له صيغة أدبية! فهو يبدأ في قصة موسى وينتقل لقصة عيسى أو يتوجّه لتوجهات أخلاقية!

ونقول للردّ عليهم في ذلك:

أنّ القرآن الكريم ليس ككتاب ألف ليلة وليلة، ولكنّ غاية القصص القرآني (ما نثبّت به فؤادك)[١] ! موضع العبرة يأتي به القرآن في الآية فتراه لا يذكر بعض الأسماء أو التواريخ تارة لأنها غير مهمة في هذا الجانب، وأحيانًا لا يأتي بجانب القصة الأول لأنّ غرضه استنباط العبرة في القسم الأخير منها، فمثلا إذا أراد شرح كيف تنحرف المجتمعات بعد غياب قائدها فيأتي بقصة نبي الله موسى بعد ذهابه إلى ميقات ربه،!

وهذه كانت مشكلة بعض هؤلاء المستشرقين الذين لم يحيطوا بآداب اللغة العربية وبيانها، فبعض العرب الأقحاح الذين عاشوا في بيئة عربية لا يتوجّهون لبلاغة اللغة إلا بالدراسة والتحقّق والتوجّه، فكيف بمن لمن تكنْ العربية لغته الام!

مثال ذلك عندنا في اللغة العربية والبلاغة (بحث الالتفات)، وهو من الأساليب البلاغية المتقدمة ويستخدمه الشعراء الفحول الكبار وهو عبارة عن تحدّث المتكلم بصيغة الغائبين ثم يتغيّر بخطابه لصيغة الحاضر، فهو تارة يتكلّم عن نفسه ثم يغيّر الخطاب لصيغة الغائبين، ويعتبر هذا من أساليب البلاغة المتقدمة ويساعد في رفع السأم عن السامعين وهو أسلوب متفّقٌ على بلاغته عند العرب.

لكن المستشرقين لا يلتفتون إلى ذلك ويذمّون هذا الأمر ومثال ذلك في القرآن الكريم:

٦. قوله تعالى ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢] والمفروض أن يُقال في ذيل الآية (وإليه أرجع) أو (أنا راجع) فالقرآن الكريم هنا استخدم

(١) هود / ١٢٠.
(٢) يس / ٢٢.

أسلوب الالتفات حيث كان يتحدّث المتكلم عن نفسه ثم غيّر الخطاب الى السامعين وغيرها من متكلم (فطرني) إلى (ترجعون)، فكانت الصيغة أحسن وأفضل وأشرك السامعين في كلامه بينما لو قال (إليه أنا راجع) لقال السامعون وما دخلنا في هذا!

٧. قول الله تعالى ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[١] يتحدّث عن الأبرار بصيغة الغائب، ثم يخاطبهم ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ بينما هو يتكلم عن جماعة يفترض أنّهم غائبون ثم نقل الخطاب وكأنّهم أمامه!

٨. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[٢] وليس (بكم).

ولكنّ المستشرق لغته لا تساعده على فهم ذلك، و تبحّره القليل في قوانين العربية لا يعينه على الفهم، وهي مشكلة بالإضافة إلى المشكلة العقائدية والانطلاق من منطلق الطعن فيه ومواجهته.

دوافع وأهداف أخرى للمستشرقين

يذكر الباحثون في قضايا الاستشراق أن قسما من البعثات الاستشراقية وجهود المستشرقين كان تخدم سياسات استعمارية، حيث أنّ بعض المستشرقين موظفون رسميون في وزارات الخارجية او الدفاع في بلادهم، بل شن إدوارد سعيد في دراسته الشهيرة «الاستشراق» في العام ١٩٧٨م حملة قاسية على الاستشراق باعتباره «مؤسسة استعمارية» وعرّفه بأنه «المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق-

(١) الإنسان / ٢١ـ ٢٢.
(٢) يونس / ٢٢.

التعامل معه بإصدار تقريرات حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه: وبإيجاز، الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبنائه، وامتلاك السيادة عليه»[١]. فيأتي أحدهم في مهمة ليراقب المنطقة فيسجّل ملاحظاته ويكتب كتابًا ويقدّمه للناس ويستهدف به الاسلام وثقافته[٢].

(١) هيثم مزاحم ؛ مقال بعنوان: في ذكرى إدوارد سعيد.. مآلات الاستشراق / منشور على موقع الميادين على الانترنت.

(٢) وقد كتب عدد من الكتاب عن خدمات المستشرقين للتوجهات السياسية الحاكمة في بلادهم، بالاسماء والتواريخ والأرقام.

حداثيون: تمييع القرآن وتضييع الشريعة

في العصر الحديث حصل طلاق وانفصال في المجتمعات الأوروبية بين العلماء والمجتمع من جهة وبين الكنيسة ورجالها وكتابها من جهة أخرى على أثر تراكمات تاريخية كانت فيها الكنيسة ورجالها قد تجاوزوا حدودهم الاعتيادية وفرضوا حصاراً على فكر الناس وجعلوا المجتمع ينحو منحى الجهل، وكل ذلك كان باسم الدين والكتاب المقدس وإرادة الله عز وجل.

أنتج هذا ردود أفعال اجتماعية أدت إلى أن تتفاصل المجتمعات، فالفئة الدينية والكتاب المقدس عندهم أصبح على هامش الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية، وأصبح المجتمع لا ينظر إلى هذه الفئة على أنها تجلب له السعادة ولا يتوقع منها الخير الدنيوي، فقد أصبحت عنواناً للتخلف والجهل ومحاصرة العقول فتم الانفصال والطلاق بين هاتين الفئتين، وأصبح المجتمع عموماً مجتمعاً منفصلاً عن الدين، علمانياً في اختياراته وأصبحت الفئة الدينية على هامش الحياة، وقد تعمق هذا الاتجاه عندما جاؤوا بدراسات تبين وجوه الخلل في الكتب المقدسة، وابتكروا مناهج في النقد بينت الكثير من زيفها، ومع أن الاعتقاد الإسلامي القائم يقول بأنها ليست هي الكتب المنزلة من السماء بل حصل فيها

تحريف وتزييف مفصل[١].ولكن أرباب الكنيسة كانوا يعتقدون بانها الحق النازل من السماء وأن على الناس أن يؤمنوا به كحقيقة مطلقة لا تقبل النقاش، جاء العلماء الطبيعيون والتجريبيون في تلك البلاد وأثبتوا بالحقائق أن هناك مضادة بين مؤديات هذه الكتب وآياتها وبين ما يكشف عنه العلم، فحدث هذا الانفصال وسمي بحسب المراحل بأسماء متعددة كعصر الثورة الصناعية، عصر التنوير، عصر الحداثة وغيرها من المسميات الأخرى، فهذه حقيقة حصلت في البلاد الاوروبية.

على أثر التواصل العلمي والثقافي بين المجتمعات العربية والمسلمة من جهة وبين المجتمعات الاوربية فقد برز عدد من المفكرين العرب والمسلمين وحاولوا ان ينقلوا نفس التجربة الموجودة في الغرب إلى بلاد المسلمين، فقد استوردوا قسماً من المناهج، والمصطلحات، وأيضاً استوردوا الحالة المضادة للدين والتي تعتبر أن الدين هو احد العوائق أمام النهضة وتعتبر ان في الكتاب إشكالات حقيقية ومخالفات للعلم، (وكان هذا أول السوء فما عانى منه التوراة والانجيل من التحريف وتضادهما مع معطيات العلم والعقل لم يكن في القرآن) وهذا الامر كان خاصاً في كتب التوراة والإنجيل وقد حصل التحريف فيهما، فالكتاب الموجود الآن ليس الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام وإنما حدث فيه التحريف.

قام مفكرون عرب ومسلمون بنقل هذه الحالة ونسخها إلى الحالة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، فكما طبق المجتمع الغربي مناهج على الكتاب المقدس وبينوا انه يوجد فيه خلل، حاول هؤلاء المفكرون تطبيق نفس هذه المناهج على القرآن الكريم، فأصبح لدينا تيار في المجتمع العربي والمسلم، تارة ما يعبر عنه بالحداثيين وتارة يعبر عنه بالعصرانيين وثالثة بالعلمانيين.

(١) يراجع التفريغ النصي لمحاضرة: التوراة: تعريفها وتحريفها في موقعنا الالكتروني al-saif.net.

ليس مهماً البحث عن أسمائهم ولا عنوانهم (فقد يقول قائل أنا حداثي ولا أؤمن بهذا أو علماني ولا أرى ذلك..)وإنما الكلام هو حول الأفكار التي يذكرونها ويطرحونها بغض النظر عما إذا كان العنوان ينطبق بشكل كامل على هذه الأفكار تماما أو ينطبق على بعضها.

ما قام به هؤلاء هو صياغة كلام المستشرقين بصورة أهدأ وأقل عنفاً، لان بعض المستشرقين صريحون بقولهم أن القرآن ليس وحياً من السماء وأن النبي ﷺ لم يكن صادقاً في ذلك، وهذا الكلام يشكل صدمة للإنسان المسلم وقد لا يقبله، لذا قام هؤلاء بتغيير الصياغة والشكل وإن كانت المادة الأساسية تنهل من نفس النبع وتحدثوا عن ثلاثة عناوين:

العنوان الأول: التجديد في فكرة الوحي

العنوان الثاني: بشرية النص القرآني

العنوان الثالث: تاريخية النص القرآني

فلو لاحظنا بأنهم لا يصفون القرآن بأنه كلام الله عز وجل وإنما يعتبرونه نصاً من النصوص وله مناهج وبرامج لمحاكمته.

العنوان الأول: التجديد في فكرة الوحي

فقد قالوا أن الفكرة الموجودة عند المسلمين بأن الوحي عبارة عن كلام من الله عز وجل قد أعطاه لجبرئيل ونزل من السماء إلى الأرض حاملاً إياه لرسول الله ﷺ، قالوا أن هذه الفكرة هي فكرة قديمة وغير صحيحة وعندما تريد الامة أن تمسك بشروط النهضة فلابد أن تغير نظرتها في قضية الوحي.

الفكرة الصحيحة عندهم بأنه لا يوجد شيء يسمى جبرئيل وأنه ينزل من

السماء ولا يوجد كلام من الله للنبي ﷺ وإنما النبي يبتكره ويبدعه من تلقاء نفسه، فالنبي ﷺ كالشاعر عندما يمر بمنظر طبيعي ويستثير فيه أحاسيس معينة فتنبعث قريحته في شكل قصيدة.

فهم يرون بأن هناك رؤيتين مختلفتين للوحي:

الأولى: الرؤية التقليدية السطحية التي تتعامل مع الوحي على أنه حقيقة خارجة عن الواقع ومتعالية عليه، وأنها نازلة من السماء إلى الأرض!

والثانية: الرؤية الحداثية الواعية العميقة التي تنظر إلى الوحي نظرة مختلفة عن تلك النظرة البدائية، وتفسره تفسيراً يتناسب مع متغيرات التاريخ والثقافة.

فمنهم من يجعل الوحي عبارة عن حالة يعيشها النبي تفيض عليه من خلالها المعاني الدفينة التي كان يعيشها في حياته، فالوحي عند أحدهم «حالة استثنائية يغيب فيها الوعي، وتتعطل الملكات، ليبرز المخزون المدفون في أعماق اللا وعي بقوة خارقة لا يقدر النبي على دفعها ولا تتحكم فيها إرادته!»[1].

وعند آخر: الوحي تجربة إنسانية، وتجل مثلما هو عند الشعراء.

وهذا هو التعديل والتخفيف لما ذكره المستشرقون المتعصبون في حق النبي عندما وصفوه بأنه ﷺ مصاب بالصرع أو به مس، فعندما تحدث له تلك الحالة ينبعث منه بعض الكلام والتصورات فينقلها للمسلمين ! وقد رأوا أن هذا الكلام عظيم المسمع على المسلمين في حق النبي ﷺ فقالوا بانه تمر عليه حالات معينة يتفاعل معها وتجعله ينتج كلاماً من داخله وبما أنه ليس كلاماً من الله فلا قداسة

(١) من مقال لسلطان العميري في مجلة البيان العدد ٣١٨ صفر ١٤٣٥هـ نقل فيه بعض أقوالهم من مصادرها.

له ولسنا ملزمين بإتباعه، هذه هي فكرة هؤلاء المستشرقين، وقبل المستشرقين قال كفار قريش عن النبي إنه شاعر[١] وصاحب تجربة شعرية، وهي مع تخفيف وتغيير بسيط فكرة هؤلاء الحداثيين.

وفي الرد على هؤلاء:

أولاً: هذه الفكرة تضرب في صميم الوحي وفي صميم القرآن الكريم، والذي يلتزم بها لابد أن يكذب كل الآيات التي وردت فيها عبارة (إنا أنزلناه، نزل، انزل..)، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ و ﴿إنا انزلناه تنزيلاً﴾ و﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾، والغريب في الأمر أن البعض يلتزمون بتلك الأفكار مع اعتبار انفسهم مسلمين. خصوصا مع ملاحظة الضمائر مثل (نزل به) أي بهذا القرآن بمعناه ولفظه لا بجزء منه وهو المعنى مثلا !

ثانياً: كل ما ورد في القرآن الكريم وفيه أمر بالقول هو أمر من الله عز وجل للرسول ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾، فكلمة قول وأمثالها وهي موجودة فيما يقارب ٣٠٠ موضع في القرآن الكريم وهو أمر صادر من الأعلى إلى الأدنى، فلو قلنا أن القرآن هو كلام من النبي ﷺ، فكيف يأمر نفسه ويقول لها (قل)؟! فهذا نوع من البلاهة ولا يوجد إنسان عاقل يقول لنفسه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

كذلك الآيات التي يوجد فيها كلمة (نتلو) ومشتقاتها، تصبح كاذبة ولا معنى لها إذا كان النبي هو صاحب التجربة الشعرية والانفعالية المنتجة لهذه النصوص والكلمات، فهو الذي يتلوها لا أنها تتلى عليه.. والحال ان القرآن يتحدث عن تلاوة على النبي في مواضع كثيرة.. فمن يقبل هذا الكلام لا بد أن يسقط كل الآيات التي

(١) ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ..﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾.

فيها إشارة إلى أمر(قل) وكل الآيات التي توجد فيها مفردات التلاوة كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.[١]

ثالثا: لو تدخلت قوة بشرية في صياغة القرآن (بمن في ذلك النبي كما زعموا) فإنه يبطل احتجاج القرآن بعجز البشر عنه، إذ بالامكان بعد ذلك أن يتم للبشر ما أرادوا بالقول أن واحدا من البشر من دون حاجة إلى اجتماع الإنس والجن قد استطاع أن يأتي بهذا القرآن كلاً أو جزءا. (ولو كان بعنوان النبي). ثم هل يعقل أن يتحدى (النبي) بالقول (لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله) وبعد ذلك هو يأتي بالقرآن؟! هل هذا إلا تناقض وتهافت؟

رابعا: إن هذا يقتضي والعياذ بالله أن يكون النبي المصطفى كاذبا، فهو يبلغ هذا الكلام باعتباره كلام الله ويقول إن الله يقول كذا.. بينما الكلام كلام النبي بناء على هذه الفكرة ! لو أن شخصا نقل عن سلطان كلاما لم يقله ذلك السلطان وأخبر رعيته عنه باعتبار أنه كلام من عند السلطان لكان حقا عليه أن يعاقب (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) لكنه حاشا النبي أن يفعل شيئا من ذلك.. بينما هذه النظرية تقول إن النبي قد أنتج (كل الأقاويل) وليس بعضها !!

خامسا: لو كان القرآن كما قالوا بأنه تجربة إنسانية، أو انفعال شعوري أو أي تعبير مما قالوه، من النبي ﷺ فلماذا تأخر كل هذه المدة؟ ولماذا انتظر إلى السابع والعشرين من شهر رجب عندما بلغ الأربعين، ليتلوه؟ وقد قال صلوات الله عليه مجيبا عن هذا ومفندا الفكرة ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

سادسا: إن هذا الكلام يقتضي أن تتغير وظيفة الرسول إلى شيء آخر، فالمرسل

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٢.

وهو الله هو من يعطى شيئاً للرسول وهو محمد حتى يوصله لغيره، وأما بناء على هذه الفكرة سيكون الرسول أصيلا في صناعة القرآن وإنتاجه.

فأنت تلاحظ عزيزي القارئ أنه تحت عنوان التخلص من القراءة التقليدية للوحي، والتفكير في قراءة جديدة انتهى الأمر لأن يكون النبي كما قال القرشيون شاعرا وكما قال المستشرقون صاحب حالات نفسية غير سوية، وبالنتيجة كاذبا على الله نعوذ بالله وكاذبا على الخلق عندما يخبرهم بأنه لا يقول ذلك من تلقاء نفسه وإنما هو متبع للوحي ولما يأتيه من جهة ربه ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ * أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.[1]

العنوان الثاني: وهو بشرية النص القرآني:

قالوا بأن هذا النص القرآني هو نص بشري وليس إلهي مقدس وليس نازلاً من السماء، وقد أتموا هذا بمحاولة ايجاد قراءة جديدة كما سموها للوحي ذكرناها فيما سبق من السطور، وإذا كان بشريا لا مقدسا فسينتج هناك أمران: الأول أن يمكن محاكمته بالأدوات والمناهج التي تحاكم النصوص البشرية والأدبية، والتي تم تطبيقها في الحالة الغربية على التوراة والانجيل.

والثاني أنه سيصبح متأثراً بثقافة المتكلم وبيئته وطبيعته ووضعه النفسي، ولذا فإنه غير صالح لكل زمان ومكان وإنما يصلح لبعض الأزمان وبعض البيئات والجماعات. وهو الذي سيتم الحديث عنه في:

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٥ـ١٦.

العنوان الثالث وهو تاريخية النص القرآني:

- سيتجلى أثر القول بتاريخية القرآن في أحكامه وتشريعاته، وأنه في ذلك إنما كان استجابة لظروف وملابسات اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة، ومع تغيرها لم تعد هناك حاجة له إذ أن ما يفرزه المتغير والمتحرك لا يمكن أن يكون ثابتا. وما هو محكوم بالظرف التاريخي في نشوئه لا يمكن أن يتعالى على التاريخ في استمراره.

وهذا الكلام الذي ظاهره طبيعي، سينتهي إلى ضرب فكرة خاتمية الرسالة المحمدية وصلاحيتها لكل الأزمنة.. بالطبع هذا لا يقال مرة واحدة، وبشكل مباشر وإنما بالتقسيط وعلى دفعات، فيقال إن أحكام الميراث كانت استجابة لظرف تاريخي معين كان في زمان العرب ايام بدء الاسلام حيث كانت المرأة كذا وكذا والآن تغيرت الظروف فلم تعد هذه الأحكام صالحة لأن الظروف التي استجابت لها هذه الأحكام لم تعد قائمة. والحدود والقصاص كذلك، وانظمة الزواج والطلاق والتعدد والحجاب [1] وغيرها هي كذلك، وعموما. حتى لقد قال بعضهم أن كل الاسلام (باستثناء الأركان الخمسة) كان استجابة لأوضاع خاصة اجتماعية وجغرافية وهي منتهية بانتهاء أمد تلك الأوضاع !!

فإذا أضيف إلى ذلك فكرة أن المهم هو تحقيق الغايات وليس الأحكام، فقد رفعت هذه (الشريعة) إذن من التداول أولا لأن الكثير من أحكامها فقدت مبررها، وما هو باق ولو احتمالا فهو رهين بمقاصده وغاياته، وهي خاضعة للزمان والمكان والشخصيات وتختلف بحسب هذه فلا حكم ثابت إذن في هذه الشريعة.

يبقى أمر العبادات وهي أيضا محكومة بغاياتها ومقاصدها، وليست واجبات

(١) وليس عجيبا هذا التركيز على ما يرتبط بقضايا المرأة على وجه الخصوص.

مطلقة ! فلم يبق شيء من هذا الدين

سلبوا التشريع من القرآن ونصبوا أنفسهم.

العجيب في الامر انهم عزلوا القرآن عن التشريع لهذا الزمان وقد نصبوا أنفسهم مشرعين، فالمفكر والمثقف العربي الذي لا يكون عالماً في القضاء ولا عالماً في الإفتاء ولا ما يرتبط بهذه الأمور وإنما لديه فكرة قد استوردها من مكان آخر فقد جعل لنفسه منصباً قضائياً وهو منصب الإفتاء بأن الميراث لابد أن يكون بالتساوي بين الذكر والأنثى وأن الحجاب غير واجب وغيرها من القضايا، وهذا من أغرب المفارقات بأن هؤلاء الذين ليس لديهم صلاحية حتى ضمن الظروف الاعتيادية وليسوا متخصصين في الأمر يجعلون أنفسهم مشرعين، وسلبوا هذا عن القرآن في آياته والنبي في أحاديثه وقد خاطب الناس بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[1].

ثم ترقوا خطوة فجعلوا أنفسهم أكثر فهما من ربهم الذي قرر قوانين دائمة وباقية، ناظرا فيها إلى ما يصلح عباده، وجعلوه تعالى الله عما يصفون غافلاً في رأيهم عن أن الظروف ستتغير وستتبدل المجتمعات وانهم يحتاجون إلى قوانين أخرى، وقد ظنوا ان الله تعالى نسي فقد توجه إلى العرب في الزمان الاول ونسي المجتمعات الأخرى وتغيرها بعد مدة من الزمان ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[2].

وإذا كانوا قد ميعوا القرآن بهذا التدرج بالكامل ثم حيدوا الشريعة عن حياة الناس السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل وحتى العبادية، فهم بالنسبة إلى الحديث النبوي وسنة الرسول لا يشترونها بمثقال ذرة، فلا تستطيع حينئذ أن تستدل

(١) الحشر.٧ /

(٢) مريم.٦٤ /

عليهم بأن (حلال محمد هو حلال الى يوم القيامة، وأن حرامه هو حرام إلى يوم القيامة)[١]، وهذا من الاحاديث التي اجمع عليها الفريقان وهم مدرسة الخلفاء ومدرسة أهل البيت ﷺ، وهو بالاضافة إلى ذلك مقتضى الخاتمية في رسالته ونبوته. فما كان قد وضعه رسول الله ﷺ وبلغه على أساس الدوام فهو دائم وما كان دون ذلك من احكام ولائية مؤقتة فإنه يشار إلى انها مؤقتة بحسب زمانها ومكانها، وإلا فإن الأصل في التشريع هو دوامه واستمراره لأن التشريع ناظر إلى تكامل الإنسان، فصلاة الإنسان تصنع تكاملاً له سواء في القرن الأول أو في القرن العشرين.

فهؤلاء الحداثيون تدرجوا، اولاً قاموا بتغيير مفهوم الوحي والقرآن الكريم النازل من الله عز وجل بواسطة جبرئيل وبعد ذلك قالوا أن القرآن بما انه كلام البشر فهو مرهون بظروف تاريخية زماناً ومكاناً وبيئة معينة، وينتهي هذا كله عندهم إلى ان أحكام الدين الإسلامي في يومنا هذا ليست واجبة الإتباع وإنما نستطيع أن نقرر بأنفسنا قرارات وقوانين في العبادات والمعاملات.

في مقابل هذا التمييع لقضية القرآن في تيار الحداثة الموجود في عالمنا العربي والإسلامي فقد كان هناك تعظيم وتكريم للقرآن من قبل القرآن نفسه ومن قبل أئمة الدين والهدى، من هذا وأمثاله نفهم لماذا كان التأكيد على تعظيمه وصيانته كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾، سواء كانت بمعنى أنه لا يعرف أعماقه إلا المطهرون الذين أذهب الله عنهم الرجس وهم أهل البيت، أو جاء بمعنى انه لا يجوز لمس حروفه إلا والإنسان على طهارة، فكلا المعنيان يفيدان

(١) في الكافي ١/ ٥٨ لثقة الاسلام الكليني بسند عن زرارة قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن الحلال والحرام فقال: حلال محمد حلال أبدا إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبدا إلى يوم القيامة، لا يكون غيره ولا يجئ غيره، وقال: قال علي ﷺ: ما أحد ابتدع بدعة إلا ترك بها سنة. .وفي سنن ابن ماجة) ٩ / ١ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ.

تعظيم القرآن الكريم فهو كلام الله عز وجل وكل ما لله من عظمة فهو له، وهو ليس نصاً ولا كلاماً بشرياً، إن مجرد النظر للقرآن هو عبادة من العبادات، وتلاوته فيها ذلك الفضل العظيم الذي يأتي الاشارة إليه وقد كان النبي ﷺ لا يأخذ القرآن بيساره ولماذا يستحب للإنسان أن لا يقرأ القرآن إلا وهو على وضوء..

ولماذا كان بعض العلماء يحتاط إذا جلس أن لا يمد رجله أمام الكتب لأنها قد تكون تحتوي على بعض الآيات القرآنية، وذلك حتى يعلم الناس مقدار العناية والاحترام الذي لابد أن يلاحظوه في القرآن الكريم

قرآنيون ضد القرآن

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾[1]

نشأة (القرآنيون)[2] والفكرة التي تبنوها.

مُختصر فكرة هؤلاء هو أنّهم يستغنون عن سنّة رسول الله صَلى الله عليّه وآله وأحاديثه ويكتفون بالاعتماد على القرآن الكريم فقط لا غير، و نظراً لأن هذا التيّار نشأ في أجواء مدْرَسة الخُلفاء فمن باب أولى عندهم أن لا يعتمدوا على أحاديث أهل البيت عليهم السلام.

كان في الهند رجلٌ يقال له (أحمد خان) وتلقى التعليم الحديث منذُ أن كانت الهند تحت الاستعمار البريطاني، فأخذ علومه العالية في مدارسه. بعد ذلك، رأى أن قسماً كبيراً مما راجعه من أحاديث كتب الصحاح في مدرسة الخُلفاء يتعارض تعارضاً كبيراً مع الحقائق العلمية ومع الأحكام العقلية. فقال بأنّ هذه الأحاديث

(١) النساء، الأية ٨٠.

(٢) على الحكاية وهي إيراد اللَّفظ المسموع من غير تغيير في حركاته الاعرابية حتى وإن تغير موضعه.

من سُنّة رسول الله ﷺ ورواياته غيرُ صالحة للأمة لأنها مُخالِفة للعقل، فبدلا من رفض الدين وأحكامه، نعتمد القرآن فهو كتاب الله عزّ وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونحذف السنّة النبويّة والأحاديث الواصلة والموجودة في الكتب من تداول الناس، فلا نحتاج إلى هذه الأحاديث وهذه الروايات، لماذا لا نحتاج؟ قال: لأنّ في القرآن الكريم كل شيء كقوله تعالى ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾(١)، وقوله عزّ وجل ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(٢).

كان للخوارج كلماتٌ مُشابهة لأقوال الفئة التي لا تعتمد على السنة النبوية في زمانْ أمير المؤمنين عليه السلام. والعجيب وجود رواية تنسب للنبي في مصادر مدرسة الخُلفاء (أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ. وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ)(٣) عليهم السلام.

بداية تبَلور النظريّة الحقيقية (للقرآنيون)

بدأتْ من الهند وانتقلت إلى باكستان، ثم مصر، وتركيا. وهناك خشية من اقتحامها الدائرة الشيعية ضمن أفكار من نحو أنه لا يُهمنا ما يقوله الفقيه الفلاني، أو الرواية الكذائية، بل يهمنا ما يقوله القرآن الكريم فحسب. أو أنه إذا كان الحكم موجوداً في القرآن فهو ملزم لي وإذا لم يكن فلا يلزمني في شيء.

إذن، كانت البداية هكذا في الهند كفكرة ثم تبلور في صورة اجتماعية بواسطة أحد رجاله واسمه (عبدالله جكرالوي) في باكستان الذي أسس جمعية باسم (أهل

(١) الأنعام / ٣٨.
(٢) النحل / ٨٩.
(٣) سنن ابن ماجة ١ / ٩.

القرآن) في باكستان في سنة ١٩٠٢ ميلادي،. فتحدث هذا معبرا عن أفكارهم: قرأت القرآن الكريم ووجدت في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا موسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ (١) أيّ أنّه كانت جماعة من بني اسرائيل قد آذت نبي الله موسى عليه السلام وكانوا يقولون عنه كلاماً غيرُ طيب فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً. واعتماداً على التفسير الوارد في بعض صحاح مدرسة الخُلفاء(٢)، ورَدَ أنّ بنو إسرائيل قالوا: إنّ نبي الله موسى عليه السلام آدر، والآدر تأتي بمعنى الشخص الذي يتصف بوجود تشوّه في أعضائه التناسلية و يكون ذلك في البيضتين على وجه الخُصوص، فقالوا ذلك اعتماداً على استتاره وقالوا بأنّه: يُبالغ في الاستتار وعلى الرّغم من أنّ الاستتار هو من صفات المؤمنين! إلا أنهم قالوا بما إنه يبالغ في الاستتار، فذلك يعني أنه يُعاني من عيبٍ في أعضائه فكانوا يؤذونه بهذا الكلام، وكان هذا بحَسب بعض مصادر مدرسة الخلفاء.

هذا الرجل (جكرالوي) قال ذات يوم كنت أطالع التفسير فمررت بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾(٣)، وقد ذكر القرآن تفصيل هذا الإيذاء من عناد بني إسرائيل لموسى عليه السلام وطلبهم ما لا يحتاجون إليه... غير أني وجدت في تفسير هذه الآية حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري والترمذي من اتهام بني إسرائيل موسى بالبرص، وفرار

(١) الاحزاب / ٦٩.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٤٥٨ فيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلى بعض وكان موسى يغتسل وحده فقالوا: واللّه ما يمنع موسى أن يغتسل معنا إلا أنه آدر. فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه فجمع موسى في أثره يقول: ثوبي يا حجر ثوبي يا حجر حتى نظرت بنو إسرائيل إلى موسى عليه السلام وقالوا: والله ما بموسى من بأس وأخذ ثوبه فطفق بالحجر ضربًا». قال أبو هريرة: واللّه إنه لندب بالحجر ستة أو سبعة ضربًا بالحجر.

(٣) الأحزاب/ ٦٩.

الحجر بثيابه، وضرب موسى الحجر بعصاه، فارتعدت فرائصي، واستغرقني التفكير، وتوالت عليَّ الشبهات واحدة تلو الأخرى».

ورأى (جكرالوي) أنّ أمثال هذه الرواية لا يُمكن أنْ تُقبل وللأسف فإن مثلها كثير في كتب الحديث !. وفي رأيه أيضاً: أنّ نهضة المسلمين وتديّنهم يكون بجعلهم يتمسكون بالقرآن فقط، وبعيداً عن السّنة والروايات المُخالفة للعقل والعلم لأنّ القرآن الكريم يوجد به جميع ما نريد ولا نحتاج للسنة أصلاً.

مع وصول الفكرة إلى مصر بعد الستينات الميلادية، وتبنيها من قبل بعض المفكرين والكتاب، زادت دائرة التنظير لها وكل ذلك كان في إطار مدرسة الخلفاء واشتد نقدهم خصوصا لصحيحي البخاري ومسلم، وكتبوا ونشروا في أن الله تكفل بحفظ القرآن ولم يتكفل بحفظ السنة. بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك، فأشاروا إلى فكرة تشكك في عصمة النبي محمد، وأنه بشر كسائر الناس بينما القرآن وحده هو المعصوم والمحفوظ.

واحتجوا على المؤسسة الدينية في مصر حيث هاجمتهم بالقول أنهم لم يأتوا بشيء جديد من عندهم، فكل ما هو عندهم موجود في الصحاح، ففيها نهي النبي عن كتابة سنته وأحاديثه والاحتفاظ بها. وأمره بأن يجردوا القرآن وأن يمحى ما كتب له من تفسير !! وهذا رأيٌ معروف في مدرسة الخلفاء ولذلك منع الخلفاء من تدوين الحديث وهذا مسجل في كتب الصحاح وكتب التاريخ.

وأكثر من ذلك، فإنّ السيرة الرسمية للخلافة باستثناء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام والتي سنتناولها فيما بعد، فإن السيرة الرّسميّة للخلفاء من بعد رسول الله صَلى الله عليّه وآله إلى زمان الخليفة الأموي عمر بن عبدالعزيز أي حوالي سنة ٩٩هـ، كانت السيرة الرّسمية تنُص بمنع كتابة سيرة الرسول صَلى الله عليّه وآله وسُننه. جاء

القرآنيون وقالوا: بأنّه لو كانت السنة يجب أن يُعتمَد عليها والعمل بها لما نهى عن تدوينها النبي صَلى الله عليّه وآله على حد قولكم من نهي النبي والخلفاء، إذ كانت السنوات إلى ما قبل المائة تنص على ذلك أيضاً، فنحنُ رجعنا إلى ذلك المصدَر. فهذه كانت كلماتهم عن تدوين الأحاديث والسنة النبوية.

هل يوجد (قرآنيون) في الشيعة الامامية؟

ينبغي أن نشير إلى أن هناك أفكارا تنتشر وتلتقي في بعض نتائجها مع ما يذهب إليه القرآنيون، وتستفيد هذه الأفكار في استقطاب أنصار جدد من الثقة المفرطة التي تعطيها لمن تستهدفهم.. فيأتي أتباع هذا التيار ويقول لك.. لماذا تعتمد على رأي فلان أو غيره من الفقهاء، والحال أن القرآن بين يديك، وتستطيع فهمه والاعتماد عليه؟ إنه ليس أولى منك بفهم الدين ! لديه عقل ولديك عقل ! وأنت تستطيع مباشرة أن تتأمل في القرآن وتقرر الموقف المطلوب.

ولكن نناقش هؤلاء في الدائرة الامامية الشيعية بالقول: أن جذور نشأة القرآنيين راجعة إلى ما حصل من التناقض عندهم بين كون الصحاح (سنة قطعية ثابتة، وأن صحيح البخاري هو أصدق كتاب بعد القرآن..) وبين كون رواياته مخالفة للعقل أو العلم أو متخالفة فيما بينها.

وهذا التناقض غير موجود لدى الامامية لعدم اعتمادهم على صحيح البخاري وأمثاله من جهة، وعدم وجود كتاب (صحيح تماما) عندهم، وإنما هم يخضعون الروايات لموازين النقد، فإذا لم تتجاوزها لم يأخذوا بها ولم يعتمدوها ! فمن الناحية النظرية لا يوجد مبرر أصلا لنشأة القرآنيين في الوسط الشيعي.

ليس لدى الشيعة تلك القيمة النهائية لكتب الحديث كالكافي والتهذيب

والاستبصار ومن لا يحضره الفقيه، بخلاف المدرسة الأخرى حيث يقولون بأنّه في حال وجود الرواية في كتاب البخاري فإنها ملزمة لنا لأن كل ما في هذا الكتاب صحيح وقيمته تُعد كقيمة القرآن الكريم ولا مجال فيه لرد الرواية تلك.

إن المشكلة التي تواجه أتباع مدرسة الخلفاء لا تواجه اتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، فبإمكان الشخص أن يتخصص في دراسة العلوم التي ترتبط بالأحاديث وتحقيقها، ويقوم بمناقشة أي رواية في أي كتاب من الكتب، ويستطيع التوصل إلى نتائج فيها من دون أن يكون أمامه خطوط حمراء سابقة.. فإذا كانت الرواية فيها إشكال سندي فليس مجبورا على الأخذ بها، وهكذا لو كانت في دلالتها مخالفة للعقل أو للعلم أو للأصول الثابتة فكذلك.

وكذلك فإنه في مقابل ما ورد من روايات النهي عن الاحتفاظ بالسنة وكتابتها وتجريد القرآن منها، في مصادر مدرسة الخلفاء، فإن العكس هنا موجود إذ أن النبي قد أوصى بالقرآن وبسنته وبعترته الحاملة لسنته وعلومه وأخبر أن القرآن لا ينفك عنها وأنهما متلازمان حتى يوم القيامة)[1] وإن الذي جاء ب (ما فرطنا في الكتاب من شي) و(تبيانا لكل شيء) هو نفسه الذي جاء ب (وعترتي أهل بيتي).

لذلك نتحدث مع بعض الإمامية ممن قد يتأثر بهذا التيار، أنّه إذا كان للطرف الآخر مُبررٌ (صوري) لسلوك ذلك الطريق وهو مبررٌ نسبي و إلا فإن التيار خاطئ، فأنت أيها الأمامي لا يوجد لديك أي نسبة من التبرير.

وإذا كان التدوين الحقيقي للسنة في مدرسة الخلفاء لم يبدأ إلا في عهد مالك بن أنس وهو المتوفى سنة ١٧٩هـ وكانت بداية الفكرة في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز الأموي (ت ١٠١ هـ) فهذا الكلام بعيد عن الإماميّة تمام البعد، فهم

(١) حتى يردا على الحوض.

يرفضون تمام الرفض القول المزعوم عن النبي صَلى الله عليّه وآله أنه نهى عن كتابة السنة، بل بالعكس لدَينا روايات عن رسول الله ﷺ عن طريق أهل البيت عليهم السلام حول ضرورة تدوين العلم وكذلك عن أهل البيت عليهم السلام. فراجعوا (الكافي) تجدون لديه بابا كاملا في تدوين العلم وهكذا باقي كتبهم الحديثية وأنّه ينبغي كتابة العلم و أنكم ستحتاجون إليها. و قد مارس الأئمة والمعصومون عليهم السلام الكتابة فعلاً، فلدينا كتاب (علي بن أبي طالب) ومصحف فاطمة [1]، والجامعة وغيرها من الكتب التي دونت في تلك الفترة، ووردت في حديث عن الامام الصادق وفي بعضها أنه إملاء رسول الله وكتابة علي وفيه حتى أرشَ الخدش أي (الجرح).

إنه ليس من الصحيح أن تترك السنة وهي المبينة للقرآن والشارحة له لأجل أن كتابا أو كتابين قد نقلا أحاديث غير صحيحة، أو أن نلغيها لأن بعض أحاديثها لا يقبلها العقل، إن هذا مثل أن يكون بعض الأطباء في بلد مزيفين وأن شهاداتهم ليست حقيقية، فيقوم المريض بترك العلاج نهائيا وعدم مراجعة الطبيب والأطباء.. حتى يموت أو يشتد مرضه. أو أن يكون بعض التجار غشاشين فنترك الذهاب للسوق والشراء.. وهو غير صحيح.. إنما الذي يحكم به العقل هنا هو مزيد من التحقيق والتدقيق والتفتيش عن الطبيب الحاذق الصادق، والتاجر الثقة والتعامل معهما والاستفادة منهما.

اصطدام القرآنيين بمفاد القرآن

المأزق الأول: سيتورط أتباع هذا التيار مع القرآن ويصطدمون به خاصّةً عند وقوفهم عند الآيات التي تنص على طاعة الله تعالى ورسوله واتباعه وعدم

(١) ذكرنا تفصيل القول في مصحف فاطمة وما فيه من العلوم في موضع آخر.

الانفصال بين طاعة الله وطاعة نبيه.. فماذا تعني لنا طاعة النبي في هذا غير اتباع سنته وما قرر من أحكام؟ أو أن هذه الآية وأمثالها وهي كثيرة قرنت بين الطاعتين هي خاصة بمن كان في زمانه ولا تشملنا بل ولا تشمل من كان بعد سنة ١١ هـ حيث توفي صلوات الله عليه؟

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[١] مفادها أن من لم يطعه لم يطع الله ! فما هي وجوه طاعتنا للرسول في زماننا هذا لو لم نتابع أوامره وسنته وأقواله؟ وهل يلتزم أحد منهم بأن هذه الآيات وأمثالها ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[٢] معطلة من بعد وفاته إلى زماننا أو إلى يوم القيامة؟ إن الذي يقول أنّ طاعة الرسول مستمرة عن طريق أوامره المباشرة في حياته والأحكام التي خلّفها بعده جاءت لنا بطريقٍ معتبر ويعتبر طاعة للرسول صَلى الله عليه وآله، فهم سيتورطون بها أيضاً لو لم يتبعوها.

المأزق الثاني: فيما يرتبط بالعبادات فكيف يستطيع هؤلاء أن يعبدوا ربهم، ويقيموا شرائعه، والحال أن تفاصيلها لم يأت بها القرآن وإنما تكفلت بها السنة. فالصلاة في أعداد ركعاتها، وكيفيات أفعالها، وشرائط صحتها، لم يأت بها القرآن في أكثرها، وهكذا في كيفية الحج وأحكامه ومسائل نسكه.. لا طريق لها غير السنة النبوية.

لا يقال: بأن الله تعالى قال عن القرآن الكريم ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[٣] فبالاضافة إلى ما سيجيء من البحث حولها، نقول إن هذه الآية مشروطةٌ في رأي الإماميّة بـ(عترَتي) وهم الأئمة عليهم السلام والعارفين بذلك، وبسنة النبي الثابتة عنه. وإلا

(١) النساء.٨٠ /

(٢) آل عمران.٣١ /

(٣) هناك موضوع آخر حول هذه الآية وأشباهها وما هو المقصود منها.

فإن الوجدان يخالفها إذ لم يأت في القرآن مثلا عدد الركعات في الصلوات فضلا عن سائر المسائل من واجبات وشروط.

ماذا صنع القرآنيون في هذا؟

اتخذ بعضهم إحدى الطريقتين، الطريقة الأولى: قالوا بأنّ الصلاة هي أحد طرق الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى كأنْ يقف ويتفكر في الله تعالى فهذا يعد صلاة، فالصلاة هي عبارة عن الصلة، والتفكر اتصال وصلة.. ولأن الكيفية غير محددة فيكفي أي نحو من الأنحاء، فالوقوف والايماء صلاة، والركوع والسجود صلاة، والتأمل صلاة.

والحج يعتبرونه طوافا فقط بالبيت العتيق وبالصفا والمروة ولا يوجد له عددٌ محدد ولا كيفيّة محددة كأن يبدأ من اليمين إلى اليسار أو العكس من ذلك، أو أن يبدأ من الحجر الأسود أو غيره، أو أن يكون شوطاً كاملاً أم ثلاث أرباع الشوط، أو نصف شوط، فهذا كله غيرُ محدد لديهم بل يقولون إن آية ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم﴾[1] هي في نظرهم معينة لمعنى الطواف وهو التردد، فيكفي التردد على الحرم فحسب و أنّ ذلك يعتبر طوافاً كأنْ يذهبوا من الحرم إلى البيت ومن البيت إلى الحرم فهذا في نظرهم يُعتبر طوافاً، أو أن يذهبوا فيجلسوا في الحرم فهذا يعتبر طوافاً، أو أن يكونوا في حالة الدوران حول الكعبة سيعتبر لديهم طوافاً.

قسم من القرآنيين رأى أن الالتزام بما سبق في العبادات هو شنيع للغاية، ذلك لأنه يؤدي إلى ضياع العبادات الأساسية من الدين فماذا يبقى إذا انتفت كيفية الصلاة، وطريقة الحج، وأعداد الزكاة ومقاديرها (حيث لا يوجد ذلك في القرآن)

(١) النور / ٥٨.

فماذا يبقى من الدين؟ فحاولوا الترقيع هنا بالقول إن العبادات وصلت إليهم عن طريق التواتر من مرحلة إلى أخرى أيّ أنّ الناس رأوا صلاة رسول الله ﷺ فنقلوها ووصلت إلينا، وحجوا مع النبي ونقلوا كيفية حجه فوصل لنا بالتواتر.. ولذلك فإننا نصلي ونحج ونزكي بحسب ما هو معروف بين المسلمين.

وهذا الجواب منهم غير نافع:

أولا: لأنه كرّ على ما فروا منه. فهم بدؤا من رفض السنة واضطروا للرجوع إليها، ولو بالاستعانة بالتواتر. وكان الصحيح أن ينبههم هذا على خطأ مسلكهم فإن النتيجة الخاطئة ينبغي أن تنبه إلى خطأ المقدمة والبداية. وكان عليهم أن يعملوا كما عمل المحققون من علماء الامامية من عدم قبول (كل) الروايات وإنما تحقيقها وتمحيصها واستخراج الصحيح منها ونبذ غير الصحيح، لا أن نترك كل السنة المروية حتى الصحيح منها !

وثانيا: فإن التواتر لو تحقق في أصل وكيفية هذه العبادات فما هو العمل في غيرها؟ مثل الشروط والمسائل التفصيلية؟ مسائل الشك، النسيان، خطأ في الغسل، خطأ في الوضوء؟ لا سيما مع اختلاف النقل في المدرسة الواحدة عن النبي فضلا عن المدرستين؟ فالناظر يرى اختلاف فقهاء المذاهب الأربعة في هذه المسائل عند اول نظرة لكتب الفقه ! فماذا يصنع القرآنيون؟

وماذا يصنعون في المسائل المستحدثة؟

وإذا أتيت لباب المعاملات تجد خللاً كثيرا، فعلى سبيل المثال: عدد المُحرمات في الشريعة يتحدث عنه العلماء في مجلدات[1] معتمدين فيها على الروايات، فإذا

(١) (فقه المحرمات للمرحوم الإمام الشيرازي: مجلدٌ كامل من أجزاء موسوعة الفقه، وهناك كتاب

استخدمنا مسلك القرآنيين بالاعتماد على القرآن فقط سننتهي إلى أربعة محرمات مثلا في قوله تعالى ﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[1] فهذه هي أربعة أشياءِ محرمة ذُكرت في القرآن الكريم وما عدا ذلك فلا بأس به إن أردوا أنْ يأكلوا كلاباً مثلاً، أو قططا او أسُوداً أو نموراً فلهم ما يشاؤون من دابة الأرض وحشرات وزواحف، لماذا؟ لأن الموجود في القرآن من المحرمات هو أربعة أشياء فقط ولا يوجد غيرها مُحرّم على طاعم يطعمه! فهذا جانب.

وفي العلاقات الأسرية: بالنّسبة للمحارم: من المَعروف أن الخال والخالة هم من المحارم بالنّسبة إلى بنت الأخ أيّ أنّ الخال يستطيع النظر إلى ابنة اخته بلا حجاب وعلى العكس من ذلك، كذلك بالنّسبة إلى الخالة والعمّة إذ يستطيع ابن الاخ والاخت النظر إليهم بلا حجاب، لكنّ القرآنيين قالوا: بأنّه لم يوجد في القرآن الكريم بما يخص ذلك وإنما وُجدت آية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ ولم يُذكر خالاتكم، أخوالكم، عماتكم وأعمامكم، فهم في نظرهم ليسوا من المحارم فيجب أن تتحجب الخالة والعمة عن أبناء الأخ و بنات الأخت، وكذلك تتحجب البنت عن خالها وعمها لأنّهم أجانب عنها.

وفي الميراث يورثون الكافر من المسلم نظرا لأن عدم التوريث إنما جاء من جهة السنة، ويستندون إلى اطلاق قوله تعالى ﴿يوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ فلديهم أنّ الابن يرث أباه و إن كان كافراً على الرّغم من الروايات الواردة واجماع العلماء على أنّ الابن الكافر لا يرث من المسلم، لكنّهم قالوا بأنّ القرآن

(حدود الشريعة المحرمات في مجلد كبير) للشيخ آصف محسني من أفغانستان يحتوي على ذكر المحرمات مع أدلتها التفصيلية من القرآن والروايات.

(١) الأنعام.١٤٥ /

الكريم بيّن في الآية ﴿يوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ على أنّ الابن يرث ولم يُحدد إنْ كان كافراً أو مسلما.

والأمثلة من ذلك كثيرةٌ جداً كالزنا والعياذ بالله، إذ يقولون بأنّه: لا يوجد تفصيل فيما إن كان محصناً أو غير محصن لأنّ هذا شاب وشهوته ثائرةٌ عنيفة و شديدة وفي حال قيامه بعملية الزنا فإنّه يُجلد بإجماع المسلمين وبالقرآن الكريم. لكنّ الاجماع القائم بين المسلمين والروايات على رجم المُحصن وقد يكون ذلك لأنّ زوجته بجانبه وبقربه ويستطيع أن يقضي شهوته متى شاء لأنها في متناول يديه، ففي حال تركها والذهاب إلى غيرها فذلك يُعتبر عدوانا على أحكام الله تعالى وحدوده وقد حصل هذا الرجم في زمان المعصومين ﷺ، لكنّ القرآنيين يقولون بأنّه: لا يكون ذلك لأن القرآن يقول﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا﴾[1]، ولم يفرق بين المحصن وغيره.

(١) النور / ٢

القرآن وجوب التعلم واستحباب التلاوة والحفظ

عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عن آبائه عن رسول الله ﷺ قال (فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحل مصدق ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار وهو الدليل يدل على خير سبيل وهو كتاب فيه تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل وله ظهر وبطن فظاهره حكم وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم[1] لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه)[2].

(١) يقصد به :آيات تدل على أحكام الله يهتدى بها وفيه آيات تدل على هذه الآيات وتوضيحها وفي بعض نسخ الحديث (له تخوم وعلى تخومه تخوم) والتخوم: جمع تخم بمعنى منتهى الشيء.

(٢) الكافي ؛ الشيخ الكليني ٢ / ٥٩٨.

نتناول في هذه الأسطر مسؤولية الإنسان المؤمن تجاه القرآن الكريم، وقد بدأنا بهذه الرواية التي ذكرها الكليني في كتابه الكافي عن الإمام الصادق عن آبائه عن رسول الله.. ويلفت النظر أن الإمام الصادق عليه السلام قد عزا الحديث إلى رسول الله وكأنه راوٍ عنه، مع أن نعتقد أن حديث الأئمة كحديث رسول الله من حيث حجيته.

ولعل هذا راجع لأسباب منها: ان من ينقل له الإمام الحديث هو السكوني وهو ليس إماميا على المعروف عند الرجاليين، وبالتالي فهو لا ينظر إلى جعفر بن محمد كإمام له ما للرسول من حجية القول ولزوم الاتباع، وإنما ينظر إليه باعتبار أنه يروي عن رسول الله ما علمه من آبائه عن جدهم النبي.

وهناك جهة آخرى هي أنه ليؤكّد أنّ رسول الله قد ذكر هذه المضامين في حديثه لتزداد بذلك قوة في أذهان الناس.

وأما في تحليل دلالته.. فإن المجتمعات قد تمرّ بحالات وضوح في الرؤية بلا مشاكل، فلا يوجد فيها اختلافات عقائدية، ولا توجد أسئلة حرجة، وبمعنى آخر لا توجد فيها فتن، وقد يحصل اختلاط في المفاهيم وتكون هناك تيارات متعدّدة فعلى رأس كل قارعة طريق تجد داعية وعلمًا وراية وفكرة، وكل فكرة تعارض الأخرى، فيختلط الأمر في الساحة الثقافية والعلمية وهذا ما يعبّر عنه بالفتنة.

الفتنة الفكرية الدينية من أشدّ الفتن حيث نرى اختلاط المفاهيم، وعدم وضوح الحق من الضلال لذا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله (إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم..)

هنا يقول إنّ الإنسان إذا مشى في الصحراء أو في القرى في جوف الليل أو في الليالي غير المقمرة فإنّه يرى الظلام وكأنّه قطعة تركب قطعة أخرى، ظلمات بعضها فوق بعض فإذا كان هذا الحال يقول رسول الله صلى الله عليه وآله عليكم بالقرآن الكريم إذ أنّ

فيه القابلية على تشخيص الخطوط السليمة والاخرى المنحرفة، لوجود المقاييس والقواعد، ثم يقول (فهو شافع مشفّع) لنفترض أنّ لك حاجة عند أحدهم وأنت لا تستطيع تحصيلها إما لكبرها أو لأنّك لا تعرف هذا الشخص الذي تطلب منه، فتطلب من آخر وهو الشفيع لكي يطلبها منه فإن نال كلامه وطلبه القبول فهو شفيع مشفّع، وإن لم ينل القبول وكان كلامه غير مؤثر فهو شافع ولكن غير مشفّع.

هنا يقول رسول الله ﷺ عن القرآن بأنّه شافع مشفّع.

ثم يقول (ماحل مصدّق) الماحل الساعي بشيء غير حسن عن الشخص، أشبه بالجاسوس الذي ينقل عنك. لنفترض أنّ شخصًا لديه سلطة وقوة وأحدهم جاء واشتكى عليك عنده وقال هذا الرجل يسبّك أو يتآمر عليك، فهذا الرجل ماحل بك سعى وأخبر السلطان عن أحدهم بسوء، فقد يصدّقه مباشرة فهذا هو الماحل المصدق، أو قد يطلب منه التريّث حتى يتحقّق من الأمر.

هنا يقول أنّ القرآن بأنّه الشفيع الذي لو نقل عنك لله عزّ وجل خبرا حسنا من اهتمامك بكتاب الله لكان لك شافعًا لا تردّ شفاعته ويقبل قوله الإيجابي في حقك، وإن قال عنك القرآن أنّ هذا الرجل هجرني وأهملني و خالفني ولم يعمل بأوامري، وكأنّ القرآن سعى عليك عند ربك فهو ماحل، والماحل هنا يصدّق عليك وليس هناك حاجة للتحقّق ممّا يقول، إذن القرآن شافع مشفّع في الجانب الإيجابي، وماحل مصدّق في الجانب السلبي.

(من جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار).

من جعله أمامه واتّبعه فهو له كالسراج الذي يضيء له الطريق، ومن جعله خلفه واتخّذه ظهريًا ولم يكترث به ولم يحترمه ساقه إلى النار، من استفاد منه قاده إلى الجنة لكنّ من خالفه ساقه إلى النار.

التعبير ب (قاد) و(ساق) فيه بلاغة واضحة حيث أنّ (قاد) فيها معنى الاختيار واللطف والارتياح، بينما (ساق) من السوق و فيه شدة وعدم اختيار وعدم ارتياح.

(هو الدليل إلى خير سبيل لا تحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه).

عند دراستنا للكتب الدراسية ككتاب العلوم في المرحلة الابتدائية وبعد فهمنا لمحتواه فإنّنا لا نرجع إليه ولسنا بحاجة إليه حيث ننتقل إلى مراحل أخرى ونحتاج كتبا أعلى، على عكس القرآن الكريم فنحن في كل مرة نقرأه يفتح لنا آفاقًا من العلم والمعرفة، لأنّه ليس كلام البشر بل هو كلام الله، له ظهر وبطن ولبطنه بطن، ولبطن بطنه بطن.

في بعض نسخ الرواية (له تخوم وعلى تخومه تخوم).

النجوم بمعنى النهايات وعلى النهايات نهايات، لذا ترى الإنسان العادي يقرأ القرآن ويفهم ظاهره ويأتي آخر أكثر علمًا فيستفيد منه أكثر، ثم يأتي عالم التفسير ويستفيد منه، ويأتي الفقيه ويستفيد بشكل آخر، وهكذا

هذا الحديث عن القرآن إنّما هو مقدمة للعلاقة بيننا وبين القرآن الكريم، كيف يجب أن تكون في مختلف أنحاء الحياة؟

أولًا: وجوب تعلّم القرآن للعبادة

من واجبات الصلاة قراءة القرآن، فلا بدّ من قراءة سورة الفاتحة وشيء من القرآن ولا بدّ أن يكون سورة كاملة على رأي الإمامية بخلاف المذاهب الأخرى التي ترى أنّه يجوز الاكتفاء بقراءة ما تيسّر من الآيات، ولسنا بصدد الحديث عن هذا الاختلاف، فإذا كانت الصلاة لا تصحّ إلا بالفاتحة والسورة الكاملة فيجب أن تكون

القراءة بالشكل الصحيح وبدون أخطاء، وهي مقدّمة لصحة الصلاة إذ أنّها عمود الدين، ولا صلاة إلا بفاتحة الكتاب، فإذا حصل تقصير في تعلّم الفاتحة وتعلّم السورة فلا يستطيع أن يجعل صلاته صحيحة، ولو قرأها متعمّدًا بنحو غير صحيح فذلك مبطل للصلاة، بل يؤثّر أيضًا في صحة العبادات الأخرى كالحج والعمرة وذلك في صلاة الطواف حيث أنها جزء من الطواف[1].

لله الحمد فإن الكثير لا يعاني من هذه المشكلة، فبالاضافة إلى أن بعض بلادنا المسلمة قد خصّصت حصصًا دراسية لتعلّم القرآن. وكذلك فإن الدورات القرآنية منتشرة بكثرة كدورات التلاوة والحفظ وتحسين التلاوة وملاحظة الأخطاء، ودورات التفسير والتدبّر والمقامات.

كما أنّ اللجان والمؤسسات القرآنية قد انتشرت بشكل ملحوظ والجهود المبذولة في سبيل تطويرها و دعمها مستمرة.

كما نرى بحمد الله الجلسات القرآنية للتلاوة في كل مكان وتبثّ من شاشات التلفاز من القنوات الدينية لأتباع أهل البيت التي تعتبر أدوات إعلامية فاعلة ضد أولئك الجهلة الذين لا يزالون يدّعون أنّ للشيعة قرآنًا مختلفًا وأن قرآنهم محرّف، ها هم يسمعون هذه التلاوات بأصوات عذبة وتلاوة بديعه وباجتماع رائع في المساجد والمشاهد.

إن البث الإعلامي له دور أعظم من عشرات الكتب والمحاضرات لأنّه يصل إلى عامة الناس بسهولة، وفي مناطق لا يصل إليها الكتاب. ومن الجميل أن نحثّ أبناءنا على متابعة هذه التلاوات في التلفاز والاستماع إليها حتى يرسخ القرآن في أذهانهم مع السماع والمشاهدة. وإن بث هذه الختمات القرآنية يعتبر من أفضل البرامج لما

(١) بمفاد رواية) فإن في الطواف صلاة) .

له من دور في تبصير الناس بكذب ما يدعى من وجود قرآن غير هذا لدى أتباع أهل البيت، ويكذب افتراءات البعض بأن الشيعة لديهم تحريف في الكتاب. بالاضافة إلى مساهمة ذلك في تصحيح تلاوة المستمعين.

وإن قصّر الإنسان في تعلّم الفاتحة والسور في أول العمر فليبادر إلى تحسين قراءته والسعي إلى إصلاح صلاته إذ أنّها عمود الدين.

ثانيًا: استحباب تلاوة القرآن من أوله لآخره

التلاوة تختلف عن المطالعة والنظر إلى المصحف، إذ أنّ النظر للمصحف مستحب في ذاته والنظر إلى حروف القرآن كذلك، ولكنّ التلاوة تكون عندما يترافق النظر مع تحريك اللسان والشفتين بالقراءة إما مع صوت ظاهر أو صوت خفي بحيث لو قرّبت مكبّرًا للصوت لخرج صوتك، لكن لو نظر أحدهم للقرآن بدون أن يحرّك لسانه وشفتيه فلا تعتبر من التلاوة.

التلاوة عبارة عن تلفّظ للحروف وتحريك اللسان والشفتين بمخارج الحروف، وقد أوصى رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام بقوله (عليك بتلاوة القرآن وذكر الله، فإنّ ذلك لك نور في السموات ونور في الأرض).

ملاحظات مهمة بالنسبة للتلاوة

٩. بعض الفتاوى لم تفهم على حقيقتها، لدى بعض الناس فكان لذلك أثر في التقليل من التلاوة والامتناع عنها، فقد قالوا إنّ الذي يقرأ القرآن في نهار شهر رمضان بشكل ملحون فإنّ هذا مبطل لصيامه ؛ لأنّه من الكذب على الله وعلى الرسول فمن الأفضل حتى لا يخسر صيامه أن يترك تلاوة القرآن الكريم.

هذا فهم غير صحيح للفتوى، فلا ريب أن المطلوب هو قراءة القرآن الكريم وفق قواعد اللغة العربية وينبغي للمؤمن السعي لتعلّم القراءة الصحيحة للقرآن.. ولكن لو لم يتيسر له لسبب من الأسباب ذلك، فلا ينبغي أن يترك تلاوة القرآن.. نعم ينبغي أن لا يجعل في ذهنه أن هذا المغلوط هو الوحي النازل على النبي وإنما يعتبر أن ما يقرأه هو بحسب استطاعته وأنه لو أخطأ فالخطأ من عنده. لأنه لو نوى أن هذا الخطأ هو النازل من السماء لكان ذلك كذبا على الله. بالطبع هذا لا يحصل عادة من الناس وإنما في ذهنه أنه لو أخطأ فالخطأ منه لا أنه ينوي أنه هذا الخطأ هو النازل من السماء.. وما يحصل من تخويف من قبل البعض أن لا تقرأ إذا كنت ستخطئ في القراءة ليس له أصل واضح.. إننا مأمورون بـ (فاتقوا الله ما استطعتم) فليكن الاستحباب المؤكد لقراءة القرآن في شهر رمضان دافعا لمن يخطئ في قراءته حتى يحسن القراءة ولو بمتابعة من يقرأ بصورة صحيحة، ونؤكد هنا على متابعة الختمات القرآنية التي تبثها القنوات الدينية وهي في تقديرنا أفضل برنامج تقوم به جزى الله القائمين عليها أحسن الجزاء.

لكن لو لم يتيسر ذلك أيضا.. لا تتوقفوا عن تلاوة القرآن وإن كان فيها بعض الأخطاء !! لكن ليكن ذلك بنية أنه لو حصل خطأ في القراءة فهو بسببي وإلا فالقرآن لا خطأ فيه.

١٠. قسم من الناس يقرأ القرآن كثيرًا ويختم ختمات متعددة في شهر رمضان، وقسم آخر ربّما لا يختم إلا ختمة واحدة، فيقال لمن يكثر الختمات: أنّه ليس من المهم أن تكثر من القراءة بل التدبر هو الأهم، فما فائدة كثرة القراءة دون تدبّر وتأمل؟؟

نقول بأنّ هذا الكلام خاطئ في طريقته وأسلوبه إذ أنّ كثرة القراءة فيها فائدة

وطريقة توجيه هذا الشخص الذي يكثر القراءة يجب أن تكون بطريقة أفضل، فيجب أن تقول له أنّ كثرة القراءة مفيدة ومهمة وبما أنّ الله قد أنعم عليه بالوقت ليقرأ القرآن فليحاول أيضًا أن يتأمّل ويتدبّر في الآيات حتى يكون الثواب أعظم والفائدة أكثر.

أما أن تنفي الفائدة من هذا العمل فهذا عمل خاطئ وهو للأسف ملاحظ هذه الأيام أنّ أحدهم يأتي وينهى آخر عن الصلاة بحجة أنّ صلاته لا تنفعه لأنّه يتعامل بالربا، ألا يعلم هذا الرجل الناهي له بأنّه معاقب على نهيه له وأنّه لو استمع لنصحه لكان آثما بنصيحته؟

كذلك الرجل الذي تنهاه عن كثرة التلاوة لعدم الفائدة ربما يطيعك ويتوقّف عن القراءة والتدبر فتكون مسؤولًا عن هذا التوقّف وتؤثم عليه.

نعم هناك روايات عن أمير المؤمنين (ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر)[١] ولكن ليس معنى ذلك أنّه لا فائدة منها، ولكن الكلام موجّه هنا لأولئك المجرمين والطواغيت الذين يضلّلون الناس بقراءة القرآن، ويتّخذونه سترًا لممارسة الفاحشة وهم يخالفون القرآن وهم من يصدق عليهم القول أنّه لا خير في قراءتهم، وفي الرواية عن رسول الله (رب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه).[٢]

من آثار التلاوة

١. نورانية القلب إذ أنّه كلام الله و فيه من العظمة والقوة والرحمة التي تدخل القلب فتهبه الطمأنينة و السكينة، قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٣]

(١) الكافي.٣٦ / ١
(٢) بحار الأنوار ٨٩ / ١٨٤.
(٣) الرعد.٢٨ /

فإذا كان ذكر الله يطمئن القلب فكيف بكلام الله الذي هو نور وتبيان وهدى، لذلك يستحب للإنسان كلما فرغ من القرآن أن يبدأ مرة أخرى، في رواية سئل الإمام السجاد ذات مرة: أي الأعمال أفضل؟ قال: الحال المرتحل، فقيل: و ما الحال المرتحل؟ فقال عليه السلام: فتح القرآن وختمه، كلما جاء بأوّله ارتحل في آخره) [١].

٢. قراءة القرآن تنزل البركة في المكان الذي يقرأ فيه، فإذا كان رسول الله وهو إذا مجّ من فمه في بئر ماء مالح يصبح حلوًا، وتلك الشجرة اليابسة تصبح مثمرة، وإن وضع يده في مكان تحلّ فيه البركة وهو عبد الله، فكيف بكلام الله ؟ يقول رسول الله صلى الله عليه وآله (نوّروا بيوتكم بتلاوة القرآن فإنّ البيت إذا كثر فيه تلاوة القرآن كثر خيره، واتّسع أهله وأضاء لأهل السماء كما تضئ نجوم السماء لأهل الأرض)[٢] يصبح ذلك البيت قطعة متوهّجة من النور يتلقّاها ملائكة السماء.

٣. قراءة القرآن تؤثر في الأرزاق وتكثر من الخير وسعة الحال، في الرواية (كان سكّانه في زيادة).

فتلك المشاكل الناشئة من الضيق النفسي كالغضب الذي يحوّل البيت إلى سجن وجحيم، وليس من كلام يذهب هذه المشاكل ويطيّب الأخلاق ويؤثر في المكان أطيب من كلام الله.

(١) مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول ؛ العلامة المجلسي٤٨٨ / ١٢
(٢) الكافي٢ / ٦١٠

ثالثًا: حفظ القرآن الكريم

من الأمور المستحبة والمؤكّد عليها تعاهد القرآن بالحفظ، فقد ورد في الرواية عن رسول الله ﷺ.

(لا يعذّب الله قلبًا وعى القرآن)[١] وعى قد تكون بمعنى الوعي أو قد تكون بمعنى الوعاء، والوعاء هو ما يحيط ما في داخله من سائل أو جامد.

قلب الإنسان إن وعى القرآن الكريم وحفظه أو فهمه فإنّ هذا القلب لا يعذّب، وقد ورد في الرواية (مثل الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام)[٢] والسفرة الكرام هم الملائكة الذين يحملون الوحي، فهم يحملون الوحي وقارئ القرآن يحفظه فهو يحمل الوحي والقرآن، لذلك يكره للإنسان أن ينسى ما حفظه من الآيات والسور بل يجب تعاهده بالقراءة والتكرار حتى يبقى.

عن يعقوب الأحمر قال قلت لأبي عبدالله: جعلت فداك أنّه قد أصابتني هموم وأشياء لم يبق شيء من الخير إلا وقد تفلّت مني طائفة منه حتى القرآن لقد تفلّت مني طائفة منه، قال: ففزع عند ذلك حين ذكرت القرآن، ثم قال: إنّ الرجل لينسى السورة من القرآن فتأتيه يوم القيامة حتى تشرف عليه من درجة من بعض الدرجات، فنقول: السلام عليك، فيقول: وعليك السلام من أنت؟ فتقول: أنا سورة كذا وكذا ضيّعتني وتركتني أما لو تمسّكت بي بلغت بك هذه الدرجة، ثم أشار بإصبعه، ثم قال: عليكم بالقرآن فتعلّموه..). [٣]

---

(١) وسائل الشيعة ٦ / ١٦٧

(٢) صحيح البخاري٦ / ٨٠.

(٣) الكافي٢ / ٦٠٩.

رابعا: العمل بالقرآن الكريم

هو المطلب الأساسي بعد التعلّم والتلاوة والحفظ فإنّ العمل به يكمل إيمان الإنسان، وبه تتقدّم الأمم وبخلافه تنتهي إلى الدمار والانحراف.

وما حصل في الأمة من مصائب ومشاكل كان بسبب ترك العمل بالقرآن حتى تولّى عليها من اتّخذوا القرآن ظهريًا و حكّموا الشهوات حتى توالت المصائب على الأمة.

علم تجويد القرآن في نظريتين متعاكستين

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[1]

أصل ومعنى كلمة التجويد

كلمة التجويد وما يشتق منها لم تأت في القرآن الكريم ولا في أحاديث رسول الله ﷺ ولا حديث المعصومين بمقدار ما حصل من التتبع لهذه الكلمة.

نعم، كلمة ترتيل ورتل واردة في القرآن الكريم وأيضاً واردة في سنة المعصومين عليهم السلام وحديثهم. في القرآن في سورة المزمل:﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾. ترتيل بحسب هذا المعنى لا يرتبط كثيراً ولا يرادف التجويد.

الترتيل – بحسب ما ورد في تعريفه أيضاً حتى في روايات المعصومين بالإضافة إلى المعنى اللغوي– هو عبارة عن القراءة التلاوة المتريثة غير المتعجلة. ففي بعض

(١) المزمل١ ـ ٤

النصوص أن يرتل القرآن و لا يقرأه هذرمة..هذرمة يعني سريع تدخل كلمة في كلمة و حرفا في حرف. فعن الإمام الصادق عليه السلام «إن القرآن لا يقرأ هذرمة ولكن يرتل ترتيلاً. وإذا مررت بآية فيها ذكر النار وقفت وتعوذت بالله من النار»[1] وفي ثالث: الترتيل: «هو أن تتمكث فيه وتحسن به صوتك».

وأما التجويد فهو بحسب المعنى اللغوي جعل الشيء جيداً. أي شيء تجوّده: تجعله جيداً. وجبة الطعام تطبخها بأفضل الأنحاء هذا تجويد لها. والعمل من أعمالك تقوم به على أحسن وجوهه تجويد له، يعني جعله جيداً هذا في المعنى اللغوي.

في المعنى الاصطلاحي ذكروا أنه عبارة عن إخراج الحروف من مخارجها التي قررها علماء هذا العلم. وإحسان إخراجها بالالتزام بقوانين هذا العلم و بهذا المعنى هو خاص بالقرآن الكريم. بينما بالمعنى اللغوي ينطبق على كل ما تجعله جيداً.

الموقف من علم التجويد

هل ينبغي الاهتمام به، والعناية به، وتعلمه وتعليمه كأحد علوم القرآن الأساسية؟ كما عليه الرأي المعروف في علماء مدرسة الخلفاء، ولعل طيفاً واسعاً أيضاً من علماء أهل البيت أيضاً هو على ذلك، أنه ينبغي الاهتمام به والعناية فيه والصرف عليه وتخصيص الأوقات، البرامج، المناهج، المؤسسات في مثل هذا الأمر.

وهناك رأي آخر عند قسم من علماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام، أنه أساساً هذا العلم ليس ناشئاً في أحضان الأئمة ولم نعهد منهم اهتماماً كبيراً به فلا ينبغي إعطائه أكثر من حجمه. هذه النظرية الثانية المخالفة للنظرية الأولى.

(١) الكافي.٦١٨ / ٢

النظرية المخالفة لعلم التجويد:

فلنبدأ بالنظرية الثانية المخالفة للاهتمام والمبالغة في قضية علم التجويد تعلماً وتعليماً وإنفاقاً وكتابةً وتأليفاً وما شابه ذلك. علام يعتمدون؟

من أشهر من ذكر هذه الفكرة، هو المرجع الديني السيد عبد الأعلى السبزواري[١] - رضوان الله تعالى عليه- فهو يقول في ذيل المسألة التي يذكرها الفقيه السيد محمد كاظم اليزدي(صاحب العروة الوثقى) في موضوع القراءة في الجزء السادس من مهذب الأحكام

ننقل أصل المسألة وتعليق السيد السبزواري عليها:

مسألة٤١: لا يجب أن يعرف مخارج الحروف على طبق ما ذكره علماء التجويد بل يكفى إخراجها منها، و إن لم يلتفت..

وعلق السيد السبزواري قائلا: للأصل بعد عدم دليل عليه، و الظاهر أنّ صدور الحروف عن مخارجها طبيعي غير التفاتي بالنسبة إلى من لم يكن فى لسانه و مخارجه آفة.

نعم، لو لم تكن حرفا في لغة أو كانت في الجملة، كانت استعمالاتها قليلة تحتاج إلى توجه إلى مخرجها و كيفية صدورها فى الجملة لا بالدقة العقلية بل بنحو المتعارف في المحاورة. قال في الجواهر: و نعم ما قال: «فوسوسة كثير من

(١) السيد عبد الأعلى السبزواري (ت سنة ١٤١٤ هج) مرجع ديني، فقيه، ومفسر للقرآن. من تلامذة الميرزا حسين النائيني، والمحقق ضياء الدين العراقي والشيخ محمد حسين الأصفهاني. يشار إليه بالقداسة العليا في جهة الورع بالإضافة إلى فقاهته وعلميته. له كتب كثيرة منها: مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ومهذب الأحكام في الفقه، شرح استدلالي على العروة الوثقى وشرائع الاسلام وغيرهما من الكتب.

الناس في الضاد وابتلائهم بمعرفة مخرجه فى غير محلّها، و إنّما نشأ ذلك من بعض جهال من يدعي المعرفة بعلم التجويد من بني فارس.

ولا بد من بيان أمور:

الأول: قد تفحصت عاجلا بقدر وسعي في الأخبار لأن أظفر على ما ذكروه في التجويد فى مخارج الحروف و سائر ما تعرضوا له، فلم أجد عينا ولا أثرا مع أنّ الأمر من الأمور الابتلائية لجميع المسلمين، و لو وجب شيء منها لشاع وبان.

إن قيل: إنّ الناس كانوا من العرب، فلم يحتاجوا إلى البيان، لكون جملة ما ذكروه فطريا لهم. يقال: لم يكن جميع المسلمين عربا ولا بد وأن يبيّن الحكم الإلهى العام البلوى مع أنّ مولانا الرضا عليه السلام كان مورد ابتلاء العجم مدة، ولم أظفر على شيء يدل على أنّ شخصا من الأعاجم قرأ قراءته لديه عليه السلام أو سأله أحد عن ذلك، مع أنّ ما ذكر فى التجويد ليس من التكوينيات الفطرية، بل غالبها من الجعليات الصناعية.

و أما قولهم عليهم السلام: «اقرؤوا كما تعلّمتم فسيجيئكم من يعلّمكم».

ففيه أولا: أنّه يمكن أن يراد به كمية آيات القرآن لا كيفية القراءة.

وثانيا: يمكن أن يراد به ما يرجع إلى مادة الآيات أو كيفياتها الواجبة النحوية دون ما يتعلق بالتجويد.

وأما قوله تعالى ﴿ورَتِّلِ القرآن تَرْتِيلًا﴾ فلا ربط له بالتجويد الحادث بعد رحلة النبي صلى الله عليه وآله بسنين و قد ورد عن أبي عبد اللّه عليه السلام فى تفسيره: «ينبغى للعبد إذا صلّى أن يرتل فى قراءته فإذا مرّ بآية فيها ذكر الجنّة وذكر النار سأل اللّه الجنة و تعوّذ من النار، و إذا مرّ ب يٰا أَيُّهَا النّٰاسُ و يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا يقول لبيك ربنا».

و عنه عليه السلام أيضا: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: و لا تهذه هذّ الشعر ولا تنثره نثر الرمل

و لكن اقرعوا به قلوبكم القاسية و لا يكن همّ أحدكم آخر السورة. ولا ربط لهما بالتجويد أيضا، بل مفادهما التخشع والتفكر فى القراءة.

نعم، روى عن علي عليه السلام فى معنى الترتيل: «أنّه حفظ الوقوف وأداء الحروف».

ولكن عن الحدائق: لم أقف عليه فى كتب الأخبار ولعله من مفتعلات العامة ترويجا لصناعة التجويد. و يأتى فى (فصل مندوبات القراءة) معنى الترتيل المستحب، فلا دليل على لزوم اتباع ما أوجبوه بل ولا استحباب متابعتهم فيه، فكيف بما ندبوه إلا إذا توقف أداء مادة الكلمة لغة أو هيئتها المعتبرة فيها عليه فيجب حينئذ الإتيان بمادة الكلمة و هيئتها المعتبرة لا من جهة لزوم متابعتهم [١].

التجويد وسلب الخشوع

ثم إنه أشار إلى جهة تربوية وهي أن التعمق في التجويد والالتفات لقواعده أثناء القراءة في الصلاة ينتهي إلى سلب الخشوع ولذا قال في موضع آخر من المهذب[٢]:«ثمَّ إنّ الظاهر، بل المعلوم أنّ التأمل كثيرا فى التجويد سواء كان في الصلاة، أم في قراءة القرآن أو الأذكار والدعوات يسلب الخشوع، لأنّ توجيه النفس إلى جهة خاصة يوجب انصرافها عن سائر الجهات، و لعلّ هذا أحد الأسرار التي لم يهتم أئمة الدّين بترغيب الناس إلى ذلك، و قال صلّى اللّه عليه و آله: «من انهمك فى طلب النحو سلب الخشوع»[٣].

(١) مهذب الأحكام. ٣٢٠ / ٦

(٢) وقد نُشر لسماحة السيد ضياء الخباز القطيفي رسالة مفصلة في شرح هذه النظرية على الانترنت بعنوان: علم التجويد القراءة المغيبة.. يمكن مراجعتها لمن أراد التفصيل.

(٣) مهذب الأحكام. ٣٢٤ / ١

منشؤه ليس في أحضان الأئمة

ثم إنه وجه النظر إلى ما كان قد نقل عن صاحب الحدائق من أن منشأ هذا العلم لم يكن في أحضان أهل البيت وإنما في أحضان علماء السلاطين والخلفاء، وكانت غاية هؤلاء السلاطين عطف توجه الناس من الأئمة الذين لديهم حقائق القرآن إلى فقهاء السلاطين الذين كان لديهم القشور والحروف.. ولذا فقد قال عند الحديث على الوقوف، وأن ذلك غير لازم قال: « لم يشَر إلى شيء مما قالوه فى أحاديث أهل البيت الذين نزل القرآن فى بيتهم وعلّمهم النبىّ صلّى اللّه عليه و آله علوم القرآن و أحكامه و معارفه. نعم، حيث إنّه قد وردت روايات مستفيضة- عن أهل البيت عليهم السلام جمع بعضها المحدث الكاشاني فى مقدمات تفسيره- دالة على أنّ علوم القرآن عند أهل البيت افتعلت علوم أخرى للقرآن عند غيرهم لصرف وجوه الناس عنهم عليهم السلام.[١]

وفي إشارة إلى ما ذكره السيد في منشأ علم التجويد يمكن الاستشهاد بما نقل عن رسالة الامام محمد الباقر عليه السلام إلى سعد الخير (الأموي) «و كان من ذلك أنهم (يعني سلاطين الأمويين) أقاموا حروف القرآن و حرفوا حدوده فهم يروونه ولا يرعونه»[٢].

(١) مهذب الأحكام٣٢٣ / ١.

(٢) سعد الخير الأموي من ولد عبد العزيز بن مروان بن الحكم بينما رأى السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة أنه يستفاد من الأخبار جلالته وعناية الباقرعليه السلام به حيث أنه من أصحاب الباقر عليه السلام وأورد بعض رسائل الامام له رأى السيد الخوئي أن بعض تلك الروايات ضعيفة. لكنه أضاف بأن كونه ممن لجأ إلى المعصومين عليهم السلام خلافاً لآبائه مسَّلم بين علماء الرجال.

الأثر الاجتماعي كِبر أهل التجويد

يضيف بعض الباحثين أن من الآثار السلبية للانشغال بعلم التجويد أثرا أخلاقيا سيئا وهو استكبار المنشغلين به واعتدادهم بأنفسهم، وخصوصا من تقدم فيه فهناك يحصل لديه انطباع بأن من عداه لا يعرف تلاوة القرآن، وأن القراءة الصحيحة المقبولة من الله هي قراءته وأمثاله، ومادامت قراءة الباقين غير صحيحة فلا معنى لحضوره صلاة الجماعة حيث يرى قراءة الإمام باطلة وخاطئة مع أنها صحيحة بالنظر الفقهي ولذلك يقول هؤلاء.. نرى من النادر أن يحضر هؤلاء المتخصصون في علم التجويد صلوات الجماعة مأمومين !

وتصور لو أن هذه الفكرة صارت هي الفكرة السائدة والعامة كيف ستكون حالة المساجد وصلوات الجماعة؟

هذا مع العلم أن أكثر (إن لم يكن كل) أحكام التجويد ليست واجبة المراعاة من الناحية الفقهية، وما ذكره العلماء في بعض الحالات من وجوب المد في آيات معينة ليس راجعا للتجويد في حقيقته وإنما هو لجهة أن نطقها بغير هذا النحو لا يعد صحيحا عند العرب، فهي جهة لغوية لا تجويدية ! مثل (الضالين) وأشباهها.

خلاصة النظرية الأولى تقول بعدم لزوم الاهتمام بعلم التجويد أولاً لأن منشأه خارج إطار المنشأ الإمامي، وأن الأئمة مع اهتمامهم بكل قضايا القرآن الكريم – بل بما هو دون ذلك في الأهمية ذكروا فيها أحاديث وروايات بينما لم يذكروا في هذا شيئاً وهذا يدل على عدم الاهتمام به، وإضافةً إلى ذلك فإن منشأه هو من أعمال سلاطين الخلفاء المعاصرين للأئمة بغرض أن يتوجه الناس للعلماء الذين يعينهم أولئك الخلفاء لا إلى الأئمة، فضلا عن أن له آثاراً اجتماعية وتربوية غير حسنة: تربوية مثل سلب الخشوع في الصلاة، واجتماعية مثل اغترار الإنسان بقراءته و

تجويده وامتناعه عن أن يصلي وراء أحد من الناس لأنه يرى أن قراءته هي الأضبط والأفضل.

النظرية الداعمة لعلم التجويد

هذه النظرية تقول إن الاهتمام بالتجويد كواحد من علوم القرآن هو على القاعدة. فلماذا لا نهتم بعلم التجويد كما نهتم بسائر علوم القرآن الأخرى؟

الأئمة علماء بالتجويد وغيره:

أولاً نحن نعتقد أن أئمة أهل البيت عليهم السلام عندهم ما لدى غيرهم من العلوم ويزيدون عليهم، وبهذا يفضلونهم ويتقدمون عليهم. فلا ريب أن علم التجويد كعلم النحو، والصرف من اللغة، وكعلم الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والتدبر والتفسير في القرآن وهذه كلها موجودة لدى الأئمة عليهم السلام.

ولم يصل علم التجويد إلينا عنهم. لأنه قد يكون فيما تلف من الروايات والأحاديث. وقد يكون لعدم حاجة الناس إليه في ذلك الوقت حيث أن ألفاظهم على السليقة وعلى الفطرة والطبيعة فلم يسأل أحدٌ الأئمة لا سيما وأن قسما من الناس تلقوا هذه القراءات عن الأئمة مباشرة. فلا يحتاج من عنده الغاية القصوى (قراءة الإمام) إلى قواعد يطبقها. هذا هو الأمر الأول، أن الأئمة عندهم علم التجويد كما غيره من العلوم ولم يأتنا منهم ذلك إما لما ضاع من تراث الأئمة عليهم السلام وهو كثير، أو لعدم الحاجة إليه نظراً لأن الناس كانوا على السليقة ينطقون الحروف في قراءتهم للقرآن.

لم ينشأ في احضان السلاطين

ثانيا: أنه ليس صحيحاً أن علم التجويد ناشئ في أحضان المدرسة الأخرى فقط، بل اهتم المسلمون جميعاً بهذا العلم كسائر علوم القرآن فبرز من مدرسة الخلفاء علماء ومتخصصون في التجويد وفي مدرسة أهل البيت أيضا.

ويقولون أن عدداً من القراء المشهورين، ولا بد أن تكون قراءتهم قراءة مضبوطة، متقيدة بهذه القواعد، ويعرفون مخارج الحروف بشكل دقيق، فلا يصبح أي شخص قارئاً إلا إذا عرفها.

وقد حفل التاريخ الاسلامي بأفراد من هؤلاء مصنفين في ترجماتهم على أنهم كانوا يتشيعون لأهل البيت. ومن هؤلاء القراء الذين سبق ذكرهم في مواضيع سابقة حفص وعاصم والكسائي وحمزة الزيات وأبو يحيى ابن أبي العلاء. إذن، قسم من القراء المتقنين لقضايا التجويد كانوا من تلامذة أهل البيت عليهم السلام وتلقوا بعض هذه القراءات من فم الأئمة، مثل حمزة الذي يروي عن الإمام الصادق قراءة القرآن قرأ عليه، وغيره يحيى ابن يعمر تنتهي قراءته إلى أمير المؤمنين عن طريق أبي عبد الرحمن السلمي الذي يقول أقرأني علي ابن أبي طالب القرآن حرفاً حرفاً. فهذه القراءات المعروفة والمشهورة والتي يفترض أنها تعمل بالتجويد كانت لدى الشيعة.

بل يذكر المرحوم الدكتور الفضلي في كتابه علم التجويد أن أول ما انفصل علم الصرف عن علم النحو كان بواسطة معاذ ابن مسلم الهراء النحوي[1]. هو من فصل

(١) معاذ ابن مسلم الهراء النحوي، توفي سنة ١٨٧هـ.ونص على أنه كان يتشيع، وعمّر طويلًا حتى أن بعض تلامذته ماتوا وهو على قيد الحياة، وقيل إن بعض أبنائه توفوا وهو على قيد الحياة. ويذكر أنه من أصحاب الإمام الصادق وأسند عنه (يعني توفي بعد الإمام الصادق أقل من أربعين سنة بقليل ما يشير إلى طول فترة عمره). وكان يتشيع حتى ذكروا أنه كان يفتي حتى سأله الإمام الصادق «بلغني أنك

علم الصرف عن علم النحو. وعندما انفصل هذا العلم أتت مع علم الصرف مسائل علم التجويد، وقد نُص على تشيع الهراء النحوي.

وبناء على هذا فلا يصح القول بشكل مطلق وجازم أن هذا العلم كان منشؤه منشأ عاميا من طرف الخلفاء والسلاطين لأجل إغواء الناس عن أهل البيت.. نعم ربما يكون السلاطين قد استفادوا منه في هذا الأمر كما يستفيدون من أي شيء لغاياتهم.

التجويد قواعد تطبق حين الحاجة

وأما ثالثا: فغاية علم التجويد أن يعلم الإنسان قواعد، إن احتاج إليها كما هو الحال بالنسبة إلى غير العرب طبقها، أما العربي فلا يحتاج إلى معرفة مخارج الحروف. لكن هذا الذي لم ينطق الضاد في عمره يحتاج أن يتعلم كيف ينطقه مرة بالتلقين، ومرة – مع غياب الملقن– بوضع قواعد يتبعها حتى يخرج الحرف من مكانه ومخرجه. وقد وضع بعض اللغويين كتبا اعتمدت في ترتيبها على مخارج الحروف، وهي وإن لم تكن لجهة علم التجويد، لكن هذا نحوٌ من التصنيف والتأليف.

تجلس في الجامع وتفتي.» قال «بلى ولقد أردت أن أسألك عن هذا. فإن الرجل يأتيني وأعرف أنه ممن يحبكم فأخبره بمحض الحق» (قولكم، أي أخبره أنه رأي أهل البيت هو كذا). «ويأتيني رجل أعرف أنه ممن يخالفكم فأفتيه بقول غيركم» رجل يسألني مثلاً عن رأي أبي حنيفة (أعلم أنه من غير أتباعكم فأفتيه برأي أبي حنيفة أو غيره. «ويأتيني الرجل لا أعرف أنه يحبكم ولا يخالفكم» لا أدري (غير واضح لدي). «فأقول له رأيكم في ضمن الآراء» أخبره له أهل المدينة يقولون كذا، أهل الكوفة يقولون كذا، أهل البيت يقولون كذا. فحسن الإمام فعله قال «نعم اصنع هكذا».

خطأ التطبيق لا ينبغي أن يسري للفكرة

رابعا: ما يرتبط بالأثر التربوي الفردي أو الاجتماعي نقول: هذا خطأ ممارسة، ولا ينبغي أن ينعكس على النظرية والفكرة، هو نوع من الإغترار عند بعض من يعرف علم التجويد. فلا يصلي خلف أي شخص، فالعيب ليس في العلم وإنما في غرور الإنسان.

فهل لو ان شخصا درس الفقه واستكبر على الناس نقول أن علم الفقه غير صحيح؟ إنه يوجد من يعرف بمعرفة تخصصية علم التجويد وقواعده ومع ذلك يعلم أن هذه القواعد ليست واجبة من الناحية الفقهية، فلا يمتنع عن الصلاة جماعة، ولا يركبه الغرور في اعتبار قراءة الناس الفاقدة للمحسنات التجويدية خطأ.وهناك من لا يعرف من التجويد شيئا ومع ذلك يستكبر ولا يحضر مسجدا ولا جماعة !

هذا عرض للنظريتين مع شيء من أدلتهما.

حاصل المقام

حاصل المقام نلخصه في الأمور التالية:

الأمر الأول أن علم التجويد ينبغي ألا يبخس حقه نهائياً وألا يعطى فوق حقه. لا يكون تفريط فيه بشكل كامل ولا إفراط في جانبه. لو فرضنا مثلاً أن لدينا معهد قرآن أو لجنة قرآنية يجب أن تكون الأولوية لتعليم معاني القرآن. فتصرف على الأقل نصف موارد المؤسسة القرآنية في تعليم المعاني. ذلك أن (هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم)، لكن متى؟ عندما يعرف الناس مقاصده ومعانيه. وبعد ذلك في المرتبة الثانية تصحيح تلاوة الناس. إذا كان لتعليم المعاني نصف موارد المؤسسة،

تصحيح التلاوة له ثلاثة أعشار (٣٠٪)، ليقرأ الناس القرآن بشكل صحيح، يتلونه تلاوة صحيحة. بعد ذلك باقي المال وهو ٢٠٪، ومن الوقت، والجهد تكون في قضية المحسنات بدءاً بالتجويد إلى التحسين الصوتي والمقامات. فالصوت الحسن في قراءة القرآن مطلوب وقد ورد في الروايات «زينوا القرآن بالصوت الحسن» وحلية القرآن الصوت الحسن». هكذا يصبح توازن فلا يكون هناك إلغاء تام للتجويد ولا يعطى المقام الأول، فيكون الفرد مشغولاً ليل نهار بأحكام التجويد وهو لا يعرف معنى آية واحدة أو يلتزم بمؤداها. موازنة تبدأ بتعلم معاني القرآن ثم التلاوة الصحيحة ثم التجويد بحسب الترتيب في الأهمية.

الأمر الثاني أن يحذر دارس التجويد من الآثار التربوية الضارة لدراسة هذا العلم. فيحذر الدارس من التعمق فيه بالنحو الذي يسلبه الخشوع في الصلاة، كما في الرواية التي تحذر من التعمق في دراسة النحو «من تعمق في النحو سلب الخشوع»، لأنه في أثناء القراءة يفكر (اهدنا الصراط)، (اهدنا) فعل أمر، بعدها الفاعل مخاطب مقدر بالله -سبحانه وتعالى- (نا) مفعول به، (صراط) مفعول ثاني، وهكذا. متى يفكر في المعاني المطلوبة منه. فإذا أضاف لذلك سببا جديدا لشرود الذهن عن المعاني وهو التفكير في القراءات، (صراط وسراط وزراط !!) وأضاف إليها التفكير في الأحكام التجويدية المطلوبة في هذه السورة فسينتهي إلى سلب الشوع. هذا على المستوى الفردي.

وكذا الأثر الاجتماعي بحيث يعتقد أن كل البرية مخطئون إلا هو وقراءته. وقراءة كل الناس غير مقبولة من الله إلا قراءته.فإن هذا وإن أحسن التجويد إلا أنه أساء للقرآن ومعانيه ولم يزده القرآن هدى ! وصلاة الجماعة في هذا مقياس صادق.. فإذا زاد دارس التجويد تمسكا بصلاة الجماعة يتبين من ذلك مقدار تأثير القرآن الايجابي فيه وإذا انكفأ عن صلوات الجماعة وارتياد المساجد فليعد النظر

في مسيرته، وليفكر من جديد في أمره.

الأمر الثالث، التفريق بينما هو لازم وواجب، وبينما هو تحسين وتكميل وتجميل. في الفقه، في باب القراءة، تذكر الموارد القليلة التي يجب فيها مراعاة قواعد التجويد. المدود الواجبة مثلاً، مثل (الضالين) باعتبار أن قراءتها على النهج العربي الصحيح تقتضي ذلك. أما ما ذكره علماء التجويد أن الوقوف في القرآن ٥٢٢٠ وقفا وهذه يجب الالتزام فيها. من أين جيء بهذه الأوقاف؟ هل الله أمر بها؟ هل المعصومون ذكروها؟ فهذه من التحسينات يستطيع الإنسان أن يلتزم بها، ويستطيع ألا يلتزم بها.

وقد بين العلماء الموارد التي يلزم مراعاتها، وتقدم ذكر جانب منها في عرض النظرية الأولى، وأنها في الغالب باعتبار أنها تؤكد النطق على النهج العربي الصحيح.. لا لمدخلية خاصة في قواعد التجويد.

قراءات سبع أو حرف واحد؟

روى شيخنا الكليني أعلى الله مقامه في الكافي [1] عن الفضيل بن يسار قلت لأبي عبد الله جعفر بن محمد صلوات الله عليه إن الناس يقولون أن القرآن نزل على سبعة أحرف فقال عليه السلام كذبوا أعداء الله ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد

وعن سيدنا ومولانا الباقر عليه السلام فيما روي عنه إن القرآن واحد نزل من عند واحد ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة[2].

هل هناك قراءات سبع (فضلا عن العشر) ونسخ سبع في ألفاظ القرآن الكريم؟ أو أن النازل من السماء هو نسخة واحدة وحرف واحد وإذا حصل اختلاف بين القراءات فإنما هو راجع لأسباب بشرية؟

---

(١) الكافي ٢ / ٦٣٠.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

الرأي الرسمي في مدرسة الخلفاء يؤكد على أن للقرآن الكريم قراءات بمعنى نسخ، ألفاظ، فما هو موجود مثلا في قراءات حفص عن عاصم ليس موجوداً بالضبط وبشكل كامل في قراءة ورش مثلا، وما هو موجود في قراءة الكسائي ليس موجوداً بتمامه في قراءة أبي عمرو البصري مثلا، وإنما يوجد هناك اختلافات.. بعضها اختلافات في التنقيط وبعضها في التشكيل وبعضها أكثر من ذلك تصل إلى قضية تغيير الكلمة وهم يعتقدون أن هذا من التهوين على الأمة والتسهيل عليها بل يضيفون إلى ذلك أن النبي ﷺ فيما يروون في كتبهم أقر هذا الاختلاف وجعل أمر طبيعيا.

وهم يعتقدون أيضا أن هذه القراءات قراءات متواترة لم تصل إلينا بخبر الآحاد وإنما متواترة وهو رأي قوي عندهم بل تجاوز بعض منهم الحد عندما قال من لم يعتقد بتواتر القراءات عن النبي ﷺ فهو كافر ! كما نسب ذلك إلى مفتي الديار الأندلسية.

نظر الامامية تبعا للأئمة عليهم السلام أن الكلام عن قراءات متعددة سواء كانت نازلة من السماء متعددة أو أن النبي أقرها غير مقبول.. للبراهين التي سوف يقيمونها ويعتقدون أن القرآن الكريم نسخة واحدة نزلت من السماء، والذي بلغه رسول الله واحد. والاختلاف الحاصل في القراءات لا يرتبط بأن القرآن نزل من السماء متعددا.. ولا أن النبي قرأه بأنحاء متعددة أو أقر ذلك، وإنما هي قراءة واحدة واختلف الرواة فيما بعد النبي لأسباب ستأتي لاحقا.

لشرح هذه المسألة نورد بعض ما ذكروه من الأمثلة عن الاختلاف لكي يكون واضحا ماذا نعني بتعدد القراءات وكونها سبعا أو عشرا أو أكثر من ذلك؟

صور من الاختلاف بين القراءات

ننقل بعض الآيات مما ذكر فيها الاختلاف وهذا لا على سبيل الحصر وإنما على سبيل التمثيل لكي يتضح الأمر:

سنعتمد القراءة المشهورة في المشرق الاسلامي، والمعروفة بقراءة حفص عن عاصم وقد ذكرنا عند الحديث عن جمع القرآن وتاريخ القرآن أن هذه القراءة تنتهي إلى الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، ونقيس باقي الاختلاف بالنسبة له:

١. قول الله عز وجل ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ بينما في قراءة أخرى (هن أطهرَ لكم) طبعا هذا يحتاج إلى تأمل في كيف صارت أطهر بالفتح بينما كان المفروض أن تكون مرفوعة لأنها خبر، كيف صارت هناك منصوبة أو مفتوحة، يحتاج إلى تأمل في قواعد اللغة[1].

٢. في قول الله عز وجل ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ هذا الموجود في المصحف الشائع في المشرق، في غيره من القراءات (وهل يجازى إلا الكفورُ) نجازي فعل مبني للمعلوم وهناك صارت فعل مبني للمجهول، ويتبعه أن يكون (الكفور) مفعولا به منصوبا أو نائب فاعل مرفوعا.

٣. في قول الله عز وجل ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ في المصحف المعروف بضم الباء وسكون الخاء بينما في قراءة أخرى بالفتح في كلا الأمرين.

٤. في قوله تعالى ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ هنا بفتح السين في بعض القراءات الأخرى بكسر السين (ميسِرة).

---

(١) وقد ذكر بعضهم أنه منصوب على التقريب عند الكوفيين وهو جعل اسم الاشارة يعمل عمل كان في الجملة الاسمية فيرفع المبتدأ وينصب الخبر، مع جعل)هن ضمير فصل.(

٥. في قوله تعالى ﴿الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ في قراءة أخرى بدل ننشزها جاءت (ننشرها) من النشر لا من النشز، والاختلاف فيهما واضح.

٦. في قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ في المصحف المعروف بينما في قراءة أخرى (حتى إذا فرِّغ عن قلوبهم).

٧. في آية ثالثة ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ في غيرها من القراءات (إن كانت إلا زقية واحدة) زقية في اللغة العربية صيحة وصرخة ولكن تختلف الكلمة اختلافا كاملا. وقد ورد في الشعر المنسوب للعباس في كربلاء.. لا أرهب الموت إذا الموت زقا.. يعني صاح الموت وصرخ طائره.

٨. في قول الله تعالى ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ في بعض القراءات ورد مكانها « كالصوف المنفوش « والعهن في اللغة العربية معناه الصوف لكن الذي ورد به القرآن في هذه النسخة المعروفة والمشهورة عندنا هو (كالعهن المنفوش)

٩. في قول الله عز وجل ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ صار تقديم وتأخير في بعض النسخ الأخرى (وجاءت سكرة الحق بالموت).

١٠. في سورة الفاتحة مثلا المعروف في هذا المصحف المشهور عندنا بقراءة حفص ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ في قراءة اخرى (مِلك يوم الدين) في قراءة ثالثة (ملَك يوم الدين)، تغيرت الصيغة من اسم مالك إلى فعل ملَك، وفي نهايتها: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) بينما في بعضها الآخر (غير المغضوب عليهم وغير الضالين)..هذه وأمثالها كثير، لو أحد أراد أن يتتبع موارد الاختلاف في القراءات السبع التي تذكر فهو شيء كثير.

مصدر فكرة القراءات السبع

من أين جاءت مدرسة الخلفاء بهذه الفكرة وكيف تطور الأمر عندهم؟

في الصحيحين [١] عندهم رواية ينقلونها عن ابن عباس عن النبي ﷺ أن قال «أقرأني جبرائيل على حرف فراجعته فلم أزل استزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف «فرض على حرف أنها قراءة واحدة فراجعته، هون المسألة أعطنا فرصة أوسع على الأمة» سبعة أشكال من القراءة، سبعة أنحاء من الألفاظ في القرآن، هذه رواية عندهم.

الإمام الصادق عليه السلام في رواية الكافي يكذب هذا المعنى بالكامل ولكن هذه الرواية موجودة عندهم في الصحيحين، وأما في مسند أحمد ففيها تفصيل أكثر ويروونها عن أبي ابن كعب وهو أحد القراء المعروفين في تاريخ المسلمين وكان مخالفا لحركة الخلافة في عهدها الثالث في الاستغناء عن مصحفه ومصاحف الآخرين، ينقل في المسند هذه الرواية عنه يقول أنا كنت في المسجد فجاء رجل وصلى فقرأ قراءة أنكرتها فلما فرغ جاء شخص آخر وقرأ قراءة أخرى أيضا أنكرتها فحاك ذلك في صدري وأصابني ضيق شديد وأخذتهما إلى رسول الله ﷺ وقلت له القضية كذا وكذا فحسن النبي فعلهما وأعاد نفس الكلام الذي قاله رسول الله أن جبرائيل أقرئني على حرف فلم أزل أستزيده حتى أقرئني على سبعة أحرف.

اعتمدوا على مثل هذه الروايات في تقرير أن القرآن الكريم يمكن قراءته على أحرف متعددة، استمر الأمر هكذا تكثرت القراءات بعض الباحثين يقول وصل إلى ٢٤ قراءة وألف بعض المؤلفين في ذلك، قراءات فيما بينها اختلاف، ٢٤ قراءة غير

(١) صحيح البخاري ٦ / ١٠٠، ومسلم ٢/ ٢٠٢.

متطابقة تمام المطابقة إلى حوالي سنة ٣٠٠ للهجرة « وقد ذكر الإمام الخوئي ناقلا عن الجزائري ما يلي:

«لم تكن القراءات السبع متميزة عن غيرها، حتى قام الإمام أبوبكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد -وكان على رأس الثلاثمائة ببغداد- فجمع قراءات سبعة من مشهوري أئمة الحرمين والعراقين والشام، وهم: نافع، وعبد اللّه بن كثير، وأبو عمر وبن العلاء، وعبد اللّه بن عامر، وعاصم، وحمزة، وعلي الكسائي. وقد توهم بعض الناس أن القراءات السبعة هي الأحرف السبعة، وليس الأمر كذلك...)[1]، فأقر سبع قراءات واستثنى ما بقي.

صار الوضع بنحوٍ كأن في كل مصرٍ من الأمصار الكبرى في المسلمين له قراءة خاصة وقراء معروفون:

ففي الكوفة كان هناك ثلاثة قراء: حمزة الزيات الكوفي، وعلي ابن حمزة الكسائي وعاصم ابن أبي النجود الكوفي وهذا يقرأ بقراءته في عموم المشرق وهي قراءة حفص عن عاصم، عاصم هو الأساس وحفص هو الراوي، لأن كل قارئ له راو أو أكثر.

في دمشق صارت عندهم قراءة عبد الله ابن عامر الدمشقي.

وفي مكة قراءة ابن كثير المكي

في المدينة قراءة نافع المدني

في البصرة قراءة ابي عمرو البصري

(١) البيان للخوئي.١٥٩ /

فهذه قراءات سبع.

ثم قيل أن هذه القراءات متواترة ما جاءتنا بخبر الواحد، المحققون من مدرسة الخلفاء وعامة شيعة أهل البيت يقولون لا يوجد تواتر في القراءات وإنما هي رواية آحاد، انتهى الأمر إلى ٢٤ ثم اختصرت إلى ٧ وأقرت هذه من قبل ابن مجاهد وصارت هي الاتجاه الرسمي في البلاد الإسلامية إلى يومك هذا المشهور عند أتباع مدرسة الخلفاء القراءات السبع وربما أضافوا إليها أيضا ثلاثة فتصبح القراءات العشر.

مناقشة فكرة القراءات السبع

هل يمكن أن يقبل الكلام في أن هناك قراءات متعددة أو لا؟

هناك درجة من الاختلاف بين القراءات يصعب حتى تصوره لأنه التحريف بشحمه ولحمه، وذلك ما قاله بعضهم بأنه لا مانع بدلا من (حكيم خبير) أن تقول (لطيف بصير) لأنه مثل هلم وتعال، وربما يكون مستند من قال (زقية واحدة) بدل (صرخة واحدة) أو من قال (كالصوف المنفوش) بدل (كالعهن المنفوش) مرجع فكرته إلى هذا !! باعتبار أن يمكن أن تبدل آيات القرآن الكريم وكلماته بمرادفاتها وهذا الكلام لا ريب في بطلانه فإنه على خلاف صريح الآية المباركة ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا القرآن لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1].

بعد هذه المرحلة يقول الامامية، إن فكرة القراءات لا تصح للجهات التالية:

١. القرآن الكريم هو دستور الله للمسلمين بل للبشر: وشأن الوثيقة الدستورية

(١) الاسراء٨٨ / .

الضبط والاحكام والدقة في النص، لا سيما وقد احتوى على العقائد الأساسية وعلى الشرائع والأحكام ولا يمكن تصور حاكم أو سلطان يريد تنظيم حياة رعيته فيأتي بدستور بسبعة أشكال وسبعة ألفاظ تعطي سبعة معان !! إن هذا يعني أن يؤسس لاختلاف بينهم ليس له نهاية.. نحن نرى في الدساتير البشرية يحتاطون لهذا فيجعلون العبارة محكمة واضحة ودقيقة، بل ويقولون إنه اذا حدث اختلاف فهناك جهة (كالمحكمة الدستورية مثلا) تتكفل بحل الاختلاف ! فهل يعقل أن يجعل المشرع والمقنن دستوره على أساس صناعة الاختلاف والشقاق بتكثير النسخ وتعدد الألفاظ؟

فهل يعقل مع ذلك أن يقوم المشرع والمقنن نفسه بوضع أسس الاختلاف الذي لا طريق لحله؟

إن هذا يحمل في داخله عوامل فنائه ! من أسهل ذلك أن يخطّئ الناس بعضهم بعضا، فلا يصلي أحدهم جماعة خلف الآخر لأنه يقرأ بطريقة لا يراها الثاني قرآنا ! وأن يفسد الاستدلال بآيات القرآن.

٢. في بعض الروايات[١] ورد أن النبي قد أقر ذلك بالقول أنه إنما صنع ذلك ليهون على الأمة، فبدل أن تقرأ قراءة واحدة تقرأ سبع قراءات ! فهل هذا من التسهيل؟ أو هو من تعقيد الموضوع؟ يرى الباحثون العكس وأنه لن يريح الأمة أو يسهل عليها الأمر بل سيلقيها في الفتنة.

بناء على ما ذكره المؤرخون في قضية حذيفة بن اليمان لما كان قائدا على جيش

(١) وقد ناقش الإمام الخوئي في مقدمة تفسيره) البيان الروايات المنقولة في مصادر مدرسة الخلفاء، فأغرق في النزع تحقيقا وأتى بما لا مزيد عليه لمن أراد التحقيق والتفصيل في فصلين مهمين لينتهي إلى تهافت الروايات فيما بينها وإلى عدم دلالتها على ما يريده المستدل بها من مشروعية القراءات السبع فضلا عن العشر، وإلى عدم وجود معنى واضح للأحرف السبعة كما وردت به تلك الروايات.

المسلمين في أذربيجان و أرمينيا زمان الخليفة الثالث، فالجيش الذي كان فيه مدنيون وشاميون وعراقيون فصار كل واحد يقرأ بطريقة معينة وبدأ يخطئ بعضهم بعضا، فكادت تحصل الفتنة بينهم، ولما رجع حذيفة بن اليمان قال للخليفة أدرك أمة محمد لأنهم اختلفوا في القرآن، وإذا كان هذا المقدار من الاختلاف موجوداً الآن، فهو غدا أكثر!!

٣. لو كان أمر القراءات صحيحا فلا بد أن يكون اصحاب النبي قد عرفوه منه، وآنئذ لا معنى لاعتراض حذيفة وهو من أصحاب النبي على هذا الاختلاف، ولا معنى لقيام الخليفة الثالث بتوحيد القراءة والنسخة ! مادام وجودها بعلم النبي وبغاي التسهيل على الأمة ! فيكون عثمان قد خالف رغبة النبي في التسهيل على الأمة، وخالف سنته في تعدد القراءة !!

٤. على فرض وجود رواية معتبرة عن النبي كما نقل في صحاح المدرسة الأخرى ماذا يعني نزل على سبعة أحرف؟ فهل المقصود فيه سبع لهجات؟ كما ذكر بعض الشراح باعتبار أن لقريش لهجة، ولهذيل أخرى، ولأسد ثالثة، ولتميم رابعة وهكذا، فنزل ملاحظا هذه اللهجات المتعددة !

أو أنها كما قيل بمعنى الأبواب السبعة في معاني القرآن، ففيه أمر وزجر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال يعني سبعة أشكال من التوجيه؟

أو أنها بمعنى سبعة ألفاظ وأن بالامكان تغيير لفظ القرآن إلى سبعة أنحاء ما لم تبدل آية رحمة بآية عذاب أو بالعكس وقد ذكرنا في أول الفقرة أن هذا هو التحريف بعينه؟

ثم أين كانت هذه القراءات والقراء في زمان النبي وبعده في زمان الخلافة، ولماذا لم نجد هؤلاء القرَّاء إلا بعد سنة ١٢٠، كلهم من سنة ١٢٠ إلى سنة ١٨٥

هـ، أين كانوا قبل هذه المدة، وكيف يدعى مع هذا وجود التواتر في القراءات هذه ووصولها إلينا بهذا التواتر؟

هل هناك أسباب حقيقية لوجود القراءات؟

يشير بعض الباحثين[١] إلى أسباب يراها هي الأسباب الحقيقية فيقول ما خلاصته: لا شك ولا ريب أن النصارى واليهود هم المستفيد الأول من تكثير نسخ القرآن وقراءاته.. لأن ميزة القرآن الكريم على سائر الكتب السماوية أنه محفوظ من عند الله عز وجل وأنه غير محرف بينما التوراة الكل يعلم أنها محرفة وكذا الإنجيل فإنه لما حصل السبي البابلي لليهود وكان منهم الفئة الدينية وصودرت الأموال من قبل الملوك البابليين، وأُخذت الكتب كلها إلى بابل العراق وهناك أتلفت فبدأت الفئة الدينية اليهودية تعيد كتابة للتوراة من الحفظ وهذا احد الأسباب وهناك أسباب سياسية تمثلت في الخضوع للحكومات و مصلحة الأحبار والرهبان الشخصية والأكل بالباطل، فحصل تزوير واسع للكتاب السماوي، بينما ميزة القرآن أنه محفوظ بحفظ الله، فمن مصلحة اليهود والنصارى أن يقال أن هذا القرآن أيضا كباقي الكتب فيه تحريفات وله قراءات مختلفة، وكل نسخة تؤدي غير ما تؤديه النسخة الأخرى فلا ميزة للقرآن على التوراة وسائر الكتب السماوية.. فالكل غير محفوظ.. وهذا المعنى الذي استغله المستشرق اليهودي جولد تسيهر ليقول وهو غير صادق : « لا نجد كتابا من الكتب السماوية يعاني من الاضطراب في المتن كالنص القرآني».

ولهذا لا يستبعد الباحث المذكور أن يكون هناك دخل لْأصحاب المصلحة هؤلاء في تشجيع هذا الاتجاه، وأقول: هذا الاحتمال الذي يبديه وارد، ولكنه

(١) السيد الشهرستاني في كتابه جمع القرآن ١/ ٧٤.

يحتاج إلى قرائن تاريخية تدل عليه، ووقائع مثبتة حتى يقال بأن الأمر هكذا. ولكن السيد الشهرستاني لم يورد في بحثه ذاك تلك القرائن.

لكنه يورد احتمال آخر ويذكر شواهد عليه، وأمثلة وهو أن هذا الأمر كان بتشجيع بعض الخلفاء وبعض كبار الصحابة ممن كان شخصيتهم الاجتماعية والسياسية كبيرة، لكن شخصيتهم العلمية لا تتناسب مع شخصيتهم الاجتماعية تلك، فإذا قرأ بعضهم آيات بغير ما أنزلت وقال مثلا: عظاما ناخرة، واعترض عليه بأن التنزيل ليس هكذا، هنا يتم الجواب بأن هذه قراءة أخرى غير تلك القراءة !! وقد أورد بعض الأمثلة والشواهد على هذا، فليراجع من يحب التفصيل رأيه في نفس الكتاب[1].

رأي الامامية

في رأي الإمامية أن الأمر كله لا يستقيم ولا يصح، وإنما يقولون تبعا لأئمتهم أن القرآن واحد نزل من عند الواحد وهو الذي تقتضيه الاعتبارات، فإن معنى كون القرآن محفوظا أن نسخته محفوظة وكلماته وألفاظه، فإنها التي يتفرع عنها كل خير، وإلا ليس المقصود أوراقه بل ولا المعاني بأي نحو حصلت؟ ولو فرضنا وجود قراءات عشر أو عشرين فأي حفظ هذا؟ وما الفرق بينه حينها وباقي الكتب السماوية التي تعرضت للتحريف؟.

إنه لا يمكن أن نتوقع مثلا أن جبرائيل مثلا أنه لما جاء بسورة الفاتحة قرأها سبع مرات على النبي، أو عندما نزلت سورة البقرة كذلك؟

لماذا حدثت هذه القراءات؟ يجيب الإمام الباقر عليه السلام، وإنما الاختلاف حدث

(١) جمع القرآن ١/ ٨٧.

من الرواة، فإذن الأصل انها واحدة ولكن عندما نقلت للرواة ومنهم للأقطار حصل الاجتهاد فيها وعدم الضبط وبالتالي الاختلاف.

وقد ذكرنا عند الحديث عن تاريخ القرآن أن قضية التشكيل للكلمات والتنقيط للألفاظ بدأت من بعد العقد السابع الهجري فمن ذاك الوقت بدء التوجيه إليها من شيعة الإمام عليه السلام كأبي الأسود الدؤلي وتلميذه يحيى بن يعمر العدواني وآخرين.

وإذا أردنا أن نعرف ما هو الاولى بالاتباع فهي ما قال عنه أبو عبد الرحمن السلمي: أقرأني علي بن أبي طالب القرآن حرفا حرفا، وهي التي ينتهي إليها حفص[١] عن عاصم بن أبي النجود.

فهذه القراءة هي المتعينة إذا ثبت بحجة شرعية اتصالها بأمير المؤمنين أو أحد المعصومين، وأما لو تردد الأمر بين قراءتين أو أكثر فقد ذكر الامام الخوئي[٢] رحمه الله أن مقتضى القواعد هو تكرار القراءة في الصلاة بهذه القراءات، ولا يكتفى بواحدة.. لكن حيث ورد الدليل بجواز القراءة بما هو قراءة معروفة بين الناس (اقرؤوا كما يقرأ الناس)[٣] أو (كما علمتم)[٤] فيجوز القراءة بما كان معروفا من القراءات في زمان المعصومين ما لم تكن شاذة غير منقولة بخبر صحيح.

(١) قال حفص: قال لي عاصم: ما كان من القراءة التي أقرأتك بها فهي القراءة التي قرأت بها على أبي عبد الرحمن السلمي عن علي.
(٢) البيان / ١٦٧.
(٣) الكافي ٢ / ٦٣٣.
(٤) المصدر السابق / ٦٣١.

التَدَبُرُ في القرآن الكَرِيم

قال اللهُ العظيمُ في كتابِه الكريم: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[2].

معنى التدبُر

التدبُر في اللغة يعني النظر إلى دُبُر الشيء. كُلُ شيءٍ في الحياةِ له وجهٌ يقابلك، ولهُ طرفٌ يكونُ دُبُرًا بالنسبة إلى ذلك الشيء. إقبال وإدبار، قُبُلُ الشيء ودُبُرُ الشيء. وهذا في الأمور التكوينية إلى الكلمات إلى غير ذلك.

المنزل له وجهٌ يقابلك وله دُبُرٌ تحتاجُ أن تَذهَبَ خلف المنزل لكي تنظر إليه، فلا تستطيعُ أن تنظُرَ إليه وأنت مُقَابِلٌ لهذا البيت.

(١) محمد / ٢٤.

(٢) النساء / ٨٢.

الكلام أيضًا ينطبق عليه نفسُ الفكرة، فالكلام لهُ منطوق - ألفاظ - ولهذهِ الألفاظ أبعاد وأعماق وما ورائِيات، بمعنى دُبُرُ هذا الكلام، ماذا يُراد وماذا يُقصد. هذا بالنسبة إلى الاشتقاق اللُغوي، ولذلك يأتي عادةً هذا التعبير في الأمور التي تحتاج إلى تَفَعُل. يُقال إذا هَمَمتَ بشيءٍ فتَدَبَر عاقبته، هذا الشيء له مُقدماتٌ أمامك، وله أيضا عواقِب، المقدمات لا تحتاجُ إلى جُهد لكنَّ عواقب ذلك الشيء تحتاج إلى جُهد، وتحتاج أن تتدبرها وأن تذهب وراءها. كما قلنا المنزل لِتَرى واجِهته فإنك لا تحتاجُ إلى شيء، ولكن لكي ترى دُبُرَه فإنك بحاجةٍ لتغير مكانك والذهاب لكي تراه. أي أمرٍ من الأمور فهو في ظاهره شيء، ولكنَّ عاقِبَتهُ ونتيجتهُ ونهايتهُ تحتاجُ إلى تأمُلٍ وتَدبُرٍ وتَفَكُر.

القرآن الكريم أيضًا هكذا، فأيُ إنسان -إذا كان عربيا- يستطيعُ أن يُلاحِظ الألفاظ فيه، مثلا «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ» شيءٌ واضح، هذه البسملة يبدأ فيها الله باسمه تعالى الذي هو الرحمن والذي هو الرحيم، وهذا لا يحتاجُ الشيء الكثير في فهم واجِهَتِه، لكن إذا أردت أن تتدبر في الأمر فستحتاجُ أن تَغُوصَ قليلًا في أعماقِ هذا الكلام، وأن تنظُرَ أدباره، وتنظر نتائجهُ وخلفياتِه.

أمثلة سريعة على التدبُر في القرآن الكريم

المثال الأول: لو أردنا أن نُطبقَ هذا الكلام مثلا على آية ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾، من الممكن أن يستنتج أيُ شخصٍ بالقراءةِ الظاهرية بأن هذا تساؤُلٌ في القرآن، ظاهِرُ الآية هو التساؤل، ولكن في حالِ أن شخصًا مُتدبِرًا قرأها فإنه سيكتشف من نفس هذا اللفظ أمورًا أخرى.

منها أن التدبُر أمرٌ محبوب ومطلوب ومرغوبٌ في القرآن الكريم لأن الله حرَّض

وحضَّ عليه ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ﴾ أي لماذا لا يتدبرُون، وهذا نوعٌ من التشجيع والحث على مِثل هذا العمل. هذه نتيجةٌ من النتائج غير الموجودة في الظاهر، والتي تحتاجُ إلى تفكيرٍ وتأمُل حتى ينتهي القارِئ لمثلِ هذا الأمر.

ومع التفكير بشكلٍ أعمق في الآية نستكشف أنه بالإضافة إلى أن التدبُر في القرآن الكريم أمرٌ محبوبٌ ومطلوبٌ من عند الله وإلا لما أُمُرَ بِهِ من قِبَلِه سبحانه، إضافةً إلى ذلك فإنهُ أمرٌ مقدورٌ عليه، ولو لم يكن كذلك لما أمرَ اللهُ به. فيَتَبَين من الآية أن هذا الأمر مُتَيَسِرٌ للإنسان.

ونستفيدُ أيضًا أنَّ الذي يُعيقُ الإنسان عن الوصولِ إلى معاني القرآن إنما هو إقفالُ العقل. حين يُقفِلُ الإنسان عقله فإن النورَ الإلهي لا يصلُ إليه. لو كان في منزلك نافذة ولكنها مُغلقة فإن الشمس والهواء لن يصلا إلى المنزل، بالرغم من أن الشمس تُشرقُ كل يوم، ولكن إغلاقُ النافذة سيكونُ سببًا في عدم وصول ضوء الشمس إلى المنزل. وكذلك نافذةُ عقل الإنسان إذا كانت مُغلقة فإن نور الله لا يصل إليها، طبعا القلوب في الآية تعني العقول، وليس عضو القلب، هذا شيءٌ من التدبُر والتَفَكُر في نهايات هذه الآية والذي يكشفُ للإنسان أمورًا مُتَعَدِدَة.

المثال الثاني: نأتي للآية الثانية ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن * وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. قد نستنتج من الآية أولًا أنَّ الإنسان مُطالبٌ بأن ينظُر في معاجِزِ الأنبياء، وأن يُفتشَ عن العقائد لأنهُ طُلِبَ منهُ التدبُر في أمرٍ هو إعجازي.

لو كان هذا القرآن من غير الله لَكَانَ فِيهِ اختلافٌ كثير، لكن لأنهُ ليسَ فيهِ اختلاف فهو من عندِ الله. هذه هي النتيجة التي نصلُ لها من خلالِ التأمُل في المعجزة، فإذن التأمُل والتفكُر في معاجز الأنبياء من الأمور المطلوبة من الإنسان.

الُمتدبِر أيضا بإمكانه أن يستنتج من هذه الآية أن غَيرَ اللهِ هو قَرِينٌ للنقص والعجز

والاختلاف في أفكارِهِ إلا إذا كان ذلك هو الله أو كان من قُوةِ الله، كما هو الحال في النبي والإمام المعصوم حيث لا يتناقض كلامُه ولا يتخالف. من كان دُونَ الله، ومن لم يُمدِدهُ اللهُ بقوتِه فهو مُؤَهَلٌ للاختلاف والاضطراب في كلماته وأفكاره، أما الله فهو بريٌء من ذلك. وهكذا كلما استطاعَ الإنسان أن يتأمل ويتدبر استطاع أن يستكشفَ أمُورًا جديدة، مع أن هذا الاستكشاف ليس ظاهرًا في الآيات وإنما هو موجودٌ في دُبُرِها، لذلك فالتدبُر هو أمرٌ مطلوب من الله في كلماتِه وآياتِه الُمنزلة.

التدبُر والتفسير بالرأي

بعضُ العلماء خالفُوا التدبُر وقالوا أنه ليس صحيحًا، وأنه لا ينبغي أن يكون لأنهُ ينتهي إلى التفسيرِ بالرأي. إذا بَدَأَ الإنسان بمطالعةِ القرآن الكريم وباستنتاجِ أفكارٍ من رأسِه فإن التفسير حينها يُعَدُ تفسيرًا بالرأي. وهذا مذمومٌ فقد ورد في الأحاديث «من فَسَّرَ القرآن بِرأيهِ فقد هَلَك».

إلا إن هذا الكلام غيرُ صحيح، فهناك فرقٌ بين التدبُر في القرآن وبين تفسيرِه بالرأي.

التدبُر ممدوحٌ ومطلوب كما في الآيتين السابقتين، بينما التفسير بالرأي منهيٌ عنه. الفرقُ بينهُما نعرِفُه من خلال المثال التالي: لو علمتَ أنَّ المطر سينزل، وصنعت قنواتٍ خاصة لهذا المطر تصل للمكان الذي تريده لمنزلك، حين يهطُلُ المطر من السماء فإنهُ سيجتمع في هذه القنوات ويصلُ لبيتِك دونَ سائِر الأماكن هذه حالة.

وفي حالةٍ أخرى أنت تُلاحظ مكان نزولِ المطر فتذهب وتزرع في هذه المنطقة التي ينزلُ المطرُ فيها.

الحالة الأولى أنت أعدَدتَ قنواتِ المطر وسيَّرتَ المطر إلى المكانِ الذي عينتَهُ أنتَ له، بينما في الحالة الثانية قُمتَ بالزراعة في المكان الذي ينزِلُ فيه المطر.

التفسير بالرأي هو الحالةُ الأُولى، المُفسّر من أولِ الأمر قامَ بتجهيزِ قنواتٍ واتجاهاتٍ مُعينة في عقله، ثم قام بتعبئةِ الآيات المباركة في هذه القنوات وعبث بها بمِزاجِه، وهذا خطأ. أما التدبُر فيعني أن الإنسان يسيرُ مع القرآن ويتبعه ويهتدي بِهُداه.

أذكُر هنا -ولَعَلّ هذا كان قبل ٤٥ سنة- كُنا في النجف الأشرف أيامَ حُكمِ البعثيين، وكان في ذلك الوقت مكتوبٌ في بوابة النجف على جدارٍ كبير هذه الآية ﴿فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ﴾. هذه الآية القرآنية المقصودُ منها يومُ القِيامة، ولكنها كانت موضوعةً بقصدِ أن هذه أيامُ البعثيين، وأنه هذه الأيام مذكورةٌ في القرآن الكريم، هذا يُعدُ من التفسيرِ بالرأي.

وهكذا عندما يقولُ الاشتراكيون مثلًا بأن المقصودَ من هذه الآية المباركة ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] أن هذا مبدأ اشتراكي مُحارِبٌ للرأسمالية، هنا هذا المُفسِر كان عندهُ قناة مُفصلة ومُجهزة قامَ بوضعِ الآيةِ فيها. وستأتي أمثلة ونماذج أكثر تفصيلا في موضوع مستقل.

كيفيةُ التَدَبُر

بعدما تعرّفنا على الفرق بين التدبُر والتفسير بالرأي، فإنهُ من المهم معرفةُ كيفيةِ التدبُر.

(١) التوبة / ٣٤.

أولًا إخلاصُ النيةِ لله عز وجل بأنه إذا هدانا سبحانه لشيءٍ ألا نُحَكِمَ فيهِ آراءَنا، وألا نأخُذَ بعضَ الكتابِ ونَترُكَ البعض الأخر. ينبغي للإنسان أن يُخلِصَ نيتَهُ لله سبحانه أنهُ عندما يهديه الله إلى أمرٍ أو فكرةٍ أو مفهوم أن يُتابِعَه سواءً كانَ معهُ أو ضِده، عليهِ أم معه.

ثانيًا التفكُر في كلماتِ الآياتِ المباركات. ننظُر للكلمة الموجودة في الآية ماذا تعني؟ وهذا طبعًا يقتضِي أن نتَدَبَر في الآيات الُمحكمة وليس المتشابهة والمتشابكة والتي ليست من مُستوانا، وإنما الآيات التي فيها منحىً أخلاقي أو عقائِدً بَيِنَة أو أحكامًا واضحة، هذه آياتٌ محكمات، وهي كثيرة في القرآن الكريم.

نتفكر في سبب اختيار كلمةٍ مُعينة دُون غيرها من الكلمات. تعلمون أن كلمات اللغة العربية أولا كُلما زادَ المبنى فيها زادَ المعنى أيضًا، مثلا كلمةُ «قَرُبَ» تختلف عن «اقتَرَبَ»، «حَمَلَ» تختلف عن «حَمَّلَ» مع أنها نفسُ المفردات ولكنَّ المعنى يختلف.

كمثالٍ من القرآن الكريم نذكُر الآية المباركة التي تقول ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[١] وفي موضِعٍ أخر آيةٌ أخرى تقول ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢].

أيضًا سُمِي بعضُ أعداء أمير المؤمنين بالقاسطين، والله يقول ان الله يحب المقسطين، فكيف يكونُ ذلك؟

يقولُ عُلماءُ اللغة أن «قَسَطَ» وفاعِلُها «قَاسِط» تعني «ظَلَمَ» وفاعِلُها «ظالِم»، لذلك المعنى في الآيةِ الأولى هو الظالمون، وعكسها تمامًا «أَقسَطَ» فهُو «مُقسِط» أي «عَادِلَ»، هنا تغير الفعل من ثلاثي إلى رباعي واختلف المعنى على إثرِ ذلك إلى

(١) الجن / ١٥.
(٢) المائدة / ٤٢.

التضاد، في هذه الحالة يحتاجُ الإنسان أن يُميزَ بين هذه الكلمات.

ذكرنا سابقًا أنه من ميزات اللغة اشتِقاقُها من الفعل الثلاثي غالبًا، فكُلما يزيدُ في الفعل شيء فإن معناهُ يتغير. الفعل «دَبَّر» مُختلفٌ عن «استَدبَرَ» وعن «تَدَبَرَ». كُلُ إضافةٍ وتغييرٍ في الصيغة تؤثر في المعنى، فيحتاجُ الإنسان أن يتفكرَ في هذه الكلمة لماذا استُخدِمَت في هذا المكان مع إمكانية استخدام كلمة أخرى فيه.

مثالٌ آخر نذكرُه في ما يرتبط بذبح الحيوان وتذكيته. تذكيةُ الحيوان لها أحدُ طريقتين إما الذبح أو النحر. النحرُ للإبل والذبحُ للشاة والخروف والطيور وما شابه. اختلف الناس في تذكية البقر لأنهُ ليس بحجمِ الإبل ولا بحجم الشاة، فهل يُلحق بالإبل أم يُلحقُ بالشاة؟ فعن«يونس بن يعقوب، قال: قلت لأبي الحسن الأول الكاظم عليه السلام: إن أهل مكة لا يذبحون البقرة، إنما ينحرون في لبة البقر، فما ترى في اكل لحمها؟ قال: فقال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لا تأكل الا ما ذبح.»[1] هنا كان بالإمكان أن يقول الله عز وجل «أن تنحروا» أو «أن تُذكوا» ولكن ما دام أنه سبحانه استخدم كلمة الذبح ليس غيرها، وهي مقرونةٌ بأمره تعالى فيتبين أن الذبحَ هو المشروع، وغيرُهُ يحتاجُ إلى دليل، طبعًا الأئمة عليهم السلام عندهم عِلمُ الكتاب، ولكن نحن نتعلم من طريقتهم.

ثالثًا: النظر لسياقِ الكلمة والمعنى التركيبي للجملة. كُلُ جُملةٍ تتكون من كلماتٍ ومن سياقٍ مُعين. ترتيبُ الكلمات بهذا الشكل هو الذي يجعلُ كلام الناسِ مُختلفًا فيما بينهم، نحن نتكلمُ بنفس الكلمات لكنّ ترتيبَ الكلمات يختلِف فتختلِفُ المواضيع على إثرها.

لذلك نحتاجُ أن نتدبرَ في السياق الترتيبي للجملة، ونتفكرَ في ارتباط الجملة

(١) وسائل الشيعة ٢٤/ ١٤.

ببعضها، هل هذه الجملة بعضها يرتبط ببعض بمقدمة وسبب؟ أي أن القسم الأول منها سبب والقسم التالي نتيجة؟ أو تِعداد؟ أو غيرُ ذلك؟

نذكرُ ما نُقِلَ عن الأصمعي - مع أن مقولات الأصمعي يُشكِكُ فيها بعضُ العلماء والسبب هو إمكانية أن يُنقلَ عنهُ كُلُ هذا النقل، لأن لهُ صولاتٌ كثيرةٌ في الأدبِ في مناطقَ مُتعددة من الحجاز واليمن والعراق وغيرها، على أي حال نحنُ نستفيدُ من أصلِ القصةِ هنا - يقولُ الأصمعي كُنتُ أقرأُ الآية المباركة «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ - واللهُ غَفُورٌ رَحِيم -» وكان بِجانبي أعرابي فقال «كلامُ من هذا؟» قلتُ «كلامُ الله» قال «لا يكونُ كلامُ اللهِ هكذا» فالتفتُ أني قرأتُهُ بشكل خاطئ، الُمفترَض أن تُقرَأ الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّه وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] قال الأعرابي هذا يكونُ كلامُ الله عز وجل، لأن هاتين اليدين سرقتا فقطعهُما اللهُ بِعزتِه وعَاقَبَهُما لِحكمتِه، اللهُ عزيز فأمر بقطعِهما من جهةِ العزةِ والقُوّة، واللهُ حكيم، قرّرَ بِحكمتِه هذا القانون حتى لا تسُود السرقةُ في المجتمع. وهذا كلامٌ صحيح.

وهكذا بالنسبةِ إلى غيرها من الآيات. قِيل أن أَحَدَ أصحابِ رسول الله ﷺ قرأ الآية المباركة «وَفَاكِهَةً وَأَبًّا» فَقال «أما الفاكهةُ فعرفناها، وأما الأبُّ فلا نعرِفُه، ثمّ لماذا هذا التكلف؟» أي ماذا يضُرُنا لو لم نفهم ما هو الأبّ؟ فسُئِلَ أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك فقال «في الآيةِ التي تليها - مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ -» متاعًا لكُم المقصود بها الفاكهة، وأنعامُكُم تحتاجُ الحشيش والتبن وهكذا فهذا هو الأب.

فسياقُ القرآن الكريم يُوضح لكَ المعنى فما كان هذا الرجل بحاجةٍ لأن يقُولَ بأن هذا تكلف، هُو ليسَ تكلُفًا وإنما أمرٌ مطلوب، لا سيما إذا كانت إمامةُ النَاسِ

(١) المائدة / ٣٨.

عندك، ولكن هذا عليُ ابن أبي طالب وصيُ نبينا محمد ﷺ.

أضِف إلى ذلك أن الكلمات التي جاءت في آيات القرآن البعضُ منها لهُ استخداماتٌ أخرى في آيات أخرى، فيتوجب علينا أن نتبين إن كانت تُفَسِرُها، تُعارِضُها أو تُقيدُها أم لا؟

مثلا يأتي في القرآن الآية المباركة ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ظاهِرُ الآية أن الناسَ سينظرُونَ إلى الله عز وجل يوم القيامة، وهذا ما استند عليه بعضُ أتباعِ المدارس الإسلامية الأخرى. أحدُ دُعاةِ هذه المدرسة -وله تسجيلٌ على اليوتيوب بهذا الكلام- يقولُ أكثر من هذا، فيقول حتى في الدنيا يستطيع الإنسان أن يرى الله عز وجل في منامِه، ويقول أنا كُنتُ أشُكُ في ذلك في السابق ولكن أنا الآن عندي يقينٌ بذلك لأنني أنا رأيتُه سبحانه ١٠ مرات في المنام !!.

نعودُ للآيةِ المباركة، ظاهِرُها أن العيونَ تنظُرُ إلى ربها، ولكن لو بحثنا في القرآن لرأينا الآية ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1] ونحن نقول أن القرآن الكريم قطعًا غيرُ مُتناقِض فلا يُوجدُ فيه اختلاف، فمن غير الممكن أن يقول تارةً «لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ» وتارةً يقول «إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ». لذلك نَحمِلُ «نَاظِرَة» على معنى آخر بتقدير محذوف كالقول بأنها إلى رحمة ربها ناظرة وإلا ستتناقضُ آيات القرآن الكريم.

وعلى هذا السياق ننظر هل يُمكنُ تفسير الآيات بآياتٍ وكلماتٍ أخرى في القرآن الكريم أم لا، إذا كانت تُفسِرُها فنرجِعُ إلى ذلك التفسير القرآني، وأمثالُ هذا كثير.

رابعًا التَفَكُر في بعض الضمائر والروابط في الآيات. كما في قوله تعالى ﴿وَلَا

(١) الأنعام / ١٠٣.

تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[١] سُفَهَاء هنا تعني من ليس لهُ تدبيرٌ في مالِه كاليتامى الصغار مثلاً إذا ورثوا مالا فالحكم الشرعي ألا نُعطيهم أموالهم حتى البلوغ والرشد «وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ« أي لا بد من البُلُوغِ والرُشد، أو يكون إنسان غير رشيد حتى وإن كان بالغًا، فالحكم الفقهي هنا ألا نضع المال في يده.

السؤال هنا هو لماذا قال الله سبحانه «أَمْوَالَكُمُ»[٢] مع أنها واقعًا «أموالهم» أي أموال اليتامى؟، هنا نستفيدُ من التدبُر، فالمال لهُ جهتان، جهةٌ شخصية وجهةٌ اجتماعية فهو جزءٌ من الدورةِ الاقتصادية في البلد، وبالتالي فهو جزء من اقتصاد المجتمع، والشاهدُ على ذلك قول الله عز وجل بعدها مباشرةً «الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا» فبهذه الأموال يقُومُ بِناءُ المجتمع. ومن هذا نستنتج أن هذا المال، الذي وإن كان لهُ جهةٌ شخصية، إلا أنهُ لهُ جِهةٌ اجتماعيةٌ عامّة. والدول الآن تتعامل بنفس هذا النظام، لو أراد مواطنٌ أن ينقُل ثروتهُ كاملةً للخارج فإن الدولة تحجُرُ على أمواله حتى وإن كانت مُلكُهُ الشخصي، لأن ذلك يُسبِبُ انهيارًا اقتصاديا.

أيضا غسيلُ الأموال ممنوع، حتى وإن كان الطرف الآخر راضيا بذلك، لأنه يُفسِدُ الاقتصادَ الحقيقي لصالح اقتصادٍ مُزيف. فإذن «أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا» لها صِبغَةٌ اجتماعية، وكُل هذا استفدناه من إضافة ضميرٍ فقط للكلمة.

---

(١) النساء / ٥.

(٢) البعض من المفسرين رأى أن (أموالكم بالفعل المقصود منه أموالكم الشخصية لا أموالهم، ولكن هذا غير ظاهر، فلا معنى لأن يعطي الإنسان أمواله الشخصية لراشد فضلا عن السفيه.. فقد يكون هنا النهي في غير محله لأنه من تحصيل الحاصل، وأما اعطاؤهم أموالهم فهو الحالة الطبيعية.. لذلك يمكن الأمر بها تأكيدا أو النهي عنها إلا بشروط كما حصل في الآية.

أيضًا «وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا» لم يَقُل الله سبحانه «وارزُقوهم منها» لأن «منها» تعني أن تقتطِعَ من هذه الأموال فتنقُص أو أن تستهلك من رأس المال لهذا اليتيم، بينما المطلوب هو أن تُنَمِيه اقتصاديا، والربحُ من هذه التنمية تُعطيه لهذا اليتيم، «ارزقه فيه» معنى ذلك أنك تتوسعُ في استثمار مالِ هذا اليتيم، وهذا أيضًا استفدناهُ من حرف جر في الآية.

خامسًا ذكرُوا أيضًا أن التدبُر قد يكونُ تدبُرًا موضعيا أو تدبُرًا في الموضوع بشكلٍ عام. هذا يعني أن تجمع كُل آياتِ التوحيد مثلا أو آيات النبوة ثم تتدبّر فيها كُلها.

سادسًا وهذا الأهم في كُلِ ذلك وهو أن يتواضع الإنسان في أنه لو أمرهُ القرآن بشيء أن يلتزم به، لو خطَّأَهُ القرآن في بعض أفكاره فإنهُ يأخُذُ به ولا يُصِرُ على أفكاره.

وأن يتواضع ولا يعلُو برأسِه «وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ» فالتكبُر ليس فقط تكبُرًا أخلاقِيًّا بل أيضا هناك تكبُرٌ في العلم. هذا الكِبر العلمي منبوذ.

يُنقل أنهُ في زمان الشيخ مرتضى الأنصاري، وهو أستاذُ أستاذ مراجعنا المعاصرين، ولديه الكثير من الكتابات والمؤلفات أشهرُها كتابان الرسائِل والمكاسِب، وكان من الزُهدِ والتواضُعِ والقداسةِ ما هو فوقَ العبارة، وكان يُدّرِسُ في النجف الأشرف، وكان لديه طالبٌ فهمُه ضعيف ولكنه كان دؤوبًا على الحضور للدرس، كان هذا الطالب كُلُ يومٍ يأتي للدرس ويخرجُ كما دخل، لا يستطيع حفظ شيء أو فهمه ، فقدرات الناس الذهنية تختلف، استمر الحال بهذا الطالب لعدة سنوات فاشتد به الأمر وذهب لزيارة قبر أمير المؤمنين عليه السلام متألما شاكيا الحال، وطلب منهُ أن يشفعَ لهُ عند الله ليفتحَ عليهِ أبواب الفهم، فلما خرج وذهب إلى بيته رأى في الليل في عالم الرؤيا، وكما ينقُل، أن الإمام عليا عليه السلام قد أتاه وقال له «أدنِ

أُذُنك» وقرأ في أُذُنِه «بسم الله الرحمن الرحيم».

وهذا ليس بقليل فقد ورد أن « بسم الله الرحمن الرحيم أقربُ للإسمِ الأعظمِ من سوادِ العين إلى بياضِها»، فقام الطالبُ من المنامِ مُستبشِرًا وذهب للدرس، فرأى أنه يستوعبُ مطالبَ الشيخ الأنصاري بالكامل، وفوق هذا لديه أسئلة وإشكالات عليه، فبدأ مناقشةَ الشيخ، وكثُرَت الأسئلة فاستغرب الحاضرون، في اليوم الثاني والثالث حدث نفسُ الشيء، فأصبح يأخذُ فترةً طويلةً من الدرس في المناقشات والمناظرات، وأصبح لا يقبلُ بكلامِ الشيخ إلى أن طَالَبَ بعضُ الطلبة الاستاذ الشيخ الأنصاري بإنهاءِ هذا الوضع لأن وقت الدرس يضيع، فالشيخ الأنصاري حفاظًا على الدرس طلب من الطالب الحضور إليه، فدنى الشيخ من أُذُنِه وقال له «من قرأ لك بسم الله الرحمن الرحيم في أذنك كان قد قرأ لنا ﴿إلى ولا الضالِّين -» أي لا ينبغي للإنسان أن يكون هكذا، فهو بحاجةٍ إلى أن يتواضع سواء كان عالم دينٍ أو مُثقف، وهذي نصيحة إلى الُمثقفين وإلى أمثالي من الطلبة، فلا تتصور أن ما لديك هو علمُ الأول والآخر، وأن غيركَ لا يفقهُ شيئًا.

ما يحتاجه المفسرون من علوم

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[1]

هذا الموضوع يتناول بعض ما يحتاج إليه المفسّر من أدوات علمية لكي يفسّر القرآن الكريم، حيث نشهد في هذه الفترة محاولات كثيرة لتفسير القرآن الكريم سواء كانت من أتباع مدرسة الخلفاء أو من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أو ممّن يوصفون بالحداثة فقد تجد بين فترة وأخرى يبرز شخص مع منهج خاص وأول ما يفكّر فيه البحث في القرآن الكريم وتفسيره.

هذا القرآن يقول الله عنه سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا القرآن مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ وفي هذا دلالة على الاستيعاب والسعة واللامحدودية، بالإضافة إلى أنّه كلام الله عز وجل، وكلام أي أحد ينبىء عن علمه، حتى قيل (تكلموا تعرفوا)، فإذا كان هذا الكلام كلام الله سبحانه وتعالى فهو مرآة علمه أو لبعض علمه وليس تناوله أمراً سهلاً، ولعل الناظر يقول أنّنا سبق أن أكّدنا على ضرورة التدبر وأنّه مطلوب من

(١) الزمر / ٢٧.

عامة الناس لا سيما أنّ القرآن قد يسّر للذكر، فكيف نقول الآن أنّ علم القرآن عظيم وكبير وتفسيره يحتاج إلى مقتدر بينما قلنا في وقت سابق أنّ التدبر في متناول عامة الناس الذين يعرفون العربية ألا يوجد تضاد بين القولين؟

والجواب: أن التدبر: هو محاولة التفهّم لأجل نفسك لكن لا تستطيع أن تقدّم ما تتدبّره هذا باعتباره وصفة لعامة الناس وهذا تراه في المثال الطبيعي مثلاً عندما يصاب الإنسان بسخونة أو بوجع في بدنه يبتكر أشياء مثل الزهورات أو قد يخلط أشياء طبيعية يشربها لنفسه ولا يمكن لأحد أن يقول له أنت مخطىء وقد تعاقب، لكنه إذا فتح لنفسه مطبا في هذا المجال وبدأ بعرض علاجاته وأدويته للناس هنا يقال له إذا أخطأت ستعاقب، وإذا تصدّيت من غير أهلية لهذا الأمر تحاسب..

كذلك بالنسبة لأمر التدبر والتفسير، فالتدبر هو أن يفكّر الإنسان و يتأمل في معاني الآيات لنفسه لكي يتفهّم ويعمل على طبقها، أما التفسير إذا جاء يفسّر للآخرين ويرشدهم لفهم القرآن بهذا النحو أو بذاك، هنا يسأل هل هو مؤهل أو غير مؤهل؟ فإن أخطأ يترتّب على ذلك نوع من المحاسبة.

فإذن يختلف الأمر في قضية التدبر عنه في قضية التفسير؛ التدبر أمر شخصي يهتدي به ويتأمّل ويتفكّر القارىء لنفسه، وأما التفسير هو صرف وصفة علاجية للناس ولهذا يتوجّب أن يكون المفسّر ذا قابلية ومؤهلات وعلوم يمكن من خلالها الاطمئنان لمعرفته بتفسير القرآن الكريم.

فما هي إذن العلوم التي يحتاجها من يمارس التفسير للقرآن الكريم؟

١. اللغة العربية وما يتصل بها من علوم الصرف والبلاغة، المفسّر لابدّ أن يكون عارفا باللغة العربية في نحوها من حيث ضبط الحركات الإعرابية للفاعل والمفعول، والجار والمجرور وغيرها حتى يعرف وجه الترابط بين الكلمات،

كما أنّه بحاجة لمعرفة قضايا الصرف والاشتقاق، ينظر لهذه الكلمة مشتقة من أين فقد يشتبه الأمر على الإنسان ويختلف المعنى بحسب الاشتقاق، ينقل الشيخ السبحاني وهو أحد المجتهدين في قم لديه كتاب في القرآن الكريم (ولم أحصل على الأصل لذلك أرجعه إلى هذا الكتاب) يقول هذا المستشرق الألماني فلوجل (ت ١٨٧٠ م)، ولديه كتاب حول القرآن الكريم و آخر حول تاريخ العرب وآدابهم، في الكتاب الأول حول القرآن الكريم عندما حاول أن يفسّره نقل بعض الكلمات فلم يعرف اشتقاقها الصحيح الأصلي ومن الطبيعي أنه سيشتبه عليه المعنى إذا لم يعرف الاشتقاق، فهو عندما وصل إلى آية (إِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ) قال: (مرضى) اشتقاقها من الرضا رضي يرضى مرضيًا ومرضى، بينما من الواضح أنّ اشتقاق (مرضى) من كلمة (مرض يمرض فهو مريض وهم مرضى) أمّا تلك فهي رضي يرضى فهو مرضي وهو راضي فإن اختلط على أحدهم الأمر.. ربما يقول وإن كنتم مرضى يعني إن كنتم مرضي عنكم أي محل رضا من الآخرين.

وكذلك في مثل قوله تعالى فيما يرتبط بنساء النبي (وقرن في بيوتكن) (قرْن) هي مشتقة من (قرّ يقرّ مستقرٌ وقار) يعني (أقرْرن) ابقين في بيوتكن وليكن لديكم استقرار في البيوت، لكنّه لم يفهم الاشتقاق الصحيح منها وقال (قرْن) من (الاقتران قرن يقرن فهو مقترن) وهذا المعنى يختلف عن ذلك المعنى، وهذا الاختلاف في تفسير الكلمة ناشيء من عدم معرفته بتصريف الفعل، إذ أنّ كثيرًا من المستشرقين لغتهم العربية ليست أصيلة ولم يستطيعوا معرفة جهات البلاغة والاشتقاق فلجأوا للتفسير غير الصحيح، لذا يجب أن يكون المفسّر على دراية بعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة، لأنه بعدم معرفته سيخرج بنتائج غير صحيحة وقد يضلّل الآخرين بهذه النتائج.

٢. لا بدّ أن يتعرّف على معاني هذه الألفاظ ولو بالرجوع للمعاجم اللغوية، ولا بدّ أن تكون لديه القدرة على اكتشاف المعاني الأصوب والأصلح، فإن لم يكن لديه القدرة على فهم هذه الألفاظ ومعانيها ولم يكن لديه القدرة على ترجيح المعاني الموجودة في كتب اللغة عندئذ لا يستطيع في هذه الحالة أن يصبح مفسرًا مثلاً في قول الله عز وجل ﴿وَعَصَىٰٓ آدَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.. والكثير يسأل عن هذه الآية ويقول بأنكم تقولون بعصمة الأنبياء فكيف عصى آدم ربه وغوى؟ فكيف يكون معصومًا؟

(عصى) في اللغة العربية في أصلها بمعنى مطلق المخالفة والمخالفة قد تكون في أمر واجب وجوبًا تكليفيًا، وقد تكون لأمر إرشادي، وقد تكون لشيء مستحب، وقد تكون نصيحة، هنا لا تؤخذ كلمة بالمعنى الظاهري عصى من العصيان، بل بمعنى المخالفة وهنا خالف النصيحة، ومخالفة النصيحة لا تؤدي إلى نار جهنم، فلو خالفنا نصيحة الطبيب مثلاً عندما نصحنا بترك السكريات لاحتمال الإصابة بالسكر فهل مخالفة هذه النصيحة تعتبر عصيانًا تستحق عليه دخول نار جهنم؟ بالطبع كلا، إذًا معنى (عصى) في الآية بمعنى خالف النصيحة، ويسمى عصيان في اللغة العربية لكنه مخالفة لأمر ارشادي، وكذلك (غوى) هي بمعنى الغواية أي الضلال الموجب للعذاب، لكنّ لها معنى الخيبة والخسران والفساد والجهل، لكن بأي معنى استخدمها القرآن الكريم هل بمعنى الخيبة وفساد الأمر وعدم استمرار آدم في الجنة والبقاء فيها (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) .

إذن لا بدّ من الرجوع إلى اللغة العربية ومعرفة معاني الكلمات ودلالاتها التي قد تجعل المعنى مختلفا ، وبالتالي سيكون قادرًا على اختيار المعنى الأصوب والأصلح والأنسب للآية الكريمة.

٣. ما يرتبط بسنة نبينا محمد ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام كما يذهب إليه الإمامية، حيث أنّ هناك قسما ممّن يمارس التفسير ليس لديه معرفة بسنة النبي ﷺ فيقول أنّ الصوم يختلف عن الصيام ولكنّ رسول الله استخدمهما بنفس المعنى فهل أنّ النبي في اصطلاحه يختلف عن اصطلاح القرآن الكريم أو أنّه ما كان يعرف أنّ الصوم يختلف عن الصيام وأنتم أتيتم واكتشفتم هذا مثلًا، هذا كلّه ناتج من عدم الاطلاع أحيانًا وعدم القدرة على تحقيق سيرة وسنة النبي ﷺ وهو الأكثر.

إنّ الإنسان لكي يستفيد من السنة بمعنى الحديث أو فعل النبي أي سيرته ﷺ فهذا يحتاج إلى طي مقدمات رجالية ومعرفة بعلم الرجال وعلم الدراية، وكيفية الجمع بين الأخبار والروايات المتعارضة وهذا يرتبط بالأصول فإذا كان أحدهم على جهل بهذه الأمور فكيف يضع نفسه موضع المفسّر.؟

فمن الأفضل الابتعاد عن الخوض في هذا المجال لعدم الدراية به، ولكنّ البعض لا يعتني بالسنة ويقول بعدم الحاجة إليها فتجده لا يعتني بالروايات، وقد ذكرنا في ما سبق أنّنا لا ننصح عامة الناس بالرجوع إلى التفاسير الروائية لوجود الاختلاف فيها، ولوجود روايات غير تامة السند فيها فهناك قسم منها غير منقّح، ولكن بالنسبة لمن يتصدى للتفسير يفترض أن يكون مستواه فوق المستوى العام الموجود لدى أغلب الناس فيجب أن يكون لديه القدرة على فهم الروايات، وعلى تحقيق الصحيح منها وغير الصحيح، ولديه القدرة على الجمع بين هذه الروايات لو حصل فيها تخالف.

بل الأكثر من هذا يحتاج بعضهم إلى رأي أصولي في أنّه هل يعمل بالرواية الثابتة بخبر الآحاد في التفسير أو لا؟

وبالرغم من كونه بحثا تخصصيا، وليس بناؤنا في هذه المواضيع التي نعالجها ـ مع العموم ـ على الحديث التخصصي، وإنما نحن ضمن المستوى الثقافي العام.. فبمقدار ما يرتبط بموضوعنا نشير إليه.. فنقول:

هناك مسلكان في علم الأصول

١. الأول يقول بأننا لا نعمل بأخبار الآحاد في التفسير وإن كانت صحيحة، ومن أصحاب هذا الاتجاه العلامة الطباطبائي صاحب الميزان يقول نحن لا نستطيع الاستفادة من الروايات الصحيحة إلا بمقدار التأييد والاستشهاد لا بمقدار الاستدلال، وسبب ذلك كما يقول لأنّ حجية خبر الثقة إنما ثبتت في الفقه، بجعل شرعي (من خلال الآيات والروايات) وإثبات حجيتها في التفسير والقرآن يحتاج إلى دليل، والأصل فيه أنَها غير حجة فإذن لا نستطيع الاستفادة منها بعنوان الدليل في التفسير.

٢. الثاني يقول بأن حجية خبر الثقة ثبتت ببناء العقلاء وسيرتهم وقد أمضي ذلك شرعا، وما هذا شأنه لا يختلف فيه الحال بين الفقه والتفسير وسائر المواضيع.. وقد التزم السيد الخوئي والشيخ معرفة وغيرهم ممّن كتب في التفسير والأصول.

فماذا يصنع من لم يخض في هذا البحر؟ ولم يعرف أولياته؟

لذا لابدّ من التعرّف على سنة رسول الله وكلام المعصومين إما لأنها حجة ودليل كما هو المسلك الثاني، أو لكونها شاهدا وقرينة ومؤيدا كما هو المسلك الأول، بل هي سيتساعد المفسر على معرفة بيئة النزول وأسبابه.

وقد جمع مؤلفون روايات عن رسول الله صلى الله عليه آله فيما يرتبط بتفسير

القرآن الكريم، فإن السيوطي صاحب كتاب (الإتقان في علوم القرآن) قد جمع مئتين وعشرين حديثًا عن رسول الله في شؤون القرآن الكريم منها ما هو في بعض أسباب النزول، ومنها ما هو توضيح لبعض الكلمات، ولا ريب أن عدد (٢٢٠) حديثًا هو قليل جدًا بالنسبة إلى(٦٢٣٦) آية في القرآن الكريم لذلك فإن أصحاب مدرسة الخلفاء توسّلوا بأقوال الصحابة.

منهج الإمامية أنّ كلام المعصومين يأتي بعد كلام رسول الله وأنّ الصحابي لا يعتبر كلامه حجة إلا إذا أنهاه للنبي وكان ثقة، بينما المعصومون كلامهم نفس كلام رسول الله ويعامل نفس المعاملة فإذا تمّ من حيث السند يعتبر حجة، فلديهم بناء على هذا عدد عظيم من الروايات المرتبطة بالقرآن الكريم جمع منها السيد هاشم البحراني في كتابه تفسير البرهان أكثر من خمسة عشر ألف حديث كما ذكر.

٣. العلوم الرديفة: يحتاج المفسر إلى معرفة علوم أخرى مثل علم الفقه، إذ أنّه يوجد في القرآن الكريم على الأقل خمسمائة آية حول الأحكام، والتحقيق عند العلماء أنّ العدد أكبر من هذا وإنّ الأمر أمر اجتهادي، فقد يرى شخص أنّ هذه ليست من آيات الأحكام ويأتي مجتهد آخر ويقول أنّها من آيات الأحكام، لكن لو فرضنا ان العدد هو هذا فهو يعادل أقل من عشرة بالمئة من آيات القرآن الكريم وهي أحكام فقهية، فإذا لم يكن هذا المتحدث فقيهًا وكان قصارى ما حصل عليه هي شهادة في الرياضيات أو الفيزياء وأمثال ذلك وليس له معرفة واطلاع على الفقه وأحكامه فكيف يستطيع أن يستنبط من القرآن الكريم؟ أو أن يفسّر من القرآن الكريم أحكامًا فقهية في غاية الدقة وبعضها محمول على بعضها، و بعض ظاهرها يخالف ظاهر البعض الآخر، وبعضها مجمل و بعضها الآخر مبين لذلك المجمل، وهذه الأمور بحاجة إلى دراسة عميقة، وكون المتحدث لديه شهادة في الدكتوراه لا يعني أنّه

أصبح فقيهًا حتى يستطيع التحدث في الفقه من خلال القرآن الكريم فهذا من أصعب الأمور.

كما يحتاج إلى علم الكلام لأن جزءًا كبيرًا من القرآن يتحدّث عن العقائد كقضايا التوحيد وصفات الله وعن مسائل النبوة وقضايا القيامة، ومسائل الجبر والاختيار، وعن قضايا عدالة الله، فإذا لم يكن المتحدث على معرفة بعلم الكلام والعقائد والجدل فيها والبراهين القائمة كيف يستطيع أن يفكّك هذه الآيات.

لذلك نحن لا ننظر نظرة ايجابية تامة لمن يتصدّى لتفسير القرآن الكريم ويعرضه للعموم باعتبار أنّ هذا معنى الآيات المباركات ولم يكن قد استكمل عدة البحث وعرف العلوم التي تتدخل في قضية التفسير كالتي ذكرناها وأمثالها ، لأنه قد يأتي بفكرة أو بفكرتين يصيب فيها لكن أصل المنهج لديه غير صحيح، وهذا يشبه ما ورد عن رسول الله ﷺ وهو أيضًا مروي عن الإمام الحسن عليه السلام (من فسّر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ) ولكن إذا استكمل الإنسان عدّته وأصبح قادرًا على مثل هذا الأمر فلا مانع من ذلك، وقد وجدنا في علماء الأمة من تصدى لهذا الأمر وكان على كفاءة فيه.

هل علماء الإمامية معرضون عن القرآن؟

ولا بدّ أن أشير إلى نقطة مهمة وهي أنّ البعض يقول أنّ اهتمام الإمامية بالقرآن الكريم وتفسيره ليس واضحا فيظهر منهم الهجران وعدم الاهتمام بالقرآن وتفسيره!!

وهذا الكلام الذي طار به مخالفوهم فرحا، ورقصوا على أنغامه جذلاً، وزادوا في طنبوره نغمة !! تنقصه الدقة فلو نظرنا إلى عدد كتب التفسير التي ألّفها علماء الإمامية وذكرها العلامة الأغا بزرك الطهراني، في كتابه الذريعة في أحد مجلداته

أكثر من سبع مئة [١]عنوان تفسير صدرت من أقلام علماء الإمامية، و هذا ليس بالشيء القليل بالمقارنة إلى كل التفاسير التي خرجت في الأمة الإسلامية مع ملاحظة عدد ونسبة الشيعة الإمامية في المجموع الكلي للأمة..

من هذه التفاسير الكثيرة نورد بعض الأسماء لتوجيه المؤمنين لو أراد بعضهم مراجعة تفسير، ولن نستطيع التعرّض إلى جميع التفاسير فهي كثيرة جدا ومتنوعة للغاية، فالغرض هو إيراد أمثلة على هذه التفاسير ضمن المستوى الثقافي العام للناس ومما هو متوفر في هذه الفترة في أكثر المناطق.

والتفاسير على أصناف:

١. الأول التفسير المختصر الذي يكتب في حاشية القرآن وهذا مريح عند كثير من الناس حيث أنّهم لا يمتلكون الوقت ولا الرغبة أحيانا في تصفّح المجلدات والبحوث العميقة بل يريد شيئًا في يده بحيث يتلو القرآن وبهامشه شرح الكلمات الصعبة عليه وهنا يمكن الاشارة إلى:

- تفسير المرحوم السيد عبد الله شبر، وهو تفسير مشهور حيث كتب تفسير كامل القرآن على حاشية القرآن يعني تقرأ في الوسط المتن وعلى الجانبين معاني الكلمات وفي بعض طبعاته، مقدمات حول القرآن (للعلامة البلاغي)، وقد طبع هذا التفسير طبعات متعددة، وهو من جزء واحد وصفحاته عدد صفحات القرآن الكريم تقريبا.
- تبيين القرآن للمرحوم السيد محمد الشيرازي أيضا ينهج نفس المنهج،

(١) الذريعة – آقا بزرگ الطهراني – ج ٢٠ – الصفحة ٦ ترجمة المؤلف (.. استطاع ابنه على نقي المنزوي ان يطبع المجلد الرابع بطهران. وهو مجلد اشتمل على ذكر ٢٣٠٤ كتب، كان منها ذكر ل ٧٠٠ تفسير من تفاسير الشيعة للقرآن.

في الوسط متن القرآن الكريم وعلى الهامش توجد الكلمات ومعانيها وهو جزء واحد وهدف التفسير واضح من اسمه.

- أوضح البيان في تفسير القرآن للمرحوم الشهيد السيد عباس الموسوي أيضا نفس المنهج تقرأ القرآن الكريم في الوسط وعلى جانبيه توجد معاني الكلمات.

٢. الثاني تفاسير مفصّلة تتألف من مجلدات [١] وهذه مناسبة لمن يحب مزيدا من الاطلاع والتحقيق، منها ما خرج باللغة العربية، ومنها باللغة الفارسية ولغات أخر، وليست هذه الأخيرة محل ابتلاء، فمنها:

- مواهب الرحمن في تفسير القرآن للمرحوم السيد عبد الأعلى السبزواري المتوفى سنة ألف وأربعمائة وأربعة عشر، وهو من أعاظم العلماء وقد ذكرنا عنه شيئًا عند الحديث في قضية النظريتين المتعاكستين في موضوع علم التجويد، وهذا التفسير يقع في ثلاثين مجلدًا.

- تفسير الميزان للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي وهو معروف ومشهور ومنتشر، ويعتبر من التفاسير القيمة والمفيدة والنافعة لطبقات مختلفة حتى المتخصصين في الحوزات يستفيدون من هذا التفسير للعلامة الطباطبائي.

- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي مع

(١) ملاحظة عامة في اختلاف عدد المجلدات، قد يكون تفسير بحسب طبعة ايران مثلا في عشرين مجلدا بينما هو في طبعة بيروت في ثلاثين إما لجهة اختلاف الطباعة أو لوجود تحقيق وتعليق وتهميش.. فليلاحظ.

سبعة من تلامذته وهو أشبه بالتفاسير الجماعية ولكنه تأليف وصياغة الشيخ ناصر مكارم الشيرازي وهو كتاب منتشر ومشهور في ٣٠ جزءا.

وهذه الكتب ميزتها أنّها لا تركّز كثيرًا على البحوث المعمقة باستثناء الميزان ففيها لمسة اجتماعية و توضيحات فقهية ومسائل عقائدية وعقلية و قضايا تاريخية.

- تفسير من هدى القرآن للسيد محمد تقي المدرسي وهذا من التفاسير التي هي أشبه بتطبيق لمبادئ التدبر على تفسير القرآن الكريم ومؤلفه يصرّح بذلك في بدايات التفسير.
- تفسير النور للشيخ محسن قراءتي ويقع في عشرة مجلدات وهذا المؤلف ميزته أنه مشتغل بالتخصّص القرآني منذ أكثر من نصف قرن.
- تفسير الكاشف للمرحوم الشيخ محمد جواد مغنية في ستة مجلدات، وكتب الشيخ مغنية تتميّز بأنّها ذات بيان سلس سريع الوصول إلى فئة الشباب.
- ويوجد غيرها من التفاسير الكثير بعضها مطوّل ومفصل، وقد وصلت إلى خمسة وستين مجلدًا وهذا يخرج عن مراجعه المستوى العام، فهذا الأمر وأمثاله يشير إلى أنّ ما قيل من قلة اهتمام الإمامية بقضية القرآن والتفسير ليس دقيقا أو تاما، إذ أنّ الإمامية يرون القرآن الكريم عدلًا أكبر وثقلًا أكبر، والعترة (الأئمة) التي يُسمّون باسمها هي الثقل الأصغر فكيف لا يهتمون بالقرآن الكريم؟

أحكام فقهية مرتبطة بالقرآن

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

نتناول في هذا الموضوع بعض الأحكام التي نرتبط بالقرآن الكريم، انطلاقا من هذه الآيات في سورة الواقعة وهي من السور التي ورد الحثّ على قراءتها كثيرًا[2]، وندب إلى حفظها، حيث يستشعر الإنسان تلك المعاني التي وردت فيها لا سيما مشاهد يوم القيامة وما بعدها من نعيم الجنة و من مشاهد السوق إلى النار، وقضايا المحشر والبعث وغير ذلك.

هذه السورة العظيمة تنقل الإنسان من غفلته عن ذلك العالم وانشغاله بأمور الدنيا لتفتح له نافذة على ذلك العالم، الذي سيصير إليه، حتى يتفكّر الإنسان في ذلك المصير ؛ ذلك لأنّ نسبة تفكيرنا في عالم ما بعد الحياة الدنيا ، هي أقل بكثير

(١) الواقعة / ٧٧ـ ٧٩.

(٢) عن الإمام الصادق ﷺ قال: «من قراء في كلِّ ليلة جمعة الواقعة أحبَّه الله وأحبَّه إلى الناس أجمعين، ولم يرَ في الدُّنيا بؤساً أبداً ولا فقراً ولا فاقةً ولا آفةً من آفات الدنيا، وكان من رفقاء أمير المؤمنين ﷺ، بحار الأنوار ٨٩/ ٣٠٧.

مما يستحق، فلوكنا نعيش في هذه الحياة الدنيا مثلاً ثمانين أو تسعين سنة ومع ذلك فإنّنا في كل يوم جلّ همنا في الكسب والعمل والدراسة واللباس والبيت والزوجة والأبناء، وهذه القضايا تستوعب تفكيرنا، مع أنّ مدّة الحياة التي سنعيش فيها في هذه الدنيا، هي ذلك المقدار القليل بينما في ذلك العالم الآخر ستكون الحياة خالدة لملايين السنين ومع ذلك قد لا نفكّر في ذلك العمر بمقدار واحد في المئة نسبة إلى مقداره.

تأتي سورة الواقعة لتنقل الإنسان إلى التفكير في ذلك العالم الآخر و إلى المستقبل الممتد، الذي ينتظر الإنسان فمن المناسب أن يكثر الإنسان من قراءة سورة الواقعة، و من المناسب إذا استطاع أن يحفظها، أو أن يحفظ بعضها، بل ويتأمّل ويتدبّر معانيها ويتفكّر في تلك الصور التي تقدّمها عن ذلك العالم.

يقول الله تعالى عن القرآن الكريم في هذه السورة (إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون) أولّ ما يلفت النظر هنا أنّ الله سبحانه قد وصف القرآن الكريم بأنه كريم، كلمة (كريم) في اللغة العربية لها معنى ينشق إلى شعبتين:

المعنى الأول:

كرم الذات أي أن يكون الشيء ذا قيمة عالية، أن يكون كريمًا بمعنى جامعًا للصفات المطلوبة.

المعنى الثاني:

يرتبط بالصفات، أي كرم الصفات.

قد تأتي إلى حجر من الأحجار تقول له بأنّه من الأحجار الكريمة، ماذا يعني أنّه من الأحجار الكريمة؟ أي أنّ حجمه بمقدار عقدة الأصبع لكنه يساوي ألف ريال

أو ألفي ريال، وقد تشتري شاحنة وزنها أربعة أطنان فيها من الحجر العادي لكنّ ثمنه ثلاثمئة ريال، فما الفرق بين هذين النوعين من الحجر، إنّ الحجر الكريم كريم بذاته له قيمة في ذاته وله خاصية تجعله حجرًا كريمًا، هذا بالنسبة إلى كرم الذات.

بينما كرم الصفات قد تقول عن إنسان بأنّه كريم، فهو تارة كريم لكرامة في نفسه لا يجعل نفسه في ذلة، لا يتناول الأشياء التي تهين شخصه، بل يكرم نفسه عن أن يوصلها إلى مواقع الهوان، لا يسلم نفسه لشهوة، ولا لطاغية يفرض عليه شيئًا، كما قيل في صفات الإمام الحسين عليه السلام أنّه (كريم أبى شم الدنية أنفه) لا يشمّ رائحة الدنية والخضوع.

وقد يكون كريمًا بمعنى السخاء والبذل واليد المفتوحة، إذن قد يكون ناظرًا إلى خاصية في ذات الشيء فتجعله صاحب قيمة عظمى، وقد تكون ناظرة إلى وجود صفات أخلاقية مثل كرامة في النفس، أو كرم في العطاء، والبذل.

(كريم) كلمة تجمع كل هذه المعاني، وقد استعملها الله سبحانه لوصف القرآن الكريم، فقال: (إنّه لقرآن كريم) أي إنّ ذات هذا القرآن فيه صفة تجعله عالي القيمة، قد يكون لأجل أنّه كلام الله عز وجل، و قد يكون لأجل أنّه يهدي للتي هي أقوم، وهذه الصفة الذاتية له تجعله صاحب قيمة عظيمة جدا.

وأيضاً هو كريم بمعنى البذل والسخاء نظرًا لأنّ عطاء القرآن الكريم لمن يقرأه لا حدود له، حيث أنّ وجود التفاسير التي وصل بعضها إلى سبعين مجلدا دليل على عطاء القرآن الكريم، حيث أنّه يفتح للمتأمل الآفاق ويفتح أمامه أبواب خزائنه، وهذا العطاء السخي النافع للناس ليس لزمن دون زمن، وانما مستمر ومتجاوز للأزمنة مثلما ورد في الحديث الشريف (عن الرضا، عن أبيه عليهما السلام إن رجلا سأل أبا عبد الله عليه السلام ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة؟ فقال: لان

الله تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة ما بال هذا القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلا غضاضة)[١].

كلمة (كريم) وصف الله بها نفسه أيضًا، فهي من صفاته الحسنى فلا ريب أنّ الذات الإلهية هي صاحبة القيمة الأعلى، الله سبحانه وتعالى هو رب الكائنات، وأي سموٍ هو أسمى من هذا !، وأيضًا بمعنى العطاء والسخاء (يا من لا تزيده كثرة العطاء إلا جودًا وكرمًا).

وأيضًا وصف نبيه ﷺ بهذه الصفة إذ قال ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ * قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾[٢]، هنا كلمة كريم ليست عائدة على القول، مع أنّ القول وهو القرآن هو قول كريم، وإنما كلمة كريم هنا عائدة على الرسول لأنهّا لو كانت عائدة على القول لكان حقها أن ترفع، حيث أنها ستكون صفة للمرفوع، ولكنها صفة للرسول فكانت مجرورة (إنّه لقول رسول كريم)، فكريم هنا صفة للرسول، وليست صفة للقول.

النبي المصطفى ﷺ أيضًا يجمع كرامة الذات وعلوها، شخصيته شخصية مكرّمة و معظمة و كريمة ذات كرامة، وأيضًا ذات كرم وسخاء وعطاء كما تشير لذلك سيرته وأخلاقه.

وقد وردت هذه الصفة على لسان ملكة سبأ عندما قالت (إنّه ألقي إليّ كتاب كريم) لكنّ هذه الصفة من ملكة سبأ لا من الله سبحانه وتعالى وإن كان الكتاب له كرامة إذ أنّه من نبي الله سليمان عليه السلام، ونلاحظ في كلا الآيتين أنّهما بدأت بحرف

(١) بحار الأنوار ١٧/ ٢١٣ عن عيون أخبار الرضا، وغضاضة يعني نضارة وطراوة.
(٢) الحاقة ٤٠ـ ٤١.

التأكيد (إنّه) وهو يأتي في الجملة بهدف التأكيد، إضافة لوجود اللام في قوله (لقرآن) ويستطيع أن يقول (إنّه قرآن) لكن اللام تأتي لزيادة التأكيد.

(في كتاب مكنون) أي كتاب محفوظ ولوح محفوظ أي مستور لا يصل إليه نقص ولا تحريف ولا تزييف ولا غير ذلك، إلى أن أذن الله سبحانه وتعالى فأنزله. في الآية الأخيرة، فقال: (تنزيل من رب العالمين). (لا يمسّه إلا المطهرون) فما معنى لا يمسّه إلا المطهّرون ؟

يمكن أن تفهم بأكثر من منحى، وكلاهما قد وردا في الروايات

١. منحى عقائدي.

٢. منحى فقهي.

المنحى العقائدي

ينتهي إلى معنى: أنّ القادر على استخراج أعماق القرآن الكريم، هم من طهّرهم الله عز وجل وهم محمد وآل محمد.

يقول العلماء هنا الجملة هي جملة خبرية، أي أنّها تخبر عن أنّ القادر على ملامسة أعماقه واستخراج بطونه هم المطهرون، و(المطهّرون) غير(الطاهرون)، فالذي يتوضّأ يصبح طاهر، لكنه لا يصبح مطهّرا، بينما المطهّر وصفٌ وُصِف به الأئمة المعصومون في آية التطهير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1]. فهم المطهّرون:

مـطـهّـرون نـقـيـات ثيابهم تجري الصلاة عليهم أينما ذكروا

(١) الأحزاب / ٣٣.

فالمعنى الأول إذن معنى عقائدي وإخبار عن أنّ الذي يمسّ القرآن الكريم هم المطهّرون فقط، وليس الطاهرين وهم الناس العاديون فهم يمسّون القرآن الكريم، ولكن من يستطيع أن ينفذ إلى أعماقه، ويعرف معانيه، ومفاهيمه بتمامها، هم من طهّرهم الله.

وبالنسبة لكلمة (يمسّه) تختلف عن يلمسه من الملامسة الظاهرية، فالفعل: مسّ استخدم في القرآن الكريم على عدة أنحاء:

١. المواقعة بين الزوج والزوجة، حيث استخدمها في أكثر من موضع، استخدمها في آية الظهار (فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا) والظهار هو أن يقول أحدهم لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، و معنى ذلك: أنّه حرّمت عليّ زوجتي كما هو حرام علّى ظهر أمي، وحتى لا يعود الإنسان إلى مثل هذا الظهار فرضت عليه في الشريعة عقوبة ألا وهي أنّه لا يجوز له جماع زوجته إلا بتحرير رقبة، (من قبل أن يتماسَا) أي يمارسا العلاقة الزوجية.

٢. الملامسة بالبشرة أي مسّ بشرته، مثل قول الله عز وجل في قضية السامري عندما حاول أن يغوي قوم بني إسرائيل بعد ذهاب موسى فكان عقوبته كانت قوله (إنّ لك في الحياة أن تقول لا مساس) أي أنّك ستذهب ولن يختلط معك أحد ولن يباشرك ويسلّم عليك.

وهنا في قوله (لا يمسّه إلا المطهرون) لا يقصد الملامسة اليدوية لأنّ الكثير يمسّ القرآن الكريم بدون طهارة، وحتى لو كانوا على طهارة فهم طاهرون وليس مطهّرين بمعنى ادراك أعماق القرآن والفهم لبطونه وحقائقه، لأنّ أهل البيت عليهم السلام هم من يدرك ذلك.

المنحى الفقهي

بمعنى لا يلامس حروفه إلا من تطهّر، وبالتالي لا يجوز للإنسان أن يمسّ كتابة القرآن إذا كان محدثًا بحدث أصغر او أكبر، يعني إذا كان على غير وضوء أو كان على جنابة، أو كانت المرأة في حالة الحيض أو النفاس، فهؤلاء لا يستطيعون مسّ خط القرآن الكريم، وهنا تتحوّل الجملة (لا يمسّه إلا المطهرون) من كونها خبرية في الظاهر إلى جملة إنشائية في الواقع فهي ناهية عن مس كتابة القرآن على غير طهارة.

إذ أنّ الجملة نوعان: خبرية وإنشائية، فقد تكون خبرًا كأن تقول: أنا ذاهب للمسجد، وقد تكون إنشاءً كأن تأمر ابنك بأن يذهب للمسجد فتقول له: اذهبْ للمسجد، فهذا إنشاء أمر، وقد يكون إنشاء نهي، وكثير من الأحكام تأتي بصيغة الإنشاء كما في قوله تعالى (و أقيموا الصلاة و آتوا الزكاة) جملة إنشائية فيها أمر، وكقوله (لا تقربوا الزنا) جملة إنشائية فيها نهي.

لكن بعض التشريعات والأحكام جاءت بصيغة الخبر كقوله تعالى (ولله على الناس حج البيت)، أي حجّ البيت مكتوب ومفروض على الناس فهذه جملة خبرية لكنها في قوة الإنشاء بل أقوى كما يقولون، ويوجد في الحياة العامة أمثلة على الجمل الخبرية لكنها تكون بقوة الإنشاء، فعلى سبيل المثال عندما ترى العبارة المكتوبة على باب الإدارة (الدخول ممنوع) هي ليست إخبارا عن أنّ الدخول ممنوع فقط، بل هي تتضمن أمرًا بأن لا تدخل، إذن هي خبرية لكنها في قوة الإنشاء بل أقوى.

وعندما يقول: (لا يمسّه إلا المطهّرون) كأنّه يريد أن يقول: لا تمسّ كتابة القرآن إلا وأنت على طهارة، وهناك رواية تنقل عن الإمام الصادق عليه السلام (لا يمسّ الجنب

درهمًا ولا دينارًا عليه اسم الله) وبالنسبة للجنب كذلك لا يجوز، والمحدث كذلك أي الذي أحدث و لم يتوضأ، وكذلك يلحق بهما المرأة الحائض.

ومن الممكن أن تكون الآية تحمل المعنيين معًا المعنى العقائدي والمعنى الفقهي، ثم قال (تنزيل من ربّ العالمين) هذه صفة أخرى للقرآن الكريم ويمكن أن تعتبرها تعليلاً لما قبلها، لماذا لا يمسّه إلا المطهّرون؟ لأنّه تنزيل من ربّ العالمين، فهذه الآية تثبت ما ذهب إليه المسلمون عامة أنّ هذا القرآن الكريم تنزيل من ربّ العالمين، وفي مقابلهم قال بعض المستشرقين ومن تبع افكارهم إنّ هذا القرآن هو من إنشاء رسول الله أو من إنشاء جبرائيل، ولكنّ هذا الكلام غير صحيح فهو تنزيل من رب العالمين.

هذا الأمر يدعونا إلى الدخول في بعض الأحكام المرتبطة بالقرآن الكريم وتكريمه، حيث أنّه من الواضح أنّ القرآن الكريم والسنة المطهرة شرّعت مجموعة من الأحكام بعض غاياتها تكريم القرآن الحفاظ على كرامته، وشخصيته وقيمته، فمن ذلك:

١. استحباب قراءة القرآن الكريم على طهارة.

إنّ الابتداء في قراءة القرآن بالوضوء ليس شرطًا واجبًا لكنّه أمر مستحب، حيث تجتمع أنوار الوضوء مع أنوار القرآن الكريم لتؤثر في الإنسان القارئ، حيث أنّ للوضوء أنوارًا وإن كنّا لا نراها لكنها ستبين يوم القيامة، ويستحب للإنسان أن يكون على طهارة دائمًا وحبّذا لو يجعلها عادة بعد كل حدث، فإنّ للوضوء منافع كثيرة ومنها: إطفاء نار الغضب، ويعطي لصاحبه نورانية في القلب، كما أنّه يجعل صاحبه في عبادة دائمة إن توضأ ونام على فراشه، بل إنّه ورد في بعض الروايات أنّه لو توضأ و مات رزق منزلة الشهداء.

إذن هو أمر استحبابي ولكن بالنسبة إلى كتابة القرآن فلا يجوز مسها القرآن بدون وضوء، ويجوز مس غلافه، وإن كانت المرأة في حالة حيض أو نفاس لا يجوز لها مس كتابة القرآن ولكن يجوز لها أن تقرأ القرآن الكريم ولا مشكلة في ذلك، وإن كان فيه كراهة فتلك الكراهة بسبب قلة الثواب ليس إلا.

أما بالنسبة لقراءة سور العزائم وهي السور الأربع (العلق، النجم، فصلت، السجدة) هذه السور تجب فيها السجدة الموجودة فيها، وهذه السجدات بالنسبة إلى الإنسان المجنب رجلًا كان أو امرأة لا يجوز قراءتها، بعض العلماء قالوا يجوز قراءة السورة ولكن لا يجوز قراءة آية السجدة، وبعض العلماء احتاطوا بترك قراءة السورة كاملة، لكنّ الرأي المشهور والمفتى به الآن أنّه يجوز قراءة السورة باستثناء آية السجدة..

٢. من الأمور المرتبطة بالقرآن الكريم، قضية إعطائه وإهدائه إلى الغير، إذا لم يكن من غير المسلمين، مثلاً إن كان من أهل الكتاب كأن يكون مسيحيًا، وأعطيه القرآن بهدف الانتفاع به أو التأثر إن كنت أضمن أن لا يكون معاندًا فلا يمزّق القرآن الكريم ويعرّضه للإهانة، عند ذلك يجوز إهداؤه إذا لم يترتّب على هذا الإهداء هتك أو إهانة، أو تنجيس له أو ما شابه ذلك.

٣. إن كان لدينا قرآن ممزّق أو بعض الأوراق فيها سور قرآنية فماذا نصنع فيها؟ هل نرميها أم نحرقها؟

الحرق من أكبر مصاديق الهتك وعدم الاحترام للقرآن الكريم، فإن كان بالإمكان عدم الاستفادة من هذا القرآن أو هذه الأوراق وأخذه للمسجد للانتفاع به وكان بالإمكان الاستفادة منه فذلك جائز، أمّا إذا لم يمكن الاستفادة منه وأردت التخلص من هذه الأوراق فيمكن التخلص منها بنحو لا يلزم منه الهتك و الإهانة لكرامته،

ففي هذه الحالة يمكن أخذ هذه الأوراق إلى ماء النهر أو البحر أو يدفن في التراب، والآن يوجد بعض المصانع يعاد فيها تدوير الورق بحيث تستخدم مواد كيميائية تمحو الكتابة منها بشكل نهائي بحيث تصبح هذه الأوراق عجينة جديدة، عندئذ لا مانع من ذلك وليس فيه إهانة للقرآن الكريم.

٤. يستحب عند قراءة القرآن قراءته بحزن وتجنّب اللحن عند القراءة، كما قال نبينا المصطفى محمد ﷺ: (اقرؤوا القرآن بألحان العرب وأصواتها و إياكم ولحون أهل الفسق و أهل الكبائر)، يأتي أحدهم فيقرأ القرآن بصوت ويلحن فيه وكأنّه يغني والعياذ بالله، كما يحدث للأسف الآن من بعض الرواديد الذين ينشدون القصائد الحسينية وكأنهم في مسرح غنائي، فتراه يتغنّى بأسماء أهل البيت عليهم السلام ممّا يعتبر إساءة لهذه الذوات المقدسة، ونحمد الله أنّ أكثر رواديد الحسين (عليه السلام) ولا سيما المعروفين والمشهورين لا يمارسون مثل هذا الفعل.

إذن يستحب قراءة القرآن بالحزن فإنّه نزل بالحزن بهدف مخاطبة القلوب ووعظ النفوس ومخاطبتها بأسلوب يرقّق الفؤاد ويؤثّر في النفوس، وهناك الكثير من الأصوات الحزينة التي تتلو القرآن الكريم بأصوات حزينة يقشعر لها قلب السامع وتنفذ إلى أعماقه، وهنيئًا لمثل هؤلاء القرّاء لأنهم يؤثرون في الآخرين ويسهمون في تغييرهم.

وهذا إمامنا موسى بن جعفر الكاظم سلام الله عليه وهو باب الحوائج إلى الله والذي نتوسّل بذكره في قضاء حوائجنا، فقد كان سلام الله عليه معروفًا بالعبادة مؤثرًا فيمن حوله، حتى أنّهم ينقلون لمّا جيء به إلى سجنه الأخير، وهو الذي كان يتمنى هذه الفرصة أن يفرّغ لعبادة ربه فكان يقول (اللهم إنك تعلم أني كنت أسألك

أن تفرّغني لعبادتك، اللهم وقد فعلت، فلك الحمد)

أتى له هارون العباسي بجارية جميلة من المغنيات بهدف إغوائه وإلهائه عن العبادة، فلما جاءت وبقيت عنده تسمع صوته الحزين وهو يتلو القرآن الكريم، وتسمعه يلهج بالدعاء والتضرّع لله، عندئذ فتح لها آفاق التوبة والرجوع إلى الله فخرّت ساجدة لله عز وجل تائبة مستغفرة، باكية على ما كان منها، حتى رفع الجلاوزة أمرها لهارون، وعندما أحضروها له وسألها كيف تأثرت به؟، قالت إنّه عندما قرأ القرآن وسبّح غدا كل شيء يسبّح معه ولم يكن تسبيحًا عاديًا، فكأنّ كل شيء في الكون يستجيب لهذا التسبيح الموسوي.

هكذا هم رجال الله، السلام على علي بن موسى،، (اللهم صلّ على محمد وأهل بيته، وصلّ على موسى بن جعفر، وصي الأبرار، وإمام الأخيار وعيبة الأنوار، ووراث السكينة والوقار والحكم والآثار، الذي كان يحيي الليل بالسهر إلى السحر، بمواصلة الاستغفار).

هل في القرآن الكريم تِبيانُ كُل شيء

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

تبيان في اللغةِ العربية هي والبيان بمعنى واحد، والبيان يعني رفعُ الإغلاق والخفاء عن الشيء و(اظهار المقصود بأبلغ لفظ) حتى يبين ويبدُو للناس.

القرآن الكريم بحسبِ هذهِ الآية الُمباركة نزلهُ اللهُ عز وجل تبيانًا، ثم قال لكلِ شيء، والعلماء يقولون أن هاتين الكلمتين من أوضح أنحاء العموم في الكلام. فلفظ (شيء) عام لكل شيءٍ ، يدخل تحته ما صغر وما كبر.

المقصود بـ «كل شيء» في الآية المباركة:

يأتي هنا السؤال: ما هو المقصود بـ «كُلِّ شَيْءٍ»؟! هل القرآن الكريم مثلا يحوي تبيانَ عُلوم الرياضيات؟ علم الفلك؟ علم طبقاتِ الأرض؟ الفنون؟ فهل «كُلُ

(١) النحل / ٨٩.

شيء» شاملةٌ لهذه الأمور أم لا؟

فإنه يُقال أننا لا نحتاجُ لأي علم لأن كُلَّ شيءٍ موجودٌ في القرآن الكريم، وعليه فنحن لا نحتاج لشيءٍ آخر. فهل هذا الكلام فعلا هو المقصود؟

معنى الكِتاب

اتضاحُ الأمر يتوقف على المُراد من كلمة «الكتاب»، فما هو المقصودُ من «الكتاب» في الآية؟

■ وجدنا في القرآن الكريم نحوينِ من الكلام عن الكتاب:

النحو الأول يُفيد بأن (الكتاب) هو شيء تتركزُ فيه كُلُ العلوم والقضايا، فهو أشبه بمركزِ معلومات كوني هائل. فالله يقول:﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ * وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ * وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[1] أيُ حبة، أيُ ورقة، أيُ قشة، أيُ شيءٍ يحدث فهو موجودٌ في كتابٍ مبين، سواءً كان في نورٍ أو ظُلُمات، في البر أو البحر.

في موضعٍ آخر تتحدث الآيات فتقول ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[2] وأيضا ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا * كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[3].

(١))الأنعام/ ٥٩.
(٢) سبأ/ ٣.
(٣) هود.٦/

فإذن يتبين أن هذا الكتاب الذي يُبحث عنه هو شيءٌ مربوطٌ بعلمِ الله عز وجل المحيط بكل شيء. بل حتى القرآن الكريم هو في ذلك الكتاب «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ» ولا سيما اذا قلنا أن الضمير في «يَمَسُّهُ» يعودُ على الكتاب وليس على القرآن، تبعا لعود الضمير على الأقرب وهو كلمة (في كتاب)، فهذا الكتاب لا يمسُهُ إلا المطهرون، وأن القرآن في ذلك الكتاب.

هذا الكتاب الذي تتحدث عنه الآيات هو شيءٌ يرتبط بعلمِ الله غير المحدود والمُحيط بكلِ شيء.

هذا الكتاب الذي هو مرتبطٌ بعلمِ الله تعالى ينطوي تحته كُلُ العلوم والمسائل والقضايا من كيمياءٍ وفيزياءٍ وجيولوجيا وأدبٍ وبرٍ وبحرٍ وشجرٍ ومدر وما يفعله الناس، وما يفكرون فيه، وما ينوونه وغيرُها كُلُها موجودةٌ في ذلك الكتاب لأنه مرتبط بعلم الله سبحانه.

هذا المعنى تُشيرُ إليهِ أيضا بعضُ روايات أهل البيت عليهم السلام، فقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام قولُه «إني أعلم ما في السماوات والإرض والجنة والنار» بعض الحاضرين تعجب واستنكر، فبين الإمام عليه السلام الأمر بقولهِ تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ونحن أهلُ البيت لدينا علم القرآن وعلم الكتاب.

هذا هو الاتجاه الأول يرى أن الكتاب الذي فيه كُلُ شيء إنما يكونُ في الكتاب التكويني، في مخزن علمِ الله إن صح التعبير، وفي الأرشيف الإلهي، وهذه كُلُها عباراتٍ تقريبية.

النحو الثاني يقول أنَّ المقصود بالكتاب هو القرآن الكريم، حيث عبر عن القرآن الكريم بعنوان الكتاب كثيرا فقال الله ﴿الم، ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

لِّلْمُتَّقِينَ)[١]، (حم، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٢]، ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ)[٣]،(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٤].

هذا الرأي يقول أن المقصود بالكتاب هنا هو نفسُ القرآن الكريم، فإنه هو الذي نزله الله على النبي وهو الذي أمر الناس باتباعه، وهو الذي يتكون من هذه الحروف المقطعة في بداية السور.

■ وهنا نجدُ اتجاهين في هذا الرأي:

الاتجاه الأول يقول أنَّ هذا القرآن هو تبيانٌ لكل شيء، ولم يفرط الله فيه من شيء، أي كُلُ العلوم موجودة في القرآن الكريم، فهو مثل خزانة تحوي صناديق متعددة، أول صندوقٍ فيها مفتاحُهُ لدى عامّة الناس، الصندوقُ الثاني مفتاحُه لدى مجموعةٍ معينةٍ من الناس كالاداريين، وهكذا الصُندوقُ الثالث، أما آخر صُندوقٍ فمفتاحُه لدى مُدير البنك مثلا.

عامّةُ الناسِ بالنسبة للقرآن الكريم لهُم التدبر والمعاني الظاهرية والأخلاقيات والأحكام الشرعية في ظاهِرها وأمثالُ ذلك، وأمّا ما بعد ذلك من علومٍ عظيمة فلها أُناسٌ وأهلٌ أعلمُ بها.

وبالاضافة إلى ما نقلناه من رواية عن الامام الصادق عليه السلام تعبر عن هذه الفكرة، فإن هناك من يؤيدُها من أتباعِ مدرسةِ الخُلفاء، فابن كثير ينقُلُ عن ابن مسعود في

(١) البقرة / ١ـ ٢.
(٢) الجاثية / ١ـ٢.
(٣) الأنعام / ١٥٥.
(٤) النحل / ٨٩.

تفسيرِ هذه الآية أنَّ القرآن الكريم فيهِ كُلُ العلوم[١]، فكُلُ ما يحتاج إليه الناس من علوم فهي موجودةٌ في هذا القرآن.

الاتجاه الثاني يقول أن المقصود هنا ليس كُلُ العلوم، وإنما كُلُ شيءٍ يتناسبُ مع غرضِ القرآن وهدفِه، فلا يشمل ما كان خارجا عن هذا الغرض من الحديث عن علوم الكيمياء والهندسة والطب وحركات الناس وأشباه ذلك.. وهذا النحو من التعبير موجودٌ في المحاورات العُرفية بين الناس فهم يعبرون بأوضح أشكال العموم في كلامهم ولكنهم لا يقصدون منه العموم الكامل، وانما يعتمدون على القرائن الحافة بالكلام في تحديد دائرة العموم.

فإن أحدهم يصف مستشفى فيقول بأنه يحوي كُل شيء، وأنّ كُلَّ شيءٍ موجودٌ فيه، فتسأَلُه هل أستطيعُ تبديل إطاراتِ السيارةِ فيه؟ هل توجد فيه طيّارات؟ فيُجيبك بالنفي، ويُوضِحُ لك بأن المقصود هنا أن المستشفى يحوي كُل العيادات المتنوعة والأطباء، ففيهُ كُلُ شيءٍ يتناسبُ مع معنى المستشفى.

وهكذا لو ذهبت لمركزِ تموينات وأخبرت أنَّ كُلَّ شيءٍ موجودٌ فيه، فهل هذا يعني أنهُ يحتوي جامعةً للدراسة مثلا؟ طبعًا لا، وإنما المقصود أنه يُوفر كُل ما يرتبط بالتسوق ومراكز التموين.

هذا الاتجاه يرى أن «تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ» لا تعني مثلا كيفية استخراج النفط، أو كيفية إصلاح الكهرباء، فهذه ليست دائرةُ غرض القرآن الكريم، دائرةُ غرضه ترتبط بتنظيم حياةِ الإنسان على المنهجِ القويم والصراطِ المستقيم من عقائد، وعبادات،

(١) قال ابن مسعود: قد بين لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء.وقال مجاهد: كل حلال وحرام. وقول ابن مسعود أعم وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم.

شرائع وأحكام، أخلاق وأنظمة في التعامل، وهكذا كُلُ شيءٍ يرتبط بـ ﴿إِنَّ هَذَا القرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

وهذا قد يكونُ بشكلٍ مفصّل مثلُ بعضِ آياتِ الميراث، أو قضايا العقيدة في الله عز وجل، وبعض قضايا الأخلاق التي جاءت بشكل تفصيلي في القرآن، وقد يكون بشكلٍ مُجمل ولكن مع تعيين الطريق إليها فقال «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا» يعني النبي محمدا ﷺ .

الطريق لمعرفة مواردِ الإجمال في القرآن

وهكذا القرآن الكريم في موارد الإجمال والاختصار عرّف الإنسان بالطريق إليها وقال أن الطريق إلى ذلك هو النبي محمد ﷺ، والنبي ﷺ بدورِه قال أيضًا أن ما أوضحتُهُ بشكلٍ كامل فقد اتضح، وأما ما لم تُتِح ليَ الفرصةُ بتوضيحه فإن الطريق إليه هو عترتي أهلُ بيتي عليهم السلام.

فإذن القرآن الكريم يشمل كُل شيء يحتاجُهُ الإنسان في ما يرتبط بقضيةِ الحياةِ القويمة، بعلاقتِهِ بالله، بعلاقتِهِ بالناس، بكيفيةِ العيش عيشةً راضيةً هنية، فهذا كُلُه موجود في القرآن الكريم ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ في هذه الدائرة.

فليس المطلوب من القرآن مثلا أن يُوضح كيف تكون صناعة الطيارات، أو كيف يُستخرج النفط، أو كيف يكون شكلُ البناء، فهذهِ ليست في دائرةِ «كُلِّ شَيْءٍ» التي جاء بها القرآن الكريم.

وعليهِ فإنه لا يُفترض بإنسان أن يسأل مثلا عن سبب عدم وجود أسماء الأئمةِ مثلا في القرآن، أو ما شابهها من الأسئلة. وهكذا في تفاصيل المسائل الفقهية، فالبعض قد يقول بأنه ما هو الدليل من القرآن على أن القطة وبرُها وشعرُها مُفسدٌ

للصلاة؟ فالقطة – بحسب حديث السائِل – لطيفةٌ وناعمةُ الملمس وليست نجسة.. فكيف يُفسد شعرها الصلاة؟ ويتكرر هذا الكلام بأنه ما لم تكن هناك آية على الحكم الكذائي فإنه لا يقبله..

نقول: هذا من موارد الاجمال ولو أراد القرآن ذكر كل شيء من تفاصيل العقائد والعبادات والأحكام لكان يقع في عشرات المجلدات، ولكنه بهذا النحو هو أيضا تبيان لكل شيء يتناسب مع غرضه غاية الأمر لا بد من الرجوع فيه إلى من يفسره ويبينه وهو النبي والمعصومون، وتتكفل الروايات عنهم بهذا الأمر ففي ما يرتبط بأسماء المعصومين عليهم السلام، وردت الروايات الكثيرة عن النبي محمد صلى الله عليه وآله، في تعيين الخلفاء والأوصياء من بعده، وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام وولده [١] وفي المسائل الفقهية فالروايات فيها الشيءُ الكثير من ذلك وقد جمع الشيخ الحر العاملي رحمه الله من ذلك آلافا في كتابه وسائل الشيعة، ومنها الرواية المعروفة عن الإمام الصادق في محل المثال المتقدم «إن الصلاة في وبر كل شئ حرام أكله فالصلاة في وبره وشعره وجلده وروثه وألبانه وكل شئ منه فاسدة، لا يقبل الله تلك الصلاة حتى يصلى في غيره مما أحل الله أكله[٢]»ومع هذا العنوان «ما لا يؤكل لحمه» فلا حاجة لذكر القطة بعنوانها أو النمر بشكل خاص أو غيره [٣].

(١) رسالة في النص على الأئمة الاثني عشر ؛ المرحوم الميرزا جواد التبريزي.

(٢) الكافي .٣٩٧ / ٣

(٣) يوجد اختلاف بين الفقهاء في مثل الشعرة والشعرتين وهل أنها تفسد الصلاة أو لا، فبينما ذهب مشهور الفقهاء إلى عدم الفرق بين الشعرة الواحدة وبين الكثير، احتاط بعض فقهاء العصر استحبابا في مثل ذلك باعتبار أنه لا يصدق عليها (الصلاة في شعره.. وأنه لا تبطل الصلاة بذلك.

هل المعصومون يجتهدون في القرآن؟

وليعلم أن ما يقوم به المعصوم من توضيح وتفصيل لما أجمل في الكتاب، ليس اجتهادا في الرأي من تلقاء نفسه، حتى يكون قابلا للصواب والخطأ وإنما هو عين الواقع والمراد من الله سبحانه، وهو ما أشار إليه الامام الصادق عندما سأله رجل عن مسألة فأجابه فيها، فقال الرجل: أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ فقال له: مه ما أجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله ﷺ لسنا من:» أرأيت « في شيء[١].

ولعله لهذا يشير الامام الباقر ﷺ فيما نقله الشيخ الكُليني في الكافي [٢] عنه: إذا حدثتكم بشيء فاسألوني من كتاب الله، ثم قال في بعض حديثه، إن رسول الله ﷺ نهى عن القيل والقال، وفساد المال، وكثرة السؤال، فقيل له: يا ابن رسول الله أين هذا من كتاب الله؟ قال: إن الله عز وجل يقول: « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس « وقال: « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما « وقال: « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم «.

أمثلة من توضيح المعصومين القرآن والاستشهاد به:

١. قول الله تعالى «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا» فهل المطلوب هنا هو السعي بين الجبلين الصفا والمروة وقطع المسافة بأي نحو كان وأن المهم أن يطوّف بهما؟ أو أن المطلوب سعي خاص بحيث يكون البدء من مكان والختم في مكان آخر؟

(١) الكافي٥٨ / ١ .
(٢) الكافي ١ / ٦٠.

الإمام يؤكد على البدء من الصفا، وتسعى إلى المروة لتُكمل شوطًا واحدًا، وذلك لأن الله بدأ بالصفا في الآية المباركة[١]، وهذا بالطبع يتفرع على القول بتوقيفية الترتيب بين كلمات الآية الواحدة وترتيب الآيات فيما بينها وأنه توقيفي قام بهِ رسولُ الله ﷺ. فهناك إذن عنايةٌ خاصّة بكُلِ كلمة، ولذلك نجد أن تقدم كلمة «الصفا» على كلمة «المروة» في الآية ليس ترتيبا عشوائيا.

ومثله في ترتيب أفعال الوضوء، فعند البعض ربما يقال[٢] بأن المطلوب هو هذه الأعمال من غسل الوجه واليدين والرأس بينما قد قرر الامام الباقر عليه السلام أن الترتيب لازم، كما قال الله تعالى: ففي رواية زرارة عنه قال: تابع بين الوضوء كما قال الله عز وجل ؛ ابدأ الوجه ثم باليدين ثم امسح الرأس والرجلين ولا تقدمن شيئا بين يدي شيء تخالف ما أمرت به، فإن غسلت الذراع قبل الوجه فابدأ بالوجه وأعد على الذراع وإن مسحب الرجل قبل الرأس فامسح على الرأس قبل الرجل ثم أعد على الرجل ابدأ بما بدأ الله عز وجل به [٣].

٢. بل يوضح الامام أن ترتيب الآيات فيما بينها قد يُشير إلى ترتيب الأعمال، ففي زكاة الفطرة ذكر العلماء أن الواجب أن تُخرجَ الزكاة ثم تُصلي، وأنه لمن أراد الصلاة يكون إخراجها هو من باب الصدقة المطلقة لا خصوص زكاة الفطرة.. وقد بين الامام عليه السلام أن هذا الترتيب جاء من قولهِ تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن

(١) عن أبي عبد الله عليه السلام أن رسول الله ﷺ حين فرغ من طوافه وركعتيه قال أبدأ بما بدأ الله عز وجل به من إتيان الصفا إن الله عز وجل يقول (إِنَّ الصَّفا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ) مرآة العقول ١٨/ ٦٦.

(٢) قال السرخسي الحنفي في المبسوط: وإن بدأ في وضوئه بذراعيه قبل وجهه أو رجليه قبل رأسه، أجزأه عندنا ولم يجزه عند الشافعي رضي الله عنه، فإن الترتيب في الوضوء عندنا سنة. وحجتهم: أن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب، ولو كان الترتيب مرادا لكان العطف بثم أو الفاء في آية الوضوء.

(٣) وسائل الشيعة ١/ ٤٤٩.

تَزَكَّى، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[١].

٣. قد يؤدي الجمع بين آيتين إلى معرفة حكم لم يكن ليعرف لولا هذا الجمع.. وقد ذكر هذا عن أمير المؤمنين علي عليه السلام في قصة امرأة حدثت في زمن الخليفة الثاني[٢]، إذ جاء زوجها للخليفة يقول أنهُ تزوجها منذ ستة أشهر وأنها ولدت لهُ ولدًا، فهل خرج الجنين قبل أوانه أم أنها جاءت بما لا يرضي الله قبل زواجهما بثلاثة أشهر؟ أكثرُ الناس قالوا بأنهم لم يُصادفوا مثل هذه الحادثة من قبل، لذلك فإن ظاهرها وجود خيانة، والمرأة تبكي وتنكر ذلك، فسُئِل أمير المؤمنين عليه السلام، فاستحضرها فقالت «واللهِ يا أبا الحسن ما جرت عليّ ريبة، وما عرفتُ رجُلاً قبله واللهُ شاهدٌ على ما أقول» فقال اتركوها وجمع بين الآيتين «وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا» و «وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ» أي ٢٤ شهرًا، أي أن أقل مدةٍ للحمل هي ستةُ أشهر، فإذا نقص من الثلاثين شهرا مدة الرضاعة بقي مدة الحمل، وهذا اعتبره دليلُ براءةِ المرأة، ونَسَبَ الولدَ إلى والديه، ونجّاها من التُهمة وربما من الحد.

٤. في مسألة القصر في الصلاة وهل أنهُ عزيمة، بمعنى أنهُ لا بد منهُ في السفر أم أنهُ رخصة، بمعنى أن الإنسان مُخيرٌ فيه؟ فالكثير من أتباع مدرسة الخلفاء قالوا بأنها رُخصة، مستندين إلى ظاهر القرآن الكريم حيث جاء فيه ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي أنكم لن تؤاخذوا لو قصرتم الصلاة في السفر، ولكن الإمامية يرون أنها عزيمة، وقد أشار الإمام عليه السلام إلى تفسير آية بأخرى حيث قال إن التعبير ب(لا جناح) موجود أيضا في السعي بين الصفا

(١) في الفقيه عن الصادق عليه السلام انه سئل عن قول الله عز وجل قد أفلح من تزكى قال عليه السلام: من اخرج الفطرة قيل له وذكر اسم ربه فصلى قال خرج إلى الجبانة فصلى.

(٢) وسائل الشيعة ١: مقدمة التحقيق / ٢٠ عن السنن الكبرى ٧/ ٤٤٢.

والمروة ومع ذلك لا أحد من العلماء يقول بأنه رخصة، وإنما يجمعون على وجوبه على نحو العزيمة «فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا». فكما أن السعي إلزامي في هذه الآية والمعتمر والحاج ليس مُخيرا فيه، فكذلك الحال ينطبقُ على آية القصر في الصلاة أيضا(٣).

٥. في موضوع غُسل الجنابة، يرى الإمامية أنه يُغني عن الوضوء، بل يرون أن الوضوء قبله أو بعده منهي عنه(٤)، أما في مدرسة الخلفاء فيرون وجوب الوضوء قبل الغسل أو بعده(٥). وقد جاء رجلٌ إلى الإمام الصادق عليه السلام ونقل لهُ هذا الأمر، فتبسم الإمام عليه السلام وقال «وأيُ وضوءٍ هو أنقى من الغُسل وأطهر؟».. من أين اكتشف الامام هذا المعنى؟ إنه من الآية المباركة «وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا» أي فاغتسلوا ولم يقرنها بالوضوء قبله ولا بعده(٦) وقد كان في مقام البيان.

٦. في موضوع مسح بعض الرأس، يذهب الامامية إلى لزوم مسح بعض الرأس في الوضوء، بينما يذهب أتباع مدرسة الخلفاء إلى غسل الرأس وتعميمه ! فأما المسح لا الغسل فذلك لما ورد من أنه (إن في كتاب الله المسح ويأبى

(٣) وسائل الشيعة ٨/ ٥١٧.

(٤) عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام وذكر كيفية غسل الجنابة فقال: ليس قبله ولا بعد وضوء. وقال: المحقق الحلي في (المعتبر): روي من عدة طرق عن الصادق عليه السلام قال الوضوء بعد الغسل بدعة. وسائل الشيعة ٢/ ٢٤٦.

(٥) يرى فقهاء المذاهب الأربعة أن الوضوء قبل الغسل مستحب، ونقلوا عن عائشة زوجة النبي أن النبي كان يفعل ذلك. راجع الفقه على المذاهب الأربعة.

(٦) في الوسائل ٢/ ٢٤٧ عن محمد بن مسلم، قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: إن أهل الكوفة يروون عن علي عليه السلام أنه كان يأمر بالوضوء قبل الغسل من الجنابة، فقال: كذبوا على علي عليه السلام ما وجدوا ذلك في كتاب علي، قال الله تعالى: وإن كنتم جنبا فاطهروا.

الناس إلا الغسل)[١]، ثم كيف يستفاد أن المسح هو لجزء من الرأس كما سأله زرارة فقال لهُ زُرارة «وكيف نعرف أن المسح في الوضوء هو لِجزءٍ من الرأس وليس مسحًا للرأس بأكمله؟» فقال الامام الباقر عليه السلام (لمكان الباء)[٢] في اللغة العربية تُستعمل الباء في مثل هذه المواضع للتجزئة والتبعيض والله تعالى يقول «وَامْسَحُوا بِرُؤوسِكُمْ».

فإذن نرى أن أهل البيت عليهم السلام أحيانا يستفيدون من حرف، وأحيانا من كلمة، وأحيانا من الجمع بين آيتين، فهو علمٌ قد أحاطوا به وورثوهُ من جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله.

٧. في ما بينه الامام الهادي في كتابي زنى بمسلمة، فقد نقل أنه قدم إلى المتوكل رجل نصراني فجر بامرأة مسلمة وأراد أن يقيم عليه الحد فأسلم، فقال يحيى بن أكثم: قد هدم ايمانه شركه وفعله، وقال بعضهم: يضرب ثلاثة حدود، وقال بعضهم: يفعل به كذا وكذا، فأمر المتوكل بالكتاب إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام وسؤاله عن ذلك، فلما قدم الكتاب كتب أبو الحسن عليه السلام: يضرب حتى يموت، فأنكر يحيى بن أكثم وأنكر فقهاء العسكر ذلك، وقالوا: يا أمير المؤمنين سله عن هذا فإنه شيء لم ينطق به كتاب، ولم تجئ به السنة، فكتب:

---

(١) وسائل الشيعة ١/ ٤١٩.

(٢) الكافي ٣/ ٣٠.. عن زرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: ألا تخبرني من أين علمت وقلت: إن المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك ثم قال: يا زرارة قال: رسول الله صلى الله عليه وآله ونزل به الكتاب من الله لان الله عز وجل يقول: « فاغسلوا وجوهكم « فعرفنا أن الوجه كله ينبغي أن يغسل ثم قال: « وأيديكم إلى المرافق « ثم فصل بين الكلام فقال: « وامسحوا برؤوسكم » فعرفنا حين قال: « برؤوسكم « أن المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثم وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه: فقال: « وأرجلكم إلى الكعبين « فعرفنا حين وصلها بالرأس أن المسح على بعضها ثم فسر ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله للناس فضيعوه..

إن فقهاء المسلمين قد أنكروا هذا وقالوا: لم تجئ به سنة ولم ينطق به كتاب، فبين لنا بما أوجبت عليه الضرب حتى يموت؟ فكتب عليه السلام: بسم الله الرحمن الرحيم « فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون » قال: فأمر به المتوكل فضرب حتى مات. (١)

الجدير ذكره أن هذا الحكم أيضا موجود لدى مدرسة الخلفاء، ولكن الاستدلال عليه هو بفعل بعض الصحابة، ففي كتاب الحدود من أحكام اهل الملل لأحمد بن حنبل جاء فيه: سألت أحمد عن يهودي أو نصراني فجر بامرأة مسلمة ماذا يصنع به؟ قال: يقتل؟ قلت فإن الناس يقولون غير هذا؟ قال فماذا يقولون؟ قلت: عليه الحد.. ففي هذا شيء؟ قال: عن عمر انه امر بقتله (٢)..

بينما يلاحظ في الرواية عن الامام الهادي عليه السلام ان الاستدلال كان بآية من القرآن الكريم.

(١) الرواية لم توصف بالصحة لأن أحد رواتها وهو جعفر بن رزق الله لم تثبت وثاقته ولم يرد فيه مدح، كما ذكر السيد الخوئي في مباني تكملة المنهاج ١/ ١٩٣ إلا أن أصل الحكم ثابت بصحيحة حنان بن سدير عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام (سألته عن يهودي فجر بمسلمة، قال: يقتل سواء أسلم بعد ذلك أو لا.. وإنما استشهدنا هنا بالرواية عن الامام أبي الحسن الهادي المفصلة في كيفية استفادة الامام عليه السلام الحكم من القرآن وبيانه للناس كذلك.

(٢) أحكام أهل الملل من الجامع لمسائل الامام احمد بن حنبل / ٢٦٧.

آيات تنسب المعصية للأنبياء كيف تفسر؟

روي عن سيدنا ومولانا أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال: (أن هذا القرآن فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ونحن نعلمه).

هذه الكلمات التي نقلها الشيخ الكليني في الكافي[1] في باب فضل القرآن وصفاته تنبئ عن حقائق إن في هذا القرآن الكريم ما يحتاج إليه الناس فهو يشتمل على نبأ ما قبلكم ويحتوي أيضا على أخبار المستقبل وخبر ما بعدكم ويحل مشاكلكم المعاشة.

لكن هل يستطيع الإنسان كما هي الدعوة الآن أن يكتفي بالقرآن الكريم من دون شارح له ومن دون وسيط أو دليل؟

الرؤية الدينية عند الإمامية تقول إن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب و إلى جانبه

(١) الكافي ١/ ٦١.

أرسل النبي معلما ومفهما للناس ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[١] وبعد النبي قرن بين العترة والقرآن الكريم، وفي هذه الأزمنة يعتمد الإمامية على ما ورد من تفسير للقرآن الكريم من رسول الله ﷺ و عترته المشرفة بالإضافة إلى ما يفهمه العلماء المتبحرون.. ويقولون هنا أنه لو كان يكتفى بالقرآن وأنه لا يحتاج إلى وسيط أو شارح مبين لكان من الأسهل أن ينزل الله الكتاب كاملا في نسخة واضحة مكتوبة وأن تعطى لكل إنسان وبهذا ينتهي أمر التبليغ. والحال أن هذا لم يحدث في الاسلام ولا في أي ديانة من الديانات.

في الطرف الآخر لسائل أن يسأل هل لا نستطيع أن نفهم القرآن؟ فلماذا إذن قال تعالى عنه إنه هدى للناس؟ لماذا قال ﴿لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾[٢] وقال ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾؟

الجواب على ذلك: أن هناك مستويات للقرآن الكريم

المستوى الأول الذي يقال عنه الآيات المحكمات، فهذا أمر ميسر للناس جميعا وفيه جاء ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٣].وأما ما بعد ذلك مما يقول فيه الإمام (فيه حكم ما بينكم وأنا أعلم ذلك كله) هذه الآفاق الأخرى لا بد لها من دليل.

المستوى الثاني: أن القرآن له في آياته ظهوران، ظهور ابتدائي وهو يستطيع الوصول إليه كل متكلم باللغة العربية وظهور حقيقي كأنه المراد للمتكلم، وهذا المستوى يحتاج للتفكر أكثر في الآيات، والجمع بينها في سور مختلفة، والا تخبط

(١) الجمعة / ٢.
(٢) ص / ٢٩.
(٣) القمر/ ٢٢.

الناظر في الآية الواحدة.

ولنورد أمثلة في هذا المعنى في ما يرتبط بالعقائد.. أولا في معرفة الله تعالى، فنحن نقرأ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾.[١]

معنى هذه الآية الظاهري والابتدائي يقول كل شيء سيكون هالكا ومنتهيا إلا وجه الله. والوجه في اللغة واضح.[٢]

المقصود بوجه كل شيء جهته المواجهة والمقابلة مثلا وجه المسجد هذه الجهة وقفاه الجهة المقابلة .

واستعمله القرآن في نفس هذا المعنى في قصة نبي الله يوسف حيث ألقى الاخوة القميص على وجه أبيه، الله له وجه وهذا الوجه سيكون باقي غير هالك، كل شيء له وجه. وهكذا في آية الوضوء ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

والمثال الآخر قوله تعالى ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[٣] جمع عين، وعين كل كائن حي معروفة.. فإنها بظاهرها تثبت بأن الله له أعين !! وفي آية أخرى قال ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾.

مثال ثالث في آية أخرى يقول الله سبحانه ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٤] في قضية ابليس ورفضه السجود لآدم الذي خلقه الله (بيدي) كما في الآية، واليد معناها الظاهري واضح.

---

(١) القصص / ٨٨.
(٢) الوجه ما يواجهك من الرأس، وفيه العينان والفم والأنف، وأيضا: ما يُقْبِل من كلِّ شيء.
(٣) الطور / ٤٨.
(٤) ص / ٧٥.

ومثال رابع: في آية ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[١] يعني جلس على كرسي الملك.

هذه الآيات بإثباتها الأشياء تلك لله يصبح لله وجه وأعين و أيدٍ، بل له جلسة على العرش والكرسي وحتى يجلس الإنسان على مكان يحتاج أن يكون له جسم.. هذا التفكير الأولي.

الظهور الأولي أول ما يراها الإنسان في القرآن الكريم لكن هل يمكن الالتزام بمؤداها؟

هنا يحتاج الناظر في القرآن إلى التفكر، والالتفات أن هذا الظهور الأولي ليس هو المقصود وإنما المراد شيء آخر، وهو فيما يرتبط بالآيات.. بعدما علمنا أن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٢] فلا يمكن أن يكون الوجه المراد هو الموجود عند البشر ولا اليد كذلك ولا العين..

فاليد قد شرحها القرآن الكريم في موضع آخر وهو قوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[٣] فليس المقصود هو اليد الجارحة ذات الخمسة أصابع، وإنما تعبير في مكان عن القوة والهيمنة وفي مكان آخر عن الجود والسخاء وهكذا، وإلا صار ربنا جل وتقدس كخلقه وصاروا مثله. وهذا الاستعمال في اللغة العربية والعرف شائع جدا، فيقال فلان ندي اليد، أو أن يد الحاكم على مملكته مبسوطة..

كيف فهمنا هذا؟ لأنه قام الدليل على أنه لو كان المقصود هذه المعاني للزم

(١) الرعد / ٢.
(٢) الشورى / ٢٥.
(٣) المائدة / ٦٤.

التجسيم لله تعالى وإذا لزم التجسيم صار محدودا وإذا صار محدودا صار الفضاء الذي حوله أكبر منه، ومن خلال ذلك يفهم المقصود من آية ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فليس المقصود منها الجلوس المادي على كرسي، وإلا يلزم أن يكون ذلك العرش أكبر من الله لأنه يحتويه تعالى الله عن ذلك. وهذا واضح فعندما يجلس شخص في المسجد لا بد أن يكون المسجد أكبر منه لأنه يحتويه، فإذا كان العرش يحتوي الله !! كما يزعمون يكون الله أصغر من بعض مخلوقاته.. فكيف يكون (الله أكبر كبيرا)؟

ومن جهة أخرى لو كان له تلك الأشياء لكان محتاجا لها لحاجة كل مركب إلى أجزائه، بينما الله هو (الغني الحميد) فأنت لكي تصبح إنسانا كاملا تحتاج لأعضائك ؛ يدك ورجلك ووجهك وعينك فلو فرضنا إن هذه الأشياء انتزعت منك فأنت لا تبقى. إن الله لا يحتاج إلى شيء أبدا بل كل شيء غيره محتاج اليه هذا رأي الإمامية. ومثل ذلك الحديث عن (كل شيء هالك إلا وجهه) وما ورد من الأحاديث عند أتباع مدرسة الخلفاء إن الله يضع رجله في نار جهنم، فإنه ينتهي إلى التجسيم والاحتياج، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

هذا في معرفة الله عز وجل. وتبين لنا أن الظهور الأولي لا يمكن الاعتماد عليه والركون إليه، وإنما لا بد من معرفة المراد الحقيقي، وذلك بالجمع بين هذا الظهور وسائر الادلة، والآيات المباركات.

ونفس الكلام يأتي في حق الأنبياء والمرسلين فهناك آيات تشير في ظاهرها إلى عدم عصمتهم بل وارتكابهم للذنب مثل ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[1]، ومثل قضية

(١) طه/ ١٢١.

موسى ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا... ﴾[١] ظاهر هذه الآية إن النبي موسى ارتكب جريمة قتل عمدي وأقر على نفسه وقال هذا من عمل الشيطان وأكد إن الشيطان عدو مضل مبين هذا ظاهر أولي للآية.

وفي قضية نبي الله يوسف ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا....﴾[٢] وآيات آخر في حق نبينا محمد ﷺ التي تنسب له الذنب و إن الله قد فتح له فتحا مبينا ليغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا بحسب النظر الابتدائي الأولي.. هذا من جهة ومن جهة أخرى يرى آيات أخر تتعارض مع هذه الآيات، مثل قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا...﴾[٣] فهل الله يصطفي العصاة والغواة، وبالنسبة للنبي موسى فهو أكثر الأنبياء ذكرا في القرآن وهو من أولي العزم وهو من السلسلة أو الذرية النبويةالتي تنتهي لإبراهيم عليه السلام كيف ينسجم هذا مع القول بأنه قاتل يعمل عمل الشيطان؟ وكذلك قضية نبينا محمد ﷺ، فإن الله يقول في شأنه ﴿أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾، السراج المنير دائم النورانية والهداية مستمرة من جهته فكيف نصنع في تلك الحالات؟

نعود إلى ما ذكرنا به في بداية الحديث من:

أن القرآن الكريم يحتاج لدليل يدل عليه، ومبين له.. نعم في المستوى الأول فيما واجب على الناس إجمالا، وفي مواضيع الأخلاق العامة.. لا نحتاج إلى ذلك خلافا لما ذهبت إليه المدرسة الأخبارية للشيعة الامامية الذين يقولون إن فهم القرآن عموما يتوقف على تفهيم المعصوم للناس فلابد من تفسيره بالروايات واللجوء للمعصوم لفهم الآيات وبغير هذه الطريقة لا مجال للوصول إلى معانيه.

(١) القصص / ١٥.
(٢) يوسف / ٢٤.
(٣) آل عمران / ٣٣.

نقول كما هو الرأي المعروف في المدرسة الأصولية الامامية، إن الآيات المحكمات يستطيع الناس أن يفهموها في الجملة لأنها جعلت على هذا الأساس مسهلة وميسرة قريبة للذهن.

لكن علوم القرآن الأخرى وبطونه وحقائقه وأحكامه الفقهية بتفاصيلها تحتاج لدلالة الدليل المعصوم.

وأيضا نقول مرة أخرى أن كل لفظ من الألفاظ له مرحلتان من الظهور والفهم، المرحلة الأولى الظهور الأولي والظهور الحقيقي والمراد الجدي.

ففي كلمة عصى، وغوى.. في هذا الزمان تختلف عن معناها الأصلي في اللغة، وقد يكون هذا راجعا إلى غلبة الخطاب الوعظي، فصار المتبادر إلى الذهن من كلمة (عصى) المعصية التي يستحق فاعلها النار، بينما أصل معناها في اللغة هو مطلق المخالفة، وقد تكون مخالفة لأمر استحبابي فإن عدم الاغتسال في يوم الجمعة يعني (مخالفة أمر الرسول بالغسل فيه) وهو لا يوجب عقوبة الهية، وقد تكون مخالفة لأمر إرشادي (كمخالفة أمر الطبيب للمريض بأن يجتنب التعرض للهواء البارد مثلا) وكلاهما لا يعد حراما من الناحية الشرعية ولا يستتبع العقوبة الالهية.

هنا نحتاج إلى المبين المعصوم الذي يعرف المراد الجدي من الآيات، أو يقام على خلاف الظاهر برهان عقلي يمنعنا من التمسك بالظهور الأولي الابتدائي.

البرهان العقلي هو ما ذكر من لزوم نقض الغرض، بمعنى أن الأنبياء لو كانوا يعصون ربهم وهو عالم بهم كان من الخطأ أن يصطفوا، وأيضا فإن الناس لن يتبعوهم ويسيروا خلفهم، أو يطيعوا أوامرهم، فنحن لو رأينا إمام الجماعة يرتكب الذنب سنرفض الصلاة خلفه، فكيف لو رأيت نبيا يعصي ربه هل تسمع كلامه؟

وفي بعضها يمكن توجيهها بأن الأمر لم يكن مولويا تكليفيا وإنما هو ارشادي فيه بيان الآثار المترتبة على المخالفة، مثلما هو أمر الطبيب، خاصة وأن الجنة التي كان فيها آدم ليس فيها تكاليف، (لا تقربا هذه الشجرة) فإنكم لو فعلتم ذلك سيحصل لكم ما لا يسركم. وتكونوا من الظالمين لأنفسكم باخراجكم إياها من الجنة !

ومن المعلوم أن البرهان العقلي الذي يمنع من قبول ارتكاب النبي المعصية، أقوى من ظهور الآية الظني، إذ البرهان العقلي قطعي بينما ظاهر القرآن ظني، البرهان العقلي يقول يستحيل أن يكون النبي عاصيا، فإذن لا بد من أن نحمل الآية المباركة على معنى آخر.

وأما قصة نبي الله موسى كما ذكرت في الروايات.. فإن القرآن الكريم لا يفصل القصة وانما يأتي بإشارات ليستفيد منها القارئ العبرة، خلاصتها كما جاءت في الآيات أن النبي موسى شاهد رجلين يقتتلان أحدهما من قومه المؤمنين والآخر من قوم فرعون أعدائه، وقد استغاث الاسرائيلي بموسى على القبطي الفرعوني فوكزه موسى فقضى عليه... لو أن روائيا أراد كتابة الموقف لاحتاج إلى صفحات ليبلغ مقصوده بينما يطويه القرآن في ثلاثة أسطر فهنا نحتاج إلى من يفتحها.

لو فهمناها على ظاهرها الأولي لحكمنا بالقول السابق: موسى النبي قتل القبطي عمدا، واعترف على نفسه بأن عمله ذاك عمل شيطاني.. لكن هذا يتخالف مع ما عرف القرآن نبي الله موسى وفضيلته.. فكيف يقوم نبي من الأنبياء العظام بمثل هذا العمل الذي يحوله من نبي إلى مجرم !!

فهنا نحتاج إلى أن نستنطق أهل الذكر في رواياتهم التفسيرية، وهم سيخبروننا عن أن المجتمع القبطي الفرعوني قد وصل مرحلة من الاضطهاد لأتباع النبي موسى بحيث كانوا يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، ويستخدمون سخرةً أصحاب

القوة منهم.. وفي احدى هذه المرات كان قبطي يريد قتل اسرائيلي فاستغاث هذا بموسى فجاء مدافعا عنه، فقتل القبطي هنا من ضربة موسى وكان يريد دفعه عن صاحبه.. فمات [١].

وهكذا نسبة الذنب إلى رسول الله ﷺ.. فكيف يمكن أن ينسب الله لنبيه ذنبا من الذنوب وهو الذي لم يخلق في الخلق من يساويه؟ ثم ما هذا الذنب؟ وتجاه من؟

يفسر المعصومون ذلك بأنه الذنب في رؤية القرشيين، وهو ما كانوا يتشكون منه عند أبي طالب قائلين له: إن ابن أخيك سب آلهتنا، وأفسد شبابنا.. فلم يكن عندهم أحد أعظم ذنبا منه حيث قاوم عادات وديانة ذلك المجتمع القرشي، فحقدوا عليه وحاولوا قتله، وجيشوا الجيوش ضده حتى إذا فتح النبي مكة، ووقف منهم ذلك الموقف الاخلاقي النبيل وعفا عنهم، أزال ذلك الموقف ما في نفوسهم مما رأوه ذنبا عظيما له تجاههم [٢].

---

(١) في رواية عن الإمام الرضا عليه السلام ما يشرح هذه الآيات عندما سأله المأمون عن قول الله عز وجل ﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ فقال عليه السلام إن موسى دخل مدينة من مدائن فرعون على حين غفلة من أهلها وذلك بين المغرب والعشاء ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ فقضى موسى على العدو وبحكم الله تعالى ذكره ﴿فَوَكَزَهُ﴾ فمات ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ يعنى الاقتتال الذي كان وقع بين الرجلين لا ما فعله موسى عليه السلام من قتله (إنه يعنى الشيطان ﴿عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ فقال المأمون: فما معنى قول موسى ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ قال: يقول: إني وضعت نفسي غير موضعها بدخولي هذه المدينة ﴿فَاغْفِرْ لِي﴾ أي استرني من أعدائك لئلا يظفروا بي فيقتلوني. عن عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق.

(٢) في حوار المأمون العباسي مع الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام حول الآيات التي توهم ارتكاب الذنب، لما أورد الآية المذكورة قال الامام الرضا عليه السلام: لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنبا من رسول الله (ص) لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنما فلما جاءهم (ص) بالدعوة إلى كلمة الاخلاص كبر ذلك عليهم وعظم وقالوا: (اجعل الآلهة الها واحدا ان هذا لشيء عجاب وانطلق الملا منهم ان امشوا واصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة هذا إلا اختلاق فلما فتح الله عز وجل على نبيه (ص) مكة قال له يا محمد: (انا فتحنا لك) مكة (فتحا مبينا ليغفر لك

الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله فيما تقدم وما تأخر لأن مشركي مكة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكة ومن بقي منهم لم يقدر على انكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم ذلك مغفورا بظهوره عليهم. عيون أخبار الرضا ٢/ ١٨٠.

القرآن مكي ومدني

نتناول في هذه الأسطر موضوع المكي والمدني من السور والآيات، وفوائد ذلك وآثاره في مجال العقائد والتاريخ والفقه.

في مدة ثلاثة وعشرين عاماً كان الكتاب المجيد وآياته تتنزل على رسول الله ﷺ بحسب اختلاف المواقع والأحوال في مكة المكرمة أولاً وفي المدينة المنورة فيما بعد، وكان حرص المسلمين وفي طليعتهم مولانا أمير المؤمنين عليه السلام على تدوين كلما يرتبط بالقرآن الكريم، وعلى توثيق نزول الآيات ؛ حتى يعرف سبب نزولها ويعرف المكان الذي نزلت فيه لتكتسب بهذه الطريقة زيادة في الثقة، فليس الأمر أنّ النبي ﷺ كان ينتج هذه الكلمات وهذه الآيات ولا أنّه كان يستقيها من أماكن أخرى، وإنّما كانت تنزّل بواسطة جبرائيل على رسول الله ﷺ وكانت هذه تدوّن وتسجّل وتوثّق، بل إنّ المعروف أنّ المصحف الذي كتبه أمير المؤمنين عليه السلام كان قد روعي فيه تاريخ نزول الآيات، فقد كان ترتيب القرآن الكريم بحسب ما كتبه الإمام على أساس نزول الآيات و تسلسلها وترتيبها، ومن الطبيعي في هذه الأثناء أن يعرف ما هو المكي منها، وما هو المدني، لكنّ الذي حصل فيما بعد كما ذكرنا في بعض الأحاديث السابقة أنّه لم يتم اعتماد ما كتبه أمير المؤمنين بترتيبه هو، وعلى أيّ حال القرآن الموجود بين أيدينا الآن كما هو المعروف يشتمل على سور مكية وعلى

سور مدنية، وعلى ما هو خليطٌ بينهما، يعني أنّ بعض السور هي مكية في الأصل ولكن يوجد فيها بعض الآيات مدنية.

ما هو المكي وما هو المدني؟

لا يقبل محققو العلماء [١] ما ذكره بعضهم من أنّ المكي هو كلما نزل في مكة ، وكلما نزل في المدينة فهو مدنيٌ لماذا؟

لأنّ بعض الآيات قد نزلت بعد انتقال النبي إلى المدينة ومجيئه إلى مكة فاتحاً تارة وحاجاً أخرى فهل هذه تعتبر مكية؟ إنّما الصحيح ما ذهب إليه علماء القرآن المحققون من المدرستين وهو أنّ الفاصل ما بين المكي والمدني هو الهجرة النبوية، فكلما كان قبل هجرة النبي للمدينة فهو مكيٌ، وكلما كان بعد هجرة النبي للمدينة فهو مدنيٌ حتى وإن كان مكان نزوله في مكة، لكنه بعد الهجرة فهو يعتبر مدنياً، والآيات التي نزلت على النبي في غدير خم وقبيل وبعيد المكان هو في مكة لكنّ الزمان بعد الهجرة فهي تعتبر مدنيةً ولا تعتبر مكيةً، هذا هو الرأي الذي ذهب إليه المحققون من علماء الفريقين.

وفي السابق كان يكتب في نسخ القرآن على رأس كل سورة إنّها مكية، أو مدنية أو مكية إلا آية كذا وكذا فمدنية، أما الآن في الطبعات المتأخرة غير موجود وإنما ذلك موجود في الفهارس حيث يكتب مكية أو مدنية.

ماذا ينفعنا مثل هذا الحديث و لماذا الاهتمام لمعرفة المكي والمدني؟؟

فيه فوائد متعددة وأحد هذه الفوائد: أنّ ذلك يبيّن مدة اهتمام المسلمين بتوثيق

(١) للتفصيل في معرفة الأقوال يراجع كتاب التمهيد في علوم القرآن ج ١ / للشيخ محمد هادي معرفة.

ما يرتبط بالقرآن الكريم، حيث يعيّن مكان نزولها في المدينة أم مكة، وسبب نزولها هذا، وهذا يبيّن الحرص على ما يرتبط بالآيات و ما يحيطها من ظروف، وهذا يكسب مزيداً من الثقة، أضف إلى ذلك أن هناك آثاراً أخر سوف نلاحظها فيما يرتبط في المدني والمكي.

ما الفرق بين المكي و المدني من الآيات هل مواضيعها تختلف؟ هل خطاباتها تختلف؟ هل أسلوبها يختلف؟

ميزات وخواص السور المكية والمدنية

ذكر العلماء أنّ هناك ميزاتٍ تختص بها السور المكية وتختلف بها عن السور المدنية وبالعكس:

١. مواضيع السور؛ فالمكية يفترض أنّها قبل الهجرة فهي تخاطب المجتمع الكافر غالباً فهي تريد أن تقنع هذا الوسط القرشي العابد للأصنام بأحقية الدعوة لذلك نرى أنّ مواضيعها تناقش عبادة الأصنام وكونها لا تضر ولا تنفع، كما في قوله تعالى﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾[١] وهذا وارد في كلام نبي الله إبراهيم إلى عبدة الأصنام حيث يحدّثهم عن خطئهم في عبادتها كونها لا تنفع ولا تضر ولا تنطق مخاطبًا عقولهم ووجدانهم حول مَنْ خلق السماوات والأرض؟ والتي عادة يجيبون عليه بقولهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[٢].

(١) الشعراء ٧٢ـ ٧٣.
(٢) الزخرف / ٩.

مواضيع السور المكية غالبا عقائدية ترتبط بالله وبتسفيه عبادة الأصنام، وسرد قصص الأنبياء مع أقوامهم، والهدف منها بيان أنّ الله سبحانه وتعالى لم يرسل نبيه محمد ﷺ بدعاً من الرسل وإنّما هو ضمن سلسلة من الأنبياء والرسل السابقين، حيث يقدّم للمجتمع القرشي هذا المعنى أنّ الأنبياء دعوا أقوامهم بلسان واحد، قال تعالى ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.(١)

ينقل قضايا العصيان والانحراف التي واجهها الأنبياء والرسل، والتي عوقبوا عليها بالعذاب وهذا لأخذ العظة والعبرة منهم.

ويتحدّث لهم عن فضية وحدانية الله وتفرّده بالألوهية فيقول ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا * فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٢) و في آية أخرى ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ * إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ * سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٣) فهذا في الجانب العقائدي الإلهي وفي الجانب الآخر تسفيه عبادة الأصنام مع إيراد قصص الأمم السابقة وما حلّ بها من عذاب.

مواضيع السور المدنية

في المدينة رسول الله يخاطب مجتمعًا مختلفا فهو ليس كافرًا كما كان في مكة، لكنه مجتمع يتكوّن من أهل الكتاب اليهود وجماعة المنافقين الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا خلافه، فهو بحاجة لتوجيه خطاب خاص بكل فئة، نحن نلاحظ أن الخطابات التي تتحدث عن أهل الكتاب كالبقرة وآل عمران والنساء والمائدة

(١) الشعراء / ١٤٣ ١٤٤.
(٢) الأنبياء / ٢٢.
(٣) المؤمنون / ٩١.

والأحزاب والحديد والحشر والبينة أو تلك التي تبدأ بنداء (يا أهل الكتاب) مخاطبة اليهود والنصارى جاءت في السور المدنية والأكثر كان يخاطب اليهود ويفند أفكارهم ويوبخهم لأنّ أغلب أهل الكتاب في المدينة كانوا من اليهود فركّز عليهم وناقشهم، فتارة يذكّرهم قصصهم السابقة مع أقوامهم وأنّهم كانوا مكذبين، قال تعالى ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[١] وأخرى يبين نياتهم الخبيثة وأفكارهم الباطلة بقوله ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ﴾[٢]، ومثل قوله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ * أَفَلَا تَعْقِلُونَ * هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[٣]. وقوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ * غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ *..﴾[٤].

وكذلك الحال عند استعراض أحوال المنافقين فإنه قد خصص سورة بل أكثر فإن سورة (المنافقون) هي سورة باسمهم، ولكنّ سورة (براءة) التي سميت بالفاضحة، بيّنت الكثير من صفات المنافقين وتحدّثت عن ممارساتهم وعن طريقة عملهم وهكذا سورة النساء والأنفال والأحزاب والحديد والفتح وكلها مدنية.

وحيث كان النبي ﷺ بصدد إنشاء دولته ومجتمعه المدني وهذان يحتاجان إلى

(١) المائدة / ١٣.
(٢) البقرة / ١٠٩.
(٣) آل عمران ٦٥ـ ٦٧.
(٤) المائدة / ٦٤.

دساتير قانونية، وأحكام شرعية ومناهج تربوية ومتابعة لأحوال المسلمين وأخلاقهم في مختلف المجالات من نصر وهزيمة، فقد أخذت السور المدنية جانباً كبيراً في هذا المعنى، والناظر إلى عناوين هذه السور(وهي ٢٨ سورة على المشهور) يجد ذلك فانظر إلى عناوين مثل: النصر والمجادلة والحجرات ومحمد ﷺ والنور والحج والبقرة وما فيها من تشريعات مفصلة والنساء وقضايا المجتمع الاسلامي وقوانينه (زواجا وطلاقا وميراثا).. وهكذا.

وبهذا العرض السريع يتبين كيف تختلف السور المكية عن السور المدنية في محور المواضيع التي تتحدث فيها هذه عن تلك غالبا.

١. المخاطبون مختلفون فالسور المكية تخاطب عامة الناس كما قال تعالى (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) بينما في المدينة يتحدّث مع الذين آمنوا باعتباره يشرّع لهم ويفصل لهم ويبين لهم ما لذي يجب عليهم أن يقوموا به.

٢. أسلوب الكلام والخطاب مختلف، فالسور المكية خطابها مجمل مختصر تحتوي على الأدلة عمومًا ولا يوجد فيها تفصيل، وآياتها قصيرة، بعكس السور المدنية (التي تتحدث عن الأحكام أو المنافقين أو اليهود) آياتها طويلة وخطابها مفصّل، آية واحدة مثلاً يوجد فيها سبعة عشر حكماً، وصفحة كاملة من سورة البقرة يوجد فيها آية الدين المعروفة، وغيرها من الآيات التي تتعرض للأحكام التفصيلية والتي لا تحتاج إلى كلمات قصيرة بل تحتاج إلى كلمات مفصلة. وقانونية ؛ وذلك لأنها تؤسّس للتشريع الإسلامي، هذا مع أنه يوجد عدد من السور المدنية القصار أيضا آياتها ليست طويلة كالنصر والزلزلة والبينة..

بينما في مكة غالبا هي آيات قصار، وهذا واضح في السور القصار في آخر القرآن، وفي غيرها كذلك غالبا.. فانظر إلى قول الله تعالى (إنه فكر وقدر. فقتل كيف قدر. ثم قتل كيف قدر. ثم نظر. ثم عبس وبسر.ثم أدبر واستكبر. فقال إن هذا إلا سحرٌ يؤثر. إن هذا إلا قول البشر. سأصليه سقر).[١]

تلاحظ أنّ الآية فيها ثلاث أو أربع كلمات أو خمس كلمات، وآيات السور المكية غالبا هي من هذا النوع، بل حتى السور الطويلة أيضا آياتها قليلة الكلمات سهلة الايقاع، فانظر إلى مثل سورة يونس وهود ويوسف وابراهيم والاسراء والكهف ومريم وطه والأنبياء والشعراء والقصص.. وغيرها. وربما يعود هذا إلى طبيعة الخطاب مع هؤلاء، فالإنسان المؤمن يطلب المزيد من الكلام، بعكس الإنسان الكافر الذي يرفض الاستماع ولا يفضّل التفاصيل لذا يتحدّث معه القرآن بهذا الأسلوب البسيط. بالاضافة إلى أن مقتضى التشريع والتقنين ومعالجة الاشكالات التربوية تقتضي التفصيل كما هو في الحالة المدنية، بينما توضيح أصول العقائد والحديث عن قصص الأنبياء وتجارب أقوامهم لا تقتضي هذا.

٣. الفاصل بين المكي والمدني هو فاصل تاريخي وهو تاريخ هجرة نبينا محمد ﷺ وليس فاصل مكانيا، بحيث أنّ المرحلة الزمنية كانت لها ظروفها الخاصة و لها مجتمعها الخاص و لها خطابها الخاص.

وبعد الهجرة تغيّر الظرف الزمني ووجد مجتمع آخر له أهدافه الخاصة، وله احتياجاته الخاصة لذا احتاج إلى خطاب مختلف عن خطاب المجتمع الأول.

آثار التفريق بين المكي والمدني في العقائد والفقه؟

٤. يؤثر في باب العقائد حيث أنّ قسمًا من الآيات التي نزلت كانت بمناسبة

(١) المدثر / ١٨- ٢٦.

معينة، و يمكن محاكمة ما قيل أنّها نزلت في هذا الشأن العقائدي بناءً على كونها مكية أو مدنية.

ونضرب هنا بعض الأمثلة ؛

المثال الأول:

أكثر الكتب التابعة لمدرسة الخلفاء عندما تتحدث عن هذه الآية المباركة ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1]. تصر على أنّها نزلت في حق أبي طالب عليه السلام ويستدلّ مؤلفوها بها على كونه كافرا وأنها نزلت على رسول الله حين حضرت أبا طالب الوفاة فأتى اليه وطلب منه أن يتشهّد الشهادتين لكنه لم يرض بذلك ورفض، وحاول معه النبي لكنه لم يقبل ! فنزلت الآية على حدّ زعمهم، هذا على عكس البحث التاريخي الذي يؤيد إيمان أبي طالب عليه السلام من خلال كلامه وشعره ومواقفه مع رسول الله صلى الله عليه وآله، ولكنّها مشكلة الخط الأموي في كتب السيرة والتفسير والذي جعله بسبب صراعه مع علي بن أبي طالب يقدح في إيمان أبيه. هذا بالنسبة للمسألة بصورة عامة .

وأما بالنسبة لهذه الآية (إنّك لا تهدي من أحببت) خصوصا ففي كتب مدرسة الخلفاء وبالذات الكتب المتخصصة في القرآن ومنها كتاب (البرهان)[2] يوجد فيها بحث بعنوان (ما نزل ليلاً على رسول الله) حيث يوجد رواية ينقلونها عن عائشة زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله أنّها قالت أنّ آية (إنّك لا تهدي من أحببت) نزلت على رسول الله وأنا معه في اللحاف فهذا يستنبطون منه أنّ نزول هذه الآية كان في الليل لا في النهار، وفيها دليل على أنّ الآية نزلت بعد زواج النبي بعائشة، وكان ذلك في السنة

(١) القصص / ٥٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي.٢٨٦ / ١

الثانية للهجرة، وقد توفي أبوطالب قبل الهجرة أواخر البعثة قبل ثلاث سنوات من الهجرة فهناك فاصل عدة سنوات فكيف يقال إنّه لما لم يعط أبو طالب النبي هذه الكلمة (الشهادتين) نزلت الآية (إنك لا تهدي من أحببت)، وفي نفس الوقت عائشة زوجة النبي تقول إنها نزلت (وأنا مع رسول الله في اللحاف) كيف يجتمع هذا مع ذاك ؟ فإما أن يكون هذا كذبا أو ذاك ولا يجتمع الأمران؟

مثال آخر:

- قال البعض ممّن لا يريد أن تتنزّل آية في فضل آل محمد أنّ آية ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[1] لا يصح نزولها في عليٍ وفاطمة والحسنين، لماذا؟، قالوا لأنّها من سورة الشورى وهي سورة مكية في مكة قبل الهجرة، وحينها لم يكن عليٌ متزوجا من فاطمة ولم يكن الحسن قد خلق ولا الحسين كذلك، فالحسن قدولد سنة ثلاثة هجرية والحسين بعده فإذا كان كذلك و لم تكن أسرة أصلاً ولم يكن أهل الكساء!

وهذا له جوابان:

الجواب الأول عقائدي وهو لا يمتنع أنّ الله سبحانه وتعالى يأمر بشيء سيتحقق فيما بعد .. مثل أن يعيّن مواقيت للإحرام لأهل مصر والحال أنّه لم يسلم من مصر في ذلك الوقت أحد، لكنهّ حدّد الميقات، و هذا يسمونه في الفقه وضع الحكم على منهاج القضية الحقيقية لا على منهاج القضية الخارجية، يعني ليس شرطاً أن يكون الشيء موجوداً في الخارج والواقع حتى يوجد الحكم، من الممكن أن يحرّم عليك الخمر حتى كان لو الخمر غير موجود أصلاً، فإذا فرض ووجد في وقت من

(١) الشورى / ٢٣.

الأوقات فهو حرام يجب الاجتناب عنه.

القربى الآن غير موجودة فإذا وجدت القرابة وكنت موجوداً يجب عليك مودّتهم، وكذلك في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] الآن أولو الأمر غير موجودين، لأن الرسول موجود، فإذا وجد أولي الأمر بعد رسول الله ﷺ وجب إطاعتهم، ولعلّ أكثر الأحكام الشرعية هي من هذا النوع ..هي على منهاج القضية الحقيقية إذا فرض و حصل موضوعها تجب وتحرم.

الجواب الآخر أنّ هذا الموقف السلبي لهؤلاء تجاه أهل البيت عليهم السلام جعلهم يغفلون عن مراجعة كتبهم، فلو نظروا إلى تفسير القرطبي وما كتبه الإمام الشوكاني حيث قال عن سورة الشورى بأنّها مكية إلا أربع آيات منها فمدنية، وأول هذه الآيات ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾.

- الأمر الآخر من فوائد معرفة المكي والمدني إنّ هذا يوضّح في الجانب التاريخي جزءاً من سيرة رسول الله ﷺ، ذلك أنّ الآيات كأنها كانت ترافق النبي صلى عليه وآله في مسيرته الدعوية، ونحن سنعرف إذا كانت الآية مكية من خلال أجواء خطابها، وكيف كان خطابها وموجّه لمن، ومن خلال مفرداتها، وكيف تحرك النبي بهذه الآيات المباركات.

الآن يستطيع الإنسان تمييز خطابات الخطباء من خلال المفردات التي يستخدمها الخطيب ومن خلال الأسلوب، ويستطيع تحديد المرحلة الزمنية من خلال المواضيع التي يتناولها الخطيب، وكذلك بالنسبة إلى سيرة رسول الله ﷺ

(١) النساء/ ٥٩.

وكيف تعامل مع أعدائه.

- معرفة المكي والمدني يفيد في معرفة الناسخ والمنسوخ وذاك لأنّ الناسخ لابدّ أن يكون متأخراً عن المنسوخ، والمنسوخ ممحي وكأنك تكتب شيئًا ثم تمسحه والمسح يكون بعد الكتابة، فلابدّ أن تكون الآيات المدنية هي الناسخة للآيات المكية.

وفي موضوع نسخ الآيات يوجد كلام طويل ونشير إليه إشارة بسيطة .. فإنه يوجد هناك رأي يقول :

أنّ النسخ الذي نتحدث عنه هو نسخ الآية لآية أخرى، آية سبق أن نزلت فتأتي آية أخرى فتنسخها، وأما نسخ الآية بالأحاديث فهذا على رأي المحققين لا يعتبر به أبداً مثلاً .

رأي المدرستين: رأي الإمامية عموما ورأي المحققين من مدرسة الخلفاء أنّه لا يمكن نسخ الآية بحديثٍ من الأحاديث لاحتمال أن يكون المتحدث مشتبهاً أو ناسياً أو متعمداً في ذلك فلا يستطيع أن يأتي وينسخ ويمحو آية قرآنية قطعية.

النسخ بآية من الآيات

يوجد هناك أيضاً أكثر من رأي في هذه المسالة:

الرأي الأول / أنّ البعض لديهم مبالغة في ذلك فقالوا هناك أكثر من مئة وثلاثين آية في القرآن منسوخة.

الرأي الثاني / لا توجد أيّ آية منسوخة أصلاً وهو كسابقه.

الرأي الثالث / يقول هناك نسخٌ لآيات قلائل، و من ذلك ما ذكروه في آية النجوى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾[١]، لم يلتزم بهذه الآية أحد من المسلمين ـ غير علي عليه السلام[٢] ـ بعد مدة من الزمان، فنزلت الآية ﴿أَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ﴾[٣] فرفع هذا الحكم وقالوا أنّ هذا من موارد النسخ.

وقيل أيضاً من موارد النسخ قضية توجه الناس إلى الكعبة بعدما كان التوجه إلى بيت المقدس وذلك في قضية تحويل القبلة إلى الكعبة، حيث أتت الآية المباركة ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ناسخة للأمر السابق وهو التوجه إلى بيت المقدس على المشهور.

إذا عرفنا أين المكي وأين المدني من الآيات ومن السور، يفترض أن نعرف الناسخ من المنسوخ، ويفترض أن يكون المدني ناسخًا للمكي لأنّ المدني متأخر عنه.

- معرفة المكي والمدني نافع أيضًا في قضية التمسك بالإطلاق في الاستدلال، وهذا يحتاج لبحث تخصصي، لكننا نقول بشكل إجمالي أنّه في مكة المكرمة كانت أصول التشريعات كما في قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٤].

(١) المجادلة١٢ /

(٢)) في كتاب ابن مردويه ؛ مناقب علي بن ابي طالب ، عنه عليه السلام « إن في كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي آية النجوى: إذا ناجيتم..كان عندي دينار فبعته بعشرة دراهم، فكنت كلما ناجيت رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قدمت بين يدي نجواي درهما، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد، فنزلت: ءأشفقتم.. « وفي كتب أخرى أيضا.

(٣) المجادلة.١٣ /

(٤) الأنعام.١٥١ /

وهذا في مقام أصل التشريع ولذلك لا يمكن التمسك بإطلاقه ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ حتى إذا كانا ظالمين أو حتى إذا كانا كافرين أو معتدَين، وهذه الآيات مكية لا نستطيع التمسك بإطلاقها إلى هذا المقدار نظراً لأنها مكية والآيات المكية في صدد أصل التشريع لا في بيان التشريع بتفاصيله وجهاته المختلفة، أمّا إذا صارت آيات مدنية فحيث أنه دور التقنين والتشريع و مرحلة إعطاء الأحكام وبيان الوظيفة العملية، هنا يمكن التمسك فيها بالإطلاق، بينما في مكة لا يمكن.

ماذا عن العلاج بالقرآن

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1]

من المواضيع الدائرة في الساحة الاجتماعية، موضوع: التداوي والعلاج بالقرآن الكريم.

هل أن العلاج بالقرآن الكريم، والتداوي به، أمر محمود ومطلوب؟ وهل له حقيقة، هل عليه أدلة؟ أو أنه كما رأى فريق مخالف لذلك، هو أمر خرافي يقوم به أربابه لأجل استرزاق المال والحصول عليه، وأنه لا أصل له، ولا واقعية؟.

هاتان نظريتان ورأيان يستتبعان ممارستين اجتماعيتين، فمن يعتقد بأن العلاج بالقرآن أمر طبيعي بل هو من أفضل أنحاء العلاج، لأنه يستعمل كلام الله عز وجل، لا ريب أنه سيذهب وراء العلاجات القرآنية، وأن يستعملها مع نفسه، بل ربما مع غيره.

ومن يرى أن القرآن الكريم، ليس في هذا الاتجاه أصلا، فلم يأت للعلاج

(١) الاسراء.٨٢ /

البدني، والشفاء من أمراض الجسم،، فماذا يقول كلا الفريقين وما هي أدلتهما؟ وما هو الرأي المختار بعد ذلك؟

أدلة المدافعين عن العلاج بالقرآن

يقيم هؤلاء أدلة وشواهد على أن القرآن فيه قدرة علاجية بل وشفائية.

١. يقولون أن القرآن الكريم وصف نفسه بأنه شفاء، وليس مجرد علاج فالعلاج قد ينتهي إلى نتيجة الشفاء وقد لا ينتهي والطبيب إنما يصف العلاج، ولا يصف لك الشفاء.. بخلاف الشفاء فإنه المرحلة النهائية التي تنتهي لها المعالجات.. والقرآن الكريم، وصف نفسه بأنه شفاء، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، فإذا كان وصف نفسه بالشفاء، فهذي مرحلة متقدمة على مرحلة العلاج. وفي آية أخرى أيضا، جاء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾[٢].وأيضا فقد ورد في الأخبار عن النبي ﷺ، وعن المعصومين بالنسبة إلى الإمامية، (والبحث في هذا الموضوع أصلا واختلافا وأدلة موجود لدى الطائفتين) أنه قال: (أن النبي ﷺ قال لجابر بن عبد الله الأنصاري: يا جابر! ألا أعلمك أفضل سورة أنزلها الله في كتابه؟ قال: فقال له جابر: بلى بأبي أنت وأمي يا رسول الله علمنيها. قال: فعلمه الحمد أم الكتاب.

ثم قال: يا جابر ألا أخبرك عنها؟ قال: بلى بأبي أنت وأمي، فأخبرني فقال: هي شفاء من كل داء إلا السام، والسام الموت)[٣]، فإذا كانت سورة واحدة من سور

(١) الإسراء/ ٨٢.
(٢) يونس / ٥٧.
(٣) مجمع البيان١ / ٤٨.

القرآن، فيها شفاء من كل داء، فما ظنك بكل القرآن وكذلك ما وري عن الإمام الصادق عليه السلام من أن رجلا جاء إليه وشكى إليه حمى طاولت عنده فأمره أن يكتب سورة من القرآن، في إناء ثم يصب عليه الماء ويشربه، ففعل ذلك، فهدأت عنه الحمى. فيستفاد من الآيات والروايات أن التداوي والعلاج بالقرآن الكريم، أمر مشروع ومطلوب وممدوح.

٢. كما يقولون، هو وجود مئات الحالات والتجارب بل الشواهد التي لا تكاد تحصى، في أن أناسا من مختلف الأماكن، والأزمنة استعملوا القرآن الكريم وآياته وسوره، في شفاء أمراضهم، من أمراض خطيرة أو بسيطة، وحصلوا على نتائج باهرة، وبعضها بعدما عجز الطب المعروف في علاجها. وإنكار ذلك جملةً هو مكابرة وعناد!

٣. يتحدثون فيه عن أن هناك ارتباطا بين المخلوقات، قد يكشف الإنسان عن أسراره بالتجربة ويستفيد من معرفة هذا الارتباط، وقد يبقى خافيا عليه حتى حين. ومما عرفه الإنسان هو ارتباط بعض المواد من نباتات بشفاء امراض، انتهت تلك المعرفة إلى تصنيع عقاقير وأدوية أصبحت تطلب من الصيدليات وتستخدم من قبل الاطباء، أو تم تصنيع المادة المشابهة لها في الخواص.

ما يدرينا أن آيات القرآن الكريم وكلمات الله عز وجل، فيها من التأثير في شفاء امراض البدن ما هو أكثر من ذلك، وأنها مثلما تؤثر في قلب الإنسان، ونفسه، وتغير أخلاقه، أيضا تؤثر في بدنه وتعالج أمراضه؟

فقد يكون هناك ارتباط بين كلمة (السميع) وهي من أسماء الله، وبين وجع الأذن، فإذا تم تجربة ذلك مرارا وتبين لنا وجود ارتباط في تخفيف الألم أو شفائه أمكن أن نقول به. وهكذا مثل (البصير) فيما يرتبط بالعين..

ربما لم يكتشف فلان هذا الارتباط واكتشفه غيره !

حتى أن بعضهم أوجد قائمة بأسماء الله الحسنى وبين الأوجاع والأمراض البدنية، وبين الآيات القرآنية والمتاعب الجسمية. ومن يراجع مواقع الاعجاز العلمي في القرآن والسنة يجد مقالات في هذا الاتجاه ليست بالقليلة.

وإذا كان لبعض ما خلق الله تأثير في الشفاء، فليكن للقرآن الذي هو كلام الله وعلمه وله من قوة التأثير، ما ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، له نفس التأثير في بدن الإنسان.

ومن الأمثلة الشائعة في هذه الأيام عندهم، القول بأن الماء يتأثر في تركيبته الداخلية بالكلام الذي يقرأ عليه.. وذكروا أن هناك بحوثا في هذا المجال ! فإذا كان الماء يتأثر بالكلام العادي، فمن باب أولى، أن يكون كلام الله عز وجل، عندما يتلى على الماء، أن يكون متغيرا في تركيبته الداخلية، بنحو ينفع البدن، وإذا تغير وتأثر هذا الماء، فإن بدن الإنسان الذي يتركب من حوالي ٧٠٪ من الماء والسوائل، ينبغي أن يتأثر أيضا..

أدلة المخالفين للعلاج القرآني

يعتمد هؤلاء على التأكيد بأن العلاج بالقرآن لا أصل له، بعد رد أدلة الفريق الأول، وأن هذه الفكرة إنما أشاعها من حول هذه الفكرة إلى تجارة واسترزاق، واستفاد من وصول بعض المرضى لحالة من اليأس فهم يستقبلون أي فكرة من أجل الخلاص من الوضع الذي هم فيه. فهذه امرأة لم تحصل لها فرصة الزواج تتمسك بمن يعطيها أي نوع من الأمل ! وتلك المتزوجة التي لم ترزق بطفل وذهبت للمستشفيات ولم تحصل على نتيجة تصبح هدفا لهؤلاء المعالجين

بالقرآن، ومريض السرطان كذلك..وهؤلاء يستغلون مثل هذه الحالات ويطلبون مبالغ تصل احيانا إلى خمسة أضعاف ما يتقاضاه أكبر استشاري في الطب في نفس الموعد !ثم إن لم ينتفع بما ذكره له، صرفه بالقول إن تأثير العلاج يتوقف على الايمان القوي به وأنت ليس عندك قوة الايمان !! وليس من حسيب ولا رقيب !

وأما أدلتهم فإنهم يقولون:

أولا: نفس آيات القرآن الكريم دليل على أنه ليس شفاء للبدن، فلا توجد آية تقول استشفوا من أمراضكم البدنية بالقرآن الكريم، والآيات التي جاءت فيها كلمة شفاء، فإنما هو ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ وما في الصدور، قد يعني العقائد والايمان وما يرتبط بها من شك أو ضعف ولعل الشاهد عليه ما ورد في آية أخرى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾.فلا يراد منه أنهم يستخرجون قلبه، أو شراينه، وإنما يستخرجون أفكاره وعقائده، وشكوكه !

وقد يكون المقصود من ذلك أن في القرآن شفاء من السيئات الأخلاقية مثل الأحقاد، بل ومثل القلق والاضطراب والاكتئاب.

ويضيف هؤلاء قائلين إن الشاهد على أنه ليس المقصود بالآيات الشفاء البدني: أن القرآن يقول في شأن العسل أنه ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾، وهذه طبيعة العلاج البدني لا يختص بأصحاب عقيدة أو مذهب أو لخصوص المؤمنين دون الفاسقين.. بل هو لعموم الناس.

وأما القرآن فقد تحدث عن نفسه بأنه شفاء للمؤمنين، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وأما غيرهم من الظالمين فلا ينفعهم وإنما ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾، إن طبيعة الدواء البدني لا يعترف بهذه التصنيفات، فحبة الأسبرين لسيولة الدم مثلا، لا يختلف الحال في تأثيرها بين من يكون مؤمنا أو

فاسقا.وجراحة القلب لا تعرف مسلما أو مسيحيا.

فإذن نفس الآيات المباركة تفيد أن القرآن الكريم ليس للعلاج البدني والجسمي، وإنما هو للعلاج الديني العقائدي والنفسي.

والشاهد الآخر أن العلماء عندما استعرضوا قضايا الاعجاز في القرآن لم يذكروا هذا الجانب مع أنه لو كان لكان من أوجه الاعجاز التي لا ينبغي اغفالها.

وبالنسبة للروايات، فإنه مع عدم سلامة الكثير منها من الناحية السندية، وعدم امكان التزام مضمونها بالجملة (وإلا يلزم الكذب فيها)، فإنه يمكن قبولها في الجملة.. وتوجه بما يأتي في الدليل الثالث..

الثاني: يناقش هؤلاء ما ذكر في كثرة الشواهد، وحالات الشفاء المختلفة التي حدثت وهي كثيرة، بأن ذلك صحيح، وبعضها في أمراض مستعصية، ولكن يتساءلون عن عدد الحالات التي لم تحصل على نتيجة، ويرون أنها أضعاف تلك. وبعبارة أخرى لو تم احصاء الاشخاص الذين تم شفاؤهم بسبب الآية الفلانية أو السورة الكذائية، وتم احصاء من لم ينتفعوا بها، فإن النتيجة في غير المستفيدين سيكون عدد هؤلاء أضعاف أولئك، وما طبيعته ذلك، لا يمكن أن يكون علاجا بدنيا !

إن حال هذا مثل حال الدعاء، فلا يوجد نص أكثر صراحة في الاستجابة من قول الله تعالى﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ومع ذلك فإن اعداد من لم تتم الاستجابة الفورية لهم لأسباب مختلفة ربما تكون أكثر من الذين استجيب لهم !

الثالث، يقولون؛أن الله سبحانه وتعالى، نظم هذه الحياة وهذا الكون، على أساس سنن وقواعد، فجعل للرزق طريقا، وللعلم طريقا، وللشفاء طريقا ودعا

الناس لسلوك تلك الطرق، فقال في الرزق ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾، وقال في العلم ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأمر بمراجعة الطبيب والالتزام بوصاياه في أخذ العلاج ليتحقق الشفاء.. هذه هي القاعدة العامة التي تنتهي إلى نتائج طبيعية.

لو خالف أحدهم ذلك، وقال إنه يريد أن يكون كمريم ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾، فيبقى في المسجد ويعبد ربه ويدعوه، فهذا لا يستجاب له ولا يرزق، كقاعدة عامة.. وهكذا بالنسبة لمن يريد العلم لو أن أحدهم أخطأ الطريق وقال إنه لا يريد أن يدرس أو يسأل المدرس أو يتعب في تحصيل العلم وإنما سيدعو الله ويقوم بأعمال روحانية وصلوات لكسب العلوم المختلفة، فإنه لن يحصل على شيء، هذا كقاعدة عامة.. وكذلك الحال بالنسبة للعلاج والشفاء، حاله حال الرزق والعلم.. له قاعدة من خالفها لا يتحقق له المطلوب.

نعم، هنا ملاحظة مهمة، وهي أنه في بعض الأحيان، ولأجل حكمة معينة، قد تكون لإظهار أنه على كل شيء قدير، أو لإظهار أنه يمحو ما يشاء ويثبت، ولإظهار أنه ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يتجلى لخلقه لزيادة إيمانهم في أنه ليس غائبا عن الكون، بل هو ناظر حاضر، متصرف، قادر، فاعل، ماح، مثبت، فلو عجز كل البشر وطبهم عن شفاء مريض، وأراد شفاءه، فإنه في اللحظة يشفى..﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[1]، فيعظم إيمانهم، ويكثر تعلقهم بخالقهم، يظهر لهم من الأشياء ما هو مستحيل بنظر المخلوقين، فرجلان قد أخبر الطب أنه يستحيل إنجابهما (فمن جهة كبر السن في احدهما، ومن جهة أخرى زوجته كبيرة السن وعقيم عاقر).. لكن إرادة الله وتجليه لخلقه بخلقه ومظاهر عظمته، تقضي بأن يكون هناك حمل وولادة: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا

(١) الطلاق.١٢ /

عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ * إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[١].

إذا كان الأمر ضمن القواعد الطبيعية والسنن الموضوعة في الكون فهذا من أعجب العجب ! وأما إذا كان (أمر الله) فلا محل للعجب.

خلاصة الرأي المختار في نقاط

الأولى: لا ريب أن القرآن الكريم، فيه شفاء لما الصدور والقلوب، وهذا يشمل الأمراض النفسية، في الجملة، القرآن الكريم يصنع استقرارا في النفس، توازنا في الداخل، يخلص الإنسان من عوامل الاضطراب النفسي، ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب)، فكيف إذا كان ذلك الذكر هو القرآن الكريم، الذي وصف بأنه: (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[٢]. هذا أمر لا كلام فيه .

بالنسبة إلى الأمراض البدنية، سبيلها الاعتيادي، هو سبيل الطب الطبيعي، الذي حرض عليه الدين والإسلام، ومارسه أيضا المعصومون أيضا، مع أنفسهم وقبلوا به.

تذكر قصة عن نبينا المصطفى محمد ﷺ، أن رجلا من أصحابه، جاء إليه وشكا ألما في بطنه،، فأمره النبي بالتصبر عليه، وجاءه مرة ثانية، وأعطاه نفس الجواب ولعله من باب امش بدائك ما مشى بك[٣]، واعط فرصة لبدنك ليتغلب على المرض بنفسه.

---

(١) هود٧٢ / ـ٧٣.
(٢) التكوير.٢٧ /
(٣) نهج البلاغة قصار الحكم ٢٨

جاءه بعد مدة، وأخبره باشتداد الألم، وذكر له عن طبيب يهودي، وأنه قد يفتح البطن فأذن له وذهب للطبيب اليهودي الذي شق بطنه وأخرج منه رجراجا كبيرا،(مثل كتلة دهنية أو سوائل مجتمعة)ثم خاط موضع الجرح. فصح وأخبر النبي فقال ﷺ: إن الذي خلق الأدواء جعل لها دواء[1].

ونحن نجد أمير المؤمنين عليه السلام عندما أصيب بضربة ابن ملجم المرادي ووخم حاله ليلة العشرين استدعي له أبصر الناس بالطب في الكوفة، أثير بن هاني السكوني، فأخذ عرق شاة ووضعه في محل الجرح، ثم أخبر الإمام بأن الحالة لا ينفع فيها علاج، وأنه لا بد أن يعهد عهده.. هذا مع أنه أعلم الناس بالقرآن، وكان بإمكانه لو كان القرآن لهذا الجانب من العلاج أن يقرأ على موضع الجرح أو يعالجه بالآيات !

نعم، التوسل بالقرآن الكريم، وتلاوته نافعة جدا، سواء شفي الإنسان بسببها، أو لم يشف، وهي في كلتا الحالتين نافعة، ذلك أن أنه إذا لجأ إلى الله وفزع إلى تلاوة كتابه في مصيبته ومشكلته، هذا شيء رائع ومطلوب ! لا تحتاج لأحد يقرأ عليك: قل هو الله أحد، اقرأ القرآن بنفسك، توسل بالقرآن، توجه بالقرآن ! تعرّض لأنوار القرآن، سواء حصلت على نتيجة شفاء أو لم تحصل أنت في نتيجة حسنة.

وإذا لم تحصل على ذلك لا تقل القرآن لم يصنع شيئا! اعلم أن الله على كل شيء قدير وإنه إن صنع لك شيئا فبرحمته وإن منعك فبحكمته.. ولو أن كل شخص رفع يده إلى السماء واستجيب له في شفاء مرضه فورا، وتوسعة رزقه فورا.. لبطلت سنة الله في خلقه والكون. ولأصبح كل شيء استثنائيا! وفي هذا من فساد الحياة وتخلف العلوم واختلال النظام الاجتماعي ما لا يخفى.

(١) بحار الأنوار.٧٣ / ٥٩

القرآن الكريم، فيه نور وهداية! نعم هو ليس مستشفى طبيا، وليس علاجا لكل مرض بدني، لا أقل فيما هو موجود عندنا من العلم، لعله، نحن لا نعلم، لعله لو كان نبيبنا المصطفى ﷺ وسألناه مثلا: هل أن الروماتيزم كمرض ينفع فيه أن نقرأ عليه آيات القرآن وقال لنا نعم، نؤمن بذلك ونعتقد أنه يحدث. لكن هذا الشيء لم يحدث. بل أمر النبي والمعصومون بالرجوع إلى السنن الطبيعية في كل شيء ومنها العلاج عن طريق الأطباء، وضمن أصوله المقررة.

نماذج من التفسير بالرأي لمعاصرين

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال (من تكلم في القرآن برايه فاصاب فقد أخطأ)[1]

وعن الامام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام انه قال: (من فسر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر، وان أخطأ كان اثمه عليه).

نتناول في هذه السطور بعض النماذج من تفسير القرآن بالرأي وهو الذي نهي عنه في روايات المدرستين وذلك لان هذا الطريق لما كان طريقا خاطئا فانه قد اعتبر من الناحية الشرعية مما لا ينبغي ان يسلك فقيل وانه حتى لو أصاب فهو مخطئ لأنه يراد قطع الطريق على الناس لكي لا يسلكوه فان اصابته في بعض الأحيان لا تنفع مع خطأه الأكثر إذ هو منهج غير سليم.

(١) بحار الأنوار ٣٠/ ٥١٢.

الان عندما ينظر الإنسان الى الساحة العربية والإسلامية يجد نماذج لهذا التفسير بالرأي الغالب فيها ان من يتصدى لها لم يمتلك العدة الكاملة للولوج في باب التفسير وقد سبق ان تحدثنا عما يحتاجه المفسر من علوم وذكرنا فيها عدد من العلوم التي يقتضي التفسير اتقانها قبل الولوج في التفسير و الخوض في غمراته و لججه ولكن للأسف فنحن لا نجد هذا في قسم ممن يتصدى للتفسير في هذه الأيام والغالب ان قسما من هؤلاء لديه معرفة باللغة العربية ولديه كفاءة علمية ما في هندسة أو رياضيات أو كيمياء وغير ذلك فكانه يعتبر ذلك كافيا للأخذ بناصية القرآن الكريم والبعض يبرر هذا بان القرآن لما كان هدى للناس فانا واحد من الناس وهذا هدى لي لذلك ينبغي ان افكر فيه من دون وسائط كما يقول هؤلاء.

وقد ذكرنا في صفحات أخر بان هناك مستوى من القرآن الكريم هو بالفعل لكل الناس عامة الناس ولكن عندما يكون الامر في اطار الدخول الى داخل أعماق القرآن وتفسيره وتقديم احكام وفتاوى شرعية نفيا واثباتا فهنا لم يخاطب القرآن الناس عامة بانه هداية لهم في هذا المستوى الا اذا امتلكوا قدرات معينة و مقدمات خاصة حينذاك يكون هذا الكلام صحيحا اما لو كان كذلك فلا معنى لقوله ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كان ينبغي ان يقول القرآن فانظروا بأنفسكم ولا تعتنوا بكلام غيركم.

ويكثر هذه الأيام ترديد هذا الشعار (لا تؤجّر ولا تسِّلم عقلك الى احد انت فكر بنفسك وانت استنبط بنفسك واستكشف القرآن بنفسك) وهذه العبارة فيها من الحق شيء وفيها من الباطل أشياء.

ان الجامع المشترك بين هذا النوع من التفاسير والمفسرين هي ان لديهم أفكارا معينة وغالبا هي قادمة في هذه الأزمنة من الثقافة الغربية كقضايا المساواة بين

الرجل والمرأة و في الميراث والزواج المتعدد و قضايا الحرية وحقوق الإنسان و قضايا النظر و كقضايا الحجاب وعدم الحاجة اليه أ ولو نظرنا الى جملة قضايا هذه التفاسير لوجدناها تدور في هذه الأطر وكان القرآن الكريم ليس فيه مواضيع الا هذه المواضيع.

من هذه الآيات (٦٢٣٦ آية) هذه هي المواضيع التي تشغل بال هذا النمط من المفسرين أ فيأتي هذا ضمن بيئة معينة وأفكار خاصة و يحاول ان يعطف القرآن عليها.

ان تأتي وتقول هذا رأيي !! لا أحد ينازعك فيه، او تقول هذا فكره قالها العالم الغربي الفلاني وانا اقدّرها فانه لا احد يخالفك في اختياراتك.. ولكن عندما تقول هذا هو تفسير القرآن هنا تكون المشكلة. ثم من اين هذا التفسير؟؟

من الأمثلة الشائعة من التفسير بالرأي

١. الصوم ليس واجبا تعيينا !!

﴿ايَّامًا مَّعْدُودَاتٍ * فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ * وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ﴾[1].

عندما نظر بعضهم الى هذه الآية جاء بشيء جديد لم يقل به احد فقد قالوا بان تفسير قوله ﴿فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ بان الفدية هذا واجب يعادل اصل الصيام فلو اختار إنسان الفدية وهو مسلم شاب صحيح البدن عاقل وقادر على الصيام، فانه يجوز له مع انه يطيق الصيام أ فإعطاء فدية اطعام مسكين يعادل دولارا ونصف يكفيه

(١) البقرة ١٨٤.

ويقولون بانه لا يجب ان يشعر الإنسان بالإثم والذنب على أثر اختيار الفدية.

فمثلا في أوربا يقولون بان الصيام مرهق والإنسان هناك مخير بين الصيام و اعطاء فدية الطعام و مستندهم هو قوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[1] فهذا يعني ان الشاب القوي يستطيع ان يدفع مبلغ وقدره خمسة واربعين دولارا عن الشهر كله ويجلس مرتاحا من الصوم ولا داعي ان يستشعر انه آثم.

مناقشة سريعة

نقول: هذا الكلام من زمن رسول الله الى زماننا لم يلتفت اليه احد ولم يفعله احد أصلا ! ولو كان بهذا النحو لكان الامر سهلا و يسيرا لما عانى المسلمون في مختلف ادوارهم وبلدانهم العطش والجوع!. ثم ان الصوم له حِكَم أخرى منها ما ورد في قوله تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وكقول رسول الله ﷺ (اذكروا بجوعكم فيه وعطشكم جوع يوم القيامة وعطشه) فهل يعقل ان يصبح الصيام بنحو يمكن شراءه بمبلغ بسيط مع القدرة عليه ؟ وهل يمكن ان يقبل الدين مثل هذا الامر؟؟

ثم أين الآية التي تقول ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ و التي فيها اطلاق لجميع الحالات، فكل شاهد وحاضر في البلد يجب عليه ان يصوم سواء عنده قدرة او ليس عنده قدرة؟ بغض النظر عن الاستثناء الذي سيأتي فيما بعد.

حيث جاءت آيات أخر تستثني حالات من الاطلاق الأول: كقوله تعالى ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ والآية هنا لم تقل فليدفع فدية صيام أ بل قالت الآيات الشريفة ﴿فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي انه لا يسقط عنك الصوم حتى لو كنت مريضا أو مسافرا فليس لك حل إلا ان تصوم في أيام أخر أهاتان حالتان.

(١) البقرة/ ١٨٤.

والثالثة: فئة تبلغ حد الاطاقة القصوى على أثر الصيام مثل رجل ليس مسافرا ولا مريضا ولكن عمره كبير ويبلغ جهده في الصيام - فهؤلاء يصعب عليهم الصيام في شهر رمضان بل في كل اشهر السنة مع انه مكلف بالصيام ولكنه لا يصبر عن الطعام لمدة قصيرة فكيف يصبر عن الطعام لسبعة عشرة ساعة؟! فهذا الشخص ليس عليه الصوم في أيام اخرـ حيث الحالة نفسها من عدم التمكن ولكن لأهمية الصيام عليه ان يفدي عن كل يوم بطعام مسكين.

ولكن الشخص القوي الحاضر في البلد ليس حكمه التخيير بين الصوم والفدية بحجة انه ستأتينا من أوربا ملايين الدولارات فهذا كلام بعيد جدا عن سياق الآيات و عن أهمية الصيام (الصوم لي وأنا اجزي به) وقوله تعالى ﴿فليصمه﴾ فهذا لا ينسجم مع تعويضه بالمال وانا مستطيع على الصيام.. وهذا ما ذكره بعض المفسرين المعاصرين وينطبق عليه عنوان التفسير بالرأي.

٢. ماذا يعني حب الشهوات من النساء؟

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

هناك عقدة عند من هم متأثرون بالحالة الغربية حيث يقول الغربيون بان الاسلام ينظر الى المرأة نظرة شهوية وهذا مخالف لكرامة المرأة كإنسان.

بالطبع فإن هذا الكلام غير صحيح فالمرأة مكرمة معززة في القرآن حيث ذكر في شانها في القرآن انها سكن وانها ستر للإنسان وانها محل زواج ونسب وصهر

(١) آل عمران/ ١٤.

ومنها انها مكان للرغبة الجنسية مثلما الرجل مكان للرغبة الجنسية لدى المرأة.. نعم هناك ممارسات خاطئة من بعض المسلمين وهذا لا ريب فيه مثلما هو موجود عند غيرهم !

في الآية المباركة هنا يصف الله الشهوات ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ أي ما يشتهيه الإنسان وما يرغب فيه الإنسان سواء كان امرأة للزواج (أو رجلا بالنسبة للمرأة) أو بنين للامتداد والاستمرار أو ذهبا وفضة للاقتناء أو خيلا للركوب أو انعاما أو حرثا فالقرآن يعدد الرغبات و لا يوجد مشكلة في تعدد رغبات الإنسان.

فاذا جاء شخص وقال ان النساء هنا ليس المقصود بها المرأة بل المقصود هو الموبايل !!او قال ان المقصود من المرأة هي الراديو لان كلمة نساء جاءت من كلمة نسئ أي جاء متأخر فكما جاء في الجاهلية ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾[1] فقال بعضهم ان النساء هنا بمعنى المستجدات والمخترعات والمبتكرات الموجودة والتي ستتواجد فهذه حلال لكم لا تسألوا عنها احد لا عالم ولا غيره فقط اسأل نفسك.

الان هذا التفسير هل نستطيع تطبيقه على الآية ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾[2] ؟ او ان هناك تفسير لكلمة النساء وهنا تفسير اخر؟!

و قال تعالى ﴿ا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[3]،فهل هنا أيضا المقصود منها المبتكرات والمستجدات؟؟!

(١) التوبة/ ٣٧.
(٢) الأحزاب/ ٣٢.
(٣) الحجرات/ ١١.

أيضا سورة النساء هي سورة كاملة في القرآن الكريم فهل هي سورة المبتكرات؟؟

هذا من مصاديق التفسير بالرأي. القرآن يعبر عن نفسه بان آياته متشابهة مثاني ولا يستخدم التعبير هنا مختلفا عن التعبير هناك. فاذا أراد هذا المفسر بالرأي ان يعطى كلمة معنى جديد فهذا لا يمكن ان يكون مقبولا ابدا .

ويُعتقد ان ما يدعو هؤلاء الى القيام بالتفسير بهذه الكيفية ان هناك من يجلدهم بالقول انتم المسلمون تنظرون الى النساء نظرة شهوية و جنسية فيقوم هؤلاء المفسرون بتغيير معنى هذه الكلمة الى أمر آخر لكونه يشعر بالحرج ويشعر بانه متورط فحتى لا يتورط مع أولئك القائلين بالرغبة الجنسية يقوم بليّ عنق الآيات القرآنية لتتناسب مع ما يريد.

هذا التفسير اصله غير صحيح ويخالف سياق الآية المباركة، وآيات القرآن الأخر.. نحن لا نريد ان نقول بانه يتخالف مع الحديث أي ما قاله رسول الله والمعصومين لان هؤلاء لا يلتزمون بالتفسير بسنة النبي فضلا عن المعصومين.

٣. تعدد الزوجات خاص بأمهات اليتامى:

هناك من يسوط هذا المفسر بحيث انه يفسر الأمور بطريقة بحيث لا يتورط مع أولئك الأجانب فتراه يفسر الحجاب والتعددية الزوجية بطريقة لا يتورط معهم فتعدد الزوجات في الغرب مجرّم قانونا فلا يستطيع الرجل ان يتزوج اكثر من زوجة ولكن يستطيع ان يتزوج واحده و يأخذ له عدد من العشيقات.

الان في بعض بلاد المسلمين يقرون قرارات بهذا الاتجاه، ان من يعيش في ضمن هذه الفكرة فانه يريد ان يوفق بين ما في القرآن وبين هذا الفكر الموجود في الثقافة الأجنبية المواجهة للثقافة القرآنية.

يقولون ان تعدد الزوجات هو ظلم للمرأة وإلغاء لشخصيتها، وأصحاب هذا الفكر المتغرب يحاولون ان يوجهوا الآيات المباركة الى ما يريدون فالله يقول ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾.(١)

نحن هنا لسنا في صدد الدعوة الى تعدد الزوجات أو وحدتها وانما سقنا هذا للتوضيح والرد على المنهج من التفسير بالرأي فقط.

بعض المفسرين المعاصرين قالوا بانه لا يوجد عندنا تعدد. لو سألنا كيف لا يوجد عندنا تعدد وهو مذكور في القرآن!؟ فانهم يردون بانه أساسا في الحياة الزوجية امرأة واحدة لرجل فقط - وهذا مصدره الفكر الأجنبي- ويقولون بان الغرض من الزواج تكوين الاسرة والاستقرار الزوجي و انجاب الأبناء و إقامة علاقة كاملة وكل واحد منهما يمحض الاخر بالمحبة، (هذه الفكرة غير صحيحة وهي موجودة عند مدرسة الخلفاء وتجدها عند ردهم على شرعية الزواج المنقطع). وأوضح رد عليه هو ممارسة النبي مما لا يستطيع أحد إنكاره.

هذا النبي محمد ﷺ تزوج نساء متعددات اكثرهن لم تجتمع فيهن هذا المواصفات، فمثلا سودة بنت زمعة امرأة كبيرة سن فلا مطمع فيها لجمال ولا لأولاد، و النبي لأسباب معينة تزوجها بعد خديجة بنت خويلد.

وام حبيبة بيت ابي سفيان امرأة في الحبشة زوجها عبد الله بن جحش تنصر ومات عنها هناك، فلا تستطيع ان ترجع الى مكة لان أهلها كفّار وفي المدينة لا احد لها، وبقاؤها في الحبشة لا معنى له لذلك عقد عليها النبي و استجلبها الى المدينة ضمن ظرف خاص.

---

(١) النساء / ٣.

اذن المقدمة الأولى لهذا المفسر غير صحيحة، ثم جاء هذا المفسر بمقدمة أخرى أيضا لا دليل عليها وقال اذا كنت تريد ان تتزوج فعلى أساس ان تكون أسرة جديدة فعليك البحث عن أم يتامى ثم تزوجها واستر عليها واعتني بها وبأيتامها.. و لابد ان تكون عادلا بين اطفالك وايتامها .وبهذا فسر (فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة!).

ما فعله هو له هدف و الغرض منه هو انه حتى لا يقال بان في الإسلام ظلما للمرأة بقضية الزواج المتعدد فيقول هؤلاء بان المقصود من الآية ان يكون هذا الزواج بغرض تأسيس اسرة جديدة ورعاية لليتامى وكفالتهم مع امهم.

نعود ونقول بأن سيرة النبي (في زيجاته باستثناء أم سلمة) وأصحابه في زمانه، ثم المعصومين تخالف هذا التفسير تماما فأصحاب رسول الله ممن تعددت زوجاتهم بحيث أنه لم يكن احد منهم قد اقتصر على زوجة واحدة سوى ما ينقل عن أبي عبيدة بن الجراح ولم يكن عند أحد منهم قضية أم اليتامى !

وهذا امير المؤمنين عليه السلام المعروف انه تزوج بثمان زوجات على فترات حيث لم يجمع بينهن وكان زواجه بعقد دائم ولم تكن واحدة منهن أم يتامى

إذن قول هؤلاء المفسرين المعاصرين غير صحيح.. وأيضا ماذا تصنع بهذه الروايات الكثيرة التي تتحدث عن حقوق الزوجتين؟ ولكن هؤلاء للتحرر من القيود والتفسير بالرأي لا يعترفون بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله ولا بأخبار أهل البيت.

لهؤلاء نقول تارة يقول الشخص: هذا رأيي !! هنا نقول هذا رأيك وانت حر فيه، ولكن ان تقول ان القرآن يقول ذلك فهذا ليس صحيحا.

إن ما تتحدث عنه الروايات أن هناك قسما من الاولياء على اليتامى كانوا يفكرون ان يتزوجوا من اليتيمات فكان لدى بعضهم المتدين حرج وتخوف في

قضية أموالهم، بخلاف قسم آخر ربما يتزوج حتى يسيطر على أموالها ويستهلكها بالتدريج أو بطريقة أو بأخرى كأن يؤذيها حتى تطلب الخلع منه وتفتدي نفسها منه بأموالها.

يقول القرآن بحسب الروايات اذا كنتم تخافون من ذلك فتزوجوا من غيرهن. اما اذا كنت تثق في نفسك بانك لن تأخذ أموالها فلا مشكلة من الزواج منهن ولكن إذا كنت تخشى ذلك فتزوج في غير هذا الإطار.

٤. هل للذكر ضعف الأنثى في الميراث؟

يقول الله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ﴾[1] والمعروف عند المسلمين أن الآية المباركة تتحدث عن الميراث بهذا النحو فمرة يكون الوارث واحدا ومرة يكون متعددا واذا تعدد قد يكون كلهم ذكورا وقد يكون كلهم إناثا وقد يكونوا متنوعين.

اذا كانت واحدة فلها المال كله، نصفه بالفرض والباقي بالرد (فان كانت واحدة فلها النصف) أي لها النصف فرضاً والباقي ردا، الفرق بين الفرض والرد هو أن القرآن الكريم ذكر عددا من الفروض لا تقل ولا تزيد بذاتهاً وهناك شيء يسمى بالرد وهو بحث فقهي لا ندخل فيه. خلاصته أنه استحقاق بعض أصحاب الفروض الزائد من الإرث ردّاً بالقرابة أو بالسببيّة، كالبنت الواحدة فإنّها تستحقّ النصف بالفرض من القرآن الكريم والنصف الآخر بالرد بالقرابة.

وأما اذا كانت البنت واحدة ويوجد ابوان فلكل واحد منهما السدس اما اذا لم

(١) النساء/ ١١.

يوجد ابوان فيرجع الباقي اليها ردا .اذا كانتا بنتين أو أكثر فلهما ثلثا ما ترك بالفرض والباقي يرد عليهن اذا لم يوجد أحد معهن اما اذا كان يوجد أحد آخر معهن فانه يعطى بحسب نصيبه وفرضه. واذا كان هناك ذكر واحد يكون له المال كله واما اذا كانوا ذكرين أو أكثر فالمال بينهم بالسوية وكذلك اذا كانتا انثيين او أكثر فيكون المال بينهم بالسوية.

و اذا كان الورثة ذكورا واناثا مختلطين فانه عند المسلمين جميعا منذ القديم الى اللحظة فان للذكر مثل حظ الانثيين وهذا مقتضى العدالة في الشريعة الإسلامية حيث الذكر قد حمل مسؤوليات من الانفاق لم تتحملها الانثى فصار لأجل هذا يُعْطى سهم أكبر في الميراث.

جاء بعض المفسرين ممن نعتقد بان تفسيرهم تفسيرا بالرأي، دافعهم هو نفس الفكرة السابقة أي انهم يسمعون الغربيين يرمون المسلمين بانهم ليس عندهم مساواة بين الرجل والمرأة والشاهد في ذلك في الميراث فيقوم هؤلاء المفسرون ويقولون بانه لدينا مساواة فنصيب الانثى في الميراث هو نفس نصيب الذكر حيث يقول القرآن إن البنتين لهما الثلثان ويبقى الثلث هو نصيب الذكر اذن الذكر له الثلث وكل بنت لها ثلث.

وقالوا أيضا بان تفسير﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ إذن النصف الثاني يكون من نصيب الذكر.

الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء المفسرون ان هذه التقديرات لم يؤخذ فيها وجود الذكر فعندما قال تعالى﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ﴾ أي لهن الثلثان من غير وجود الذكر فان الآية المباركة في البداية ذكرت بان اولادكم قد يكونوا كلهم ذكورا وقد يكون كلهن اناثا وقد يكون هناك اختلاط ثم ذكر في حالة الاختلاط وجود الاناث مع الذكر

﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾.

ثم تكلم القرآن عما اذا كان هناك اناث فقط فتحدث عن الانثى الواحدة بدون ذكر ولها النصف انثيين فصاعدا من دون ذكر لهما ثلثان.

كما قلنا إن الخطأ الذي وقع فيه هؤلاء المفسرون انهم جعلوا الذكر موجوداً دائما مع الجميع، وهناك مشكلة يقعون فيها مع هذا فمثلا لو كان هناك ذكر واحد مع ست اناث فحسب التقدير ان الذكر له ثلث والنساء فوق اثنتين لهن الثلثان ثم قسّم الثلثين على عدد الاناث أي على ستة فيكون نصيب البنت اقل بكثير من الذكر

فلو فرضنا ان عندنا مائة ريال فثلثها ٣٣ ريالا وهذا هو نصيب الذكر، الثلثان ٦٦ ريالا وهو نصيب الاناث نقسمه على عددهن أي على ستة فيكون نصيب كل واحدة هي أحد عشر ريالا فقط !!.

إذن هؤلاء المفسرون يحاولون أن يدافعوا عن أمور يعتقدون أنها تحرجهم أمام أفكار غربية لذلك هم يلوون عنق القرآن، ولكن في الحقيقة هي لا تحرجنا نحن ولا تحرج الإسلام الصحيح والتشريع الصحيح هي فقط تحرجهم هم

نحن نلاحظ ملاحظة انهم يكررون على مسامع الناس بأنه لا تسألوا أحدا ولا تستفتوا أحد لا تؤجرون عقلك في حين أنهم ينشرون للناس أفكارهم ويريدونهم ان يتبعون أفكارهم

أحرام على بلابله الدوح حلال على الطير من كل جنس؟

هؤلاء يفتون أيضا فيقول بعضهم: عليك أن لا تشعر بالإثم ادفع فدية عن صيام شهر رمضان وأفطر !! و هذه ليست مجرد فتوى بل تضمين الى يوم القيامة أي انه يشعره بالضمان بانه لن يكون معاقباً وأنه بعمله هذا لا يعمل الحرام فأي فتوى

أقوى من هذا؟!وأي اجتراء على الله أكثر؟

الفقيه يقول أن ما وصل اليه ذهني من الآيات والروايات من جمعها وبيانها هكذا و هذا هو رأيي والله العالم و قد أكون مخطئا.

فهذا النماذج الأربعة هي من نماذج التفسير بالرأي ولا يتسع المجال للحديث عن كل النماذج.

..و القرآن مع علي عليه السلام

عن رسول الله صلى الله عليه وآله:«عليٌ مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

هذا الحديث وارد في مجاميع وكتب مدرسة الخلفاء وعلماء مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وننقل حادثة واحدة في هذا الموضوع و هي الرواية التي تنقل عن شهر ابن حوشب قال كنت عند أم سلمة أم المؤمنين فاستأذن رجل عليها فقيل انه أبو ثابت مولى أبي ذر الغفاري فأذنت له وقالت يا أبا ثابت أين كنت حين طارت القلوب مطائرها؟

فقال: كنت مع امير المؤمنين[2] علي بن ابي طالب عليه السلام.

---

(١) ذكره الحاكم النيسابوري في المستدرك على الصحيحين والطبراني في المعجم الأوسط والمتقي الهندي في كنز العمال وغيرهم.

(٢) التعبير عن الامام علي بأمير المؤمنين كان موجودا بين أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وبدايته كانت في يوم الغدير عندما أمر النبي المسلمين أن يسلموا عليه بإمرة المؤمنين.. وللتفصيل يراجع كتاب الغدير للعلامة الأميني رحمه الله، وأما بين أصحاب النبي فقد أشار إليه غير واحد منهم، فعن ابن مردويه

يقول أبو ثابت مولى أبو ذر يقول لام سلمة: كنت مع امير المؤمنين ﷺ، فقالت له: « اصبت ووفقت لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عليٌّ مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» ولقد بعثت معه عمر ابني وابن أخي وقلت لهما قاتلا إلى جانبه ولولا أن رسول الله نهانا عن الخروج وأمرنا بالقرار في البيوت لخرجت حتى أقف في صف علي»

فهذه احدى الروايات التي يشار فيها الى ان القرآن مع علي.

ما معنى ان يكون القرآن مع علي و علي مع القرآن؟

ان يكون شخص مع القرآن فهذا واجب على كل مسلم[1] وأفضلهم من يطبق حركاته وأعماله وأقواله على طبق مقولات القرآن فيقال كُن مع القرآن أي ما يأمر به القرآن افعله وما ينهى عنه اجتنبه.

كيف يكون القرآن مع علي ؟

نحن نعلم ان القرآن هو الثقل الأكبر وهو المحور للمؤمنين به، وانهم يفترض ان يدوروا مع القرآن، ولكن الان كيف ان القرآن هو مع علي؟

الاصفهاني كما جاء في رواية مذكورة في كتابه من مناقب علي ﷺ: ان أبا ذر الغفاري مرض بمرض شديد في زمان الخليفة الثاني فأوصى بوصية الى علي امير المؤمنين ﷺ[1] فقيل له: لو اوصيت الى امير المؤمنين – يقصدون الخليفة الثاني –[1] فقال لهم: بلى أوصيت لأمير المؤمنين حقا أمير المؤمنين – أي اوصيت الى علي ﷺ.وكذلك عن حذيفة بن اليمان العنسي وقد كان حذيفة من أصحاب الامام ﷺ وقد كان ولي على المدائن من قبل الخليفة الثالث[1] فلما صارت الخلافة لأمير المؤمنين امير المؤمنين و كان يعدّ للخروج لقتال اهل الجمل امر حذيفة ابناءه وكان مريضا دنفا فأُخْرِج وقد عُصِّب بعصابة[1] فقال لأولاده: اوصيكم بولاية امير المؤمنين حقا حقا وهو علي بن ابي طالب وفي الأخبار أن الامام الصادق ﷺ نهى أحد أصحابه عن مناداته بهذا اللقب باعتبار أنه لا يصلح إلا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

المعنى الأول:

قد يكون احد المعاني لهذه الكلمة ان القرآن الكريم لو لاحظنا آياته لوجدناها وكأنها تتابع حركات امير المؤمنين عليه السلام وأعماله لكي تسجلها وتدوّنها فتغدو قرآنا يتلى، وذِكرا يقرأ.. فاذا تصدق بصدقة مهما كانت صغيرة أو كبيرة فان القرآن يسجلها فأصبحت آيات تتلى اناء الليل و اطراف النهار، فالقرآن كأنه مع علي عليه السلام في حركاته وسكناته وخطواته وأعماله فلا تجد عملا من الأعمال إلا والقرآن الكريم قد رصده ودوّنه.. والغاية من ذلك هو الدلالة على الوصي والقائد والامتداد للنبي صلى الله عليه وآله.

فإن نبينا المصطفى معترف به بين الناس، ولا أحد يتنكر له، ولكن يحتاج من يأتي بعده الى التعريف به ؛ بأن يبين اسمه تارة وصفاته أخرى و ان يُرْشد اليه ثالثة ويقرن ذكره بذكر النبي صلى الله عليه وآله كما في ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] و(انَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[2].

عدد الآيات النازلة في علي عليه السلام

وقد ذكر بعض العلماء ان ما نزل من القرآن في علي من الآيات قد يصل الى ثلاثمائة آية، بعضها مشتركة اي يشاركها فيها غيره كالآيات المتوجة بخطاب التكاليف أو خطاب المدح والثناء كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾،﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

هذه الآيات التي فيها ثناء على المؤمنين او فيها توجيه لهم الى صنوف الخير والعبادة ذكر العلماء بانها تبلغ قرابة ال ٨٩ آية، وقيل ما من آية فيها مدح وثناء على

(١) النساء/ ٥٩.
(٢) المائدة/ ٥٥.

الذين آمنوا إلا وعلي أمير المؤمنين سيدهم ورأسهم فيها.

وذكر ابن مجاهد أن الآيات المختصة بأمير المؤمنين تصل الى سبعين آية وذكر ابن مردويه الاصفهاني المتوفى سنة ٤١٠ هجري وهو من كبار محدثي مدرسة الخلفاء ولديه كتاب بعنوان مناقب علي بن ابي طالب وقد ذكر ان هناك ١١٢ آية فسرت وأَولت بأمير المؤمنين عليه السلام.

المعنى الأول لعبارة القرآن مع علي: أن القرآن سجل صفات الامام علي عليه السلام وأعماله وأفعاله ليدل الناس عليه في زمنه ومن يأتي بعده.. ينشر ذكره لغاية ان يوصل الناس إليه، فمن يُرد هداية فهو يعلمه صفاته وخصائصه وأعماله مهما كانت في الظاهر صغيرة.

فقد يقول كل الأصحاب صليت مع رسول الله ويقول سمعت من رسول الله وجاهدت مع رسول الله فكيف يهتدى من بين كلام كل هؤلاء إلى الحقيقة فيمن هو الولي؟؟ جاء القرآن ليخبرنا بصفاته وخصائصه وأعماله.

الإمام علي عليه السلام تصدق بأربعة دراهم من جراء عمل يده فقد كسبها وتصدق بها فسجلها القرآن. كم لها من قيمة هذه الأربعة دراهم؟ هي لا شيء مهم من الناحية الكمية.

وقد تصدق غيره في زمنه بمئات الدراهم فلم يذكرهم القرآن في حين ان أمير المؤمنين تصدق بدرهم ليلا وبآخر نهارا وبثالث سرا وبرابع علانية فاذا القرآن ينزل ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] والكل يعلم ان هذه الآية نازلة في علي عليه السلام فالقرآن هنا يسجل فعل أمير المؤمنين.

---

(١) البقرة/ ٢٧٤.

أمير المؤمنين يلبس خاتما ولم يكن من ثمين الأشياء و عندما جاء المسجد فقير يستجدي ولم يعطه أحد فقصد رجلا راكعا فمدّ اليه يده في أثناء ركوعه فنزع الفقير الخاتم منه فنزلت الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ فجاء النبي صلى الله عليه وآله الى المسجد ومعه من كان معه وكان الفقير مازال موجوداً لم يخرج فسأله النبي ما قصتك؟ فقال الرجل الفقير: كذا وكذا.

وهكذا نزل جبرئيل بقرآن وقد كان حسان بن ثابت موجوداً وقد كان سباقا في ذلك الوقت الى مثل هذه الأمور فانشد قصيدة في حق أمير المؤمنين:

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي ... وكل بطيء في الهدى ومسارعِ
فانت الذي أعطيت اذ كنت راكعا ... فدتك نفوس الخلق يا خير راكع
بخاتمك الميمون يا خير سيد ... و يا خير شارٍ ثم يا خير بائع
فانزل فيك الله خير ولاية ... و دوّنها في محكمات الشرائع

أي ان الله عز وجل على إثر هذا أشار الى ولايتك وسجلها في القرآن الكريم والى الان تتلى.

وينام أمير المؤمنين على فراش النبي فينزل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّه وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[1] اذن المعنى الأول لهذه الكلمة هي أن القرآن سجل صفات الامام وأعماله وأفعاله ليدل ويهدي الناس عليه في زمانه ومن يأتي في الأزمنة التالية.

(١) البقرة/ ٢٠٧.

المعنى الثاني لعبارة القرآن مع علي:

انه عالم بكل القرآن ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[١] أي عنده كل الكتاب، فمن يتبع إماما يعلم كل الكتاب لا ريب سيكون مهتديا.

المعنى الثالث لعبارة القرآن مع علي:

هذا المعنى يرتبط بالمواقف فعندما يتخذ شخص موقف يقال له موقفك هذا يستند على أي شيء؟ هل يستند إلى القرآن أو لا؟

أي لا تنتظر شيئا آخر بعدما اتخذ علي موقفا فان الحق معه وان القرآن معه.

و مما لا شك فيه ان أمير المؤمنين لا يفترق عنه القرآن وهذا يشبه ما قاله نبي الله محمد ﷺ (الحق مع علي وعلي مع الحق يدور معه حيثما دار) أي أن هناك تلازما بينهما ، فلا معنى لأن يتخذ أحد موقف الحياد مع علي بن أبي طالب ولا معنى لأن يقيسه بغيره ولا معنى لأن يتخلف عنه وهذا نفس المعنى الذي احتج به حتى بعض أعداء علي عليه السلام على بعض القاعدين عنه.

فإن بعض مصادر مدرسة الخلفاء[٢] تذكر انه عندما جاء معاوية بن ابي سفيان بعد سيطرته على الحكم الى المدينة فدخل عليه سعد بن ابي وقاص الزهري فأخذ معاوية يعاتبه -لأن سعداً اتخذ موقف اعتزال القتال في صفين، فلم يكن مع علي ولا مع معاوية- فقال له:

---

(١) الرعد/ ٤٣.

(٢) مناقب علي بن أبي طالب وما نزل من القرآن في علي عليه السلام؛أبو بكر أحمد بن موسى ابن مردويه الأصفهاني - الصفحة ١١٧.

وأنت يا سعد، الذي لم يعرف حقنا من باطل غيرنا، فيكون معنا أو علينا،

قال سعد: إني لما رأيت الظلمة قد غشيت الأرض، قلت لبعيري: هنخ، فأنخته حتى إذا أسفرت مضيت.

قال: والله، لقد قرأت في المصحف وما بين الدفتين وما وجدت فيه هنخ؟

فقال: أما إذا أبيت فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي: «أنت مع الحق، والحق معك».

قال: لتجئني بمن سمعه معك أو لأفعلن!!

قال: أم سلمة، قال: فقام وقاموا معه حتى دخل على أم سلمة، قال: فبدأ معاوية في الكلام، فقال: يا أم المؤمنين، إن الكذابة قد كثرت على رسول الله صلى الله عليه وآله بعده، فلا يزال قائل يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما لم يقل، وإن سعدا روى حديثا زعم إنك سمعتيه منه، قالت: ما هو؟

قال: زعم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال لعلي: « أنت مع الحق، والحق معك «.

قالت: صدق، في بيتي قاله.

فأقبل على سعد فقال: أنت الآن ألزم ما كنت عليه. والله، لو سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله ما زلت خادما لعلي حتى أموت!

فالمعنى الثالث اذن أن لا تنتظر شيئا آخر بعدما اتخذ علي موقفا فان الحق معه وان القرآن معه أيضا، فلا معنى لأن ينتظر أحد شاهدا على موقفه في حرب أو سلم، مثلما صنع بعض الأصحاب ذلك في حرب صفين مثلا

فقد تركوا الأخذ برأي علي عليه السلام وتركوا الوقوف بجانبه حتى قتل عمار بن ياسر

أو عندما قتل عمار انتبهوا وقالوا ان من يحارب ضد علي عليه السلام في حرب صفين بغاة لان رسول الله قال:» يا عمار تقتلك الفئة الباغية «

فقد انتظر هؤلاء مقتل عمار ثم اتخذوا الموقف الصحيح باتباعهم لأمير المؤمنين مع أنه كان ينبغي من بادئ الامر ان يلازموا موقف الامام علي عليه السلام فعلي مع الحق والحق مع علي يدور معه أينما دار ولا داعي للانتظار.

بعض الآيات التي فسرت أو أُوّلَت في علي عليه السلام

١. ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

٢. الانفاق نافع سواء كان علنيا او سريا، فالعلني ـ كالسري ـ له دور لذا لا يصح أن تنتقد أحداً سجّل اسمه في مشروع خيري فهذه دعوة غير مباشرة للإنفاق أ لا تقل انه يرائي لأنك لا تعلم ما في قلبه. الصدقة السرية وفي الليل لها دور والصدقة العلنية وفي وضح النهار لها دور أيضا والنية في قلب الإنسان. فربما هو يتصدق علنيا للتشجيع على الصدقة فيأخذ أجرين أ أجر الصدقة وأجر التشجيع عليها.

٣. ﴿قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾(٢).

٤. هذه الآية من الآيات التي اختص بها أمير المؤمنين أوتسمى آية المباهلة و التي جعلت أمير المؤمنين نفس رسول الله صلى الله عليه وآله.

(١) البقرة / ٢٧٤.
(٢) ال عمران/ ٦١.

٥. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[١].

٦. فقد وصفه الله انه من الراكعين حيث لم يكن في بداية الإسلام من راكع الا النبي وخديجة وعلي أمير المؤمنين عليه السلام .

٧. ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾.[٢].

٨. حيث يقول عليه السلام: سبقتكم الى الإسلام طراً صغيراً ما بلغت أوان حلمي

٩. ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ * وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾[٣].

١٠. آية الغدير حتى اذا بلّغها رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت الآية التالية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٤].

وفي شأن قاتله أُوّلت الآية المباركة ﴿إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾[٥]

فقد ذكر النبي مصيبة الإمام علي عليه السلام، وما سيجري عليه وبكى لأجل ذلك، هذه الحادثة ينقلها عمار بن ياسر يقول كنا في إحدى الغزوات وكنت إلى جانب علي عليه السلام فلما جلسنا عند النبي صلى الله عليه وآله قرأ علينا هذه الآية فقال: هل تعلمان من أشقى الناس من رجلين؟. فقلنا : لا نعلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أشقى الناس أحيمر عاقر ناقة ثمود الذي عقر الناقة وبعده يأتي أشقى الآخرين الذي يضرب هامتك يا علي فيخضب شيبتك بدم راسك»..

---

(١) البقرة/ ٤٣.
(٢) الواقعة/ ١٠.
(٣) المائدة / ٦٧.
(٤) المائدة / ٣.
(٥) الشمس / ١٢.

الإمام الحسن المجتبى وتفسير القرآن

نتناول شيئا من تفسير الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، للقرآن الكريم، ليجمع هذا الحديث المناسبتين، ميلاد الإمام الحسن عليه السلام، ومناسبة أن أحاديثنا في هذه الشهر، تتناول موضوع القرآن الكريم، المعجزة الخالدة لنبي الإسلام.

ينبغي أن نشير إلى أن مثل هذا الموضوع، قلما يذكر، لأنه غالبا ما يركز المتحدثون والكتاب، على الدور البارز والعنوان الظاهر للمعصوم في حياته، حتى لقد تشكلت صورة خاصة عن كل معصوم في أذهان الناس، فمثلا عندما يذكر الإمام الحسين عليه السلام، تأتي إلى الذهن صورة المقاومة، ورفض الظلم، وإباء الضيم، دون سائر الكمالات، وعندما يذكر الإمام الصادق، يتبادر إلى الذهن، قضية العلم، والفقه، والأحاديث، وما شابه ذلك، دون سائر كمالات الإمام الصادق عليه السلام.

وعندما يذكر الإمام الكاظم مثلا، يتبادر إلى الذهن صورة الصبر والسجن والأذى، وما شابه ذلك، وكظم الغيظ، دون سائر كمالاته،. وهكذا.

حقيقة الأمر أن الإمام ينظر إلى الواقع، ويتحرك على أساسه. فإذا رأى في الأمة مشكلة أخلاقية وبعدا عن الله عز وجل، ركز عليه، في صورة الدعاء وما يرتبط به. وإذا رأى أن المشكلة الأعظم، مشكلة سياسية، وأن الإسلام مهدد ينهض كما نهض

الحسين عليه السلام، وإذا رأى حاجة الأمة، إلى النشر العلمي، والثقافي، حدث وبلغ علم رسول الله صلى الله عليه وآله، من دون أن تخلو حياته، من سائر الكمالات والصفات.

وهذه الأسطر تتعرض إلى الجانب القرآني في أحاديث الامام المجتبى الحسن بن علي:

حديث في منهج فهم القرآن

١. تعرض الامام عليه السلام إلى موضوع المنهج في القرآن:

أشار إلى قضية التفسير بالرأي، فقد نقل عنه: «من قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ»[١]، وهي من الكلمات العجيبة، فقد فرض أنه أصاب ومع ذلك قال إنه مخطئ ! لماذا؟

لعل الإمام عليه السلام، هنا يريد أن ينهى عن منهج خاطئ، وأن يحذفه من التداول.. فالقرآن الكريم لا ينبغي أن يتعامل معه بمنهج خاطئ، حتى وإن صادف في بعض الأحيان الإصابة. بل المطلوب أن يكون الطريق إليه طريقا سليما لا يقوم على أساس احتمال أن يصيب الإنسان، أو لعله يصل إلى الحق.. إنه مع النهي عن المناهج الخاطئة مع ذلك لم تسلم الامة من التفسير بالرأي والذي أورد أولها وآخرها المآزق والمهالك ! هذا مع النهي عن هذه المناهج.. فكيف لو لم يُنه عنها؟

ولا سيما مع الاصابة النادرة في هذه المناهج فإنها تشجع أصحاب المناهج على اتخاذها طريقا دائما.. لذلك ورد النهي مكررا من النبي صلى الله عليه وآله، ومن المعصومين بعبارات شديدة، منها التوعد بدخول النار، ومنها تخطئة النتائج التي يتوصل إليها بهذه المناهج.

(١) إرشاد القلوب / ٩٦.

وشبيه هذا ما وجدناه في القضاء في تقسيم القضاة إلى قضاة في الجنة وآخرين في النار، ومن الذين هم في النار من يقضي من غير علم فهذا حتى لو صادف الواقع فإنه معاقب وليس مثابا ولا ممدوحا ! مجرد إصابة الواقع في بعض الحالات لا تصنع صوابية للمنهج، بل لا بد أن يكون منهجا صحيحا، فهذا حتى لو أخطأ أحيانا فلا مشكلة فيه.

٢. حديث في عداوة أعدائهم لهم:

فيما يرتبط بأعداء أهل البيت، لماذا صاروا في طريق العداوة والبغضاء؟ وهل القضية كلها أمور دنيوية ومصلحية؟ أو هناك جهات أخر؟ يشير الامام الحسن المجتبى إلى جهات غير واضحة للعامة ،كما نقل ابن شهراشوب، في كتابه: مناقب آل أبي طالب[١]، بسند إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل، مخاطبا الشيطان: (وشاركهم في الأموال والأولاد)، أنه جلس الحسن بن علي ويزيد بن معاوية بن أبي سفيان، [٢]فقال يزيد: «يا حسن، إني منذ كنتُ أبغضك» !.

فقال الحسن عليه السلام: «اعلم يا يزيد، إن إبليس شارك أباك في جماعه، فاختلط الماءان، فأورثك ذلك عداوتي» !!

(وموضوع مشاركة الشيطان كأنه من القضايا المتسالم عليها في آراء المسلمين حتى من لم يكن على طريقة أهل البيت فإنهم يروون عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش الذي لا يبالي ما قال ولا ما قيل فيه، فإنه شرك شيطان»، وإن كان المورد مختلفا لكن أصل القضية وهو مشاركة الشيطان وتأثيره في الانجاب

(١) مناقب آل ابي طالب ٣/ ١٨٦.

(٢) لعل هذا في السنوات الأخيرة التي كان يأتي معاوية ومعه يزيد إلى المدينة، قبل شهادة الإمام الحسن المجتبى، وأراد أن يعمل تسويقا لابنه يزيد، بين أبناء الصحابة ، لكي يوليه العهد بعده ، فلعل هذه الجلسة كانت في إحدى تلك السفرات،

بحيث يخرج المولود وللشيطان فيه نصيب..)

طبق الإمام الحسن ﷺ، هذه الآية المباركة: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾، على يزيد بن معاوية. والذي عمله يزيد في حياته لا يعدو هذا، بالطبع هذا لا يسلب مسؤولية الإنسان نفسه بأن يقول ما دام الشيطان شارك أباه فيه، فلا بد أن يسلك هذا السلوك.. كلا وإنما هذا مؤثر من المؤثرات، وليس حتميا وإنما تبقى ارادة الإنسان واختياره في أن يسير في طريق الهداية أو يختار طريق الغواية..

٣. الصلاة على النبي تعليم من الله:

نقل عن الامام الحسن ﷺ في تفسير الآية المباركة: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما). في خطبة من خطبه، أن رسول الله ﷺ تعلم من ربه، وعلم الناس أمورا متعددة، ومن جملتها قال: «.. وعلم رسول الله الناس الصلوات فقال: قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، فحقنا على كل مسلم أن يصلي علينا مع الصلاة فريضة واجبة من الله»[1]، وهذا كما تعلمون، يقر به عموم المسلمين، في التشهد، لا بد من الصلاة على النبي وعلى آله، وإليه أشار الشافعي محمد بن إدريس:

يا آل بيت رسـول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله
كفاكم من عظيم الشأن أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

وفي موضوع المودة في القربى، قال الله تعالى: (قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا)، قال الإمام الحسن ﷺ: «الحسنة حبنا ومودتنا أهل البيت».صلوات الله وسلامه عليهم.

(١) تفسير فرات الكوفي / ١٧٠.

٤. بعض آثار سور القرآن:

أكثر الإمام الحسن المجتبى من التأكيد على تكرار سورة القدر: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، فقد جاءه رجل وشكا إليه ضيق الحال، فأمره بالاستغفار وقراءة سورة: (إنا أنزلناه)، ما استطاع إلى ذلك سبيلا. أيضا الآيات الأخيرة من سورة الحشر، وهي في كثير من الآثار والأخبار، من آيات الحفظ والحراسة، في آخر سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فقد ورد في ذيلها عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنه قال: «من قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر» إذا أصبح فمات من يومه ذلك طبع بطابع الشهداء، وإن قرأها إذا أمسى فمات في ليلته طبع بطابع الشهداء»، هذا مما ذكر في فضائل بعض السور والآيات.

٥. من هو الشاهد والمشهود في القرآن؟

في رواية ينقلها الطبرسي في مجمع البيان: أن رجلا دخل إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فوجد حِلقا، كل حلقة فيها متحدث، فأقبل على أول حلقة، فسأل من كان فيها عن قول الله عز وجل ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ من يعني وماذا يعني؟ فقال: أما الشاهد فهو يوم الجمعة، وأما المشهود فهو يوم عرفة. هذا الجواب من الحلقة الأولى، يقول: فجزته، للحلقة الثانية، سألته نفس السؤال، هذا المتصدي للحديث والتدريس، ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، ماذا يقصد بذلك؟ فقال: أما الشاهد فيوم الجمعة، فأما المشهود فيوم النحر، يوم العيد من ذي الحجة. فجزته وذهبت إلى رجل أو غلام

كأن وجهه الدينار، (الذهب)، كذلك. وهو يحدث عن رسول الله، فقلت: أخبرني عن (وشاهد ومشهود) ماذا يقصد؟ فقال: أما الشاهد فالنبي محمد ﷺ، أما قرأت قول الله عز وجل: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا)، فالقرآن وصفه بماذا؟ بالشاهد. وأما المشهود فيوم القيامة، أما قرأت قول الله عز وجل: (ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود). فسألت عن الأول، قيل: ابن عباس. وسألت عن الحلقة الثانية من قيها؟ قالوا: عبد الله بن عمر، وسألت عن الحلقة الثالثة، فقيل أن فيها الحسن بن علي بن أبي طالب.

٦. هناك روايات تفسيرية ترتبط بالمسائل الفقهية:

نورد بعض الأمثلة منها، في تفسير مفردات الآية المباركة، العادي والباغي.. فقد نقل شيخ الطائفة في كتابه التهذيب، قال: سئل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عن هذه الآية: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، أن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام سئل عن تفسير هذه الآية، وبالذات، في كلمة: الباغي والعادي، من هو العادي؟ ومن هو الباغي؟ قال: العادي هو السارق، الذي يتعدى ويعتدي على غيره، شخص ذهب إلى مكان للسرقة، انقطع به الطريق، بحيث لم يجد ما يأكله، إلا مثل الميتة، (والميتة كل ما كان غير مذكى وغير مذبوح بطريق شرعي، لا خصوص الجيفة والذي مات حتف أنفه كما قد يتوهم البعض)، فهل لهذا رخصة هي القصر في السفر؟ والتخفيف عليه في الصيام بالافطار؟ فأفاد الامام بأن مثل السارق ليس له ذلك ولا يحل له الاكل من الميتة !

والآخر الباغي: «الباغي الذي يبغي الصيد بطرا ولهوا. لا ليعود به على عياله، ليس لهما أن يأكلا الميتة». والآخر الباغي، الباغي في هذه الرواية له تفسير

اجتماعي، وفي روايات أخر، له تفسير سياسي وهو الخارج على الإمام الحق، وكلاهما صحيح، فلا مانع أن ينطبق عنوان على عدة مصاديق. فلو كان أحد هذين من باغي الصيد بطرا الذي يفسد البيئة الطبيعية، ويقتل الحيوان والطيور والأسماك لا لسبب معقول وإنما هو للتسلية والبطر ! فهذا لو انقطع به الطريق لا يجوز له أن يأكل الميتة، ولو أكل كان مأثوما ومذنبا، لا رخصة له في ذلك. وهكذا الذي يخرج ببغي وجور ونهضة ضد الإمام الشرعي، هذا من البغاة. هذا لو انقطع به الطريق، واضطر إلى أكل الميتة، لا يجوز له أن يأكل.

شكر خاص

أتقدم بالشكر الجزيل لكل الأخوات اللاتي ساهمن في تفريغ هذه المحاضرات من الأشرطة، أو صححن ما تم تفريغه، أو سعين في ذلك ؛

أمجاد عبد العال، فاطمة آل السيد، العلوية / العراق، ليلى أم أحمد ياسر، فاطمة أم هادي، أم سيد رضا، سلمى آل حمود، أم محمد الحرز، سكينة نسيم آل عباس، زهرة المسكين، تراتيل السماء، انتصار الرشيد، فاطمة الخويلدي، والأخوات اللاتي لم يرغبن في ذكر اسمائهن..

كما أشكر الأخت أفراح البراهيم والأخ أبا محمد العباد اللذين ساهما في التدقيق والتصحيح للمحاضرات..

وأسأل الله أن يجعل للجميع بكل كلمة نافعة عزا في الدنيا ونورا في القلب ودرجة في الآخرة.

المصادر

ملاحظة عامة تم الاعتماد على النسخ الالكترونية للكتب الموجودة في المكتبات الالكترونية على شبكات الانترنت.

إهداء

يهدى ثواب هذا الكتاب للمرحومَين والدي الحاج
عبد السلام الدخيل.

الفهرس

مقدمة ٧

القرآن الكريم في بطاقة تعريفية ٩

جمع القرآن في رواية مدرسة الخلفاء ٣٢

جمع القرآن في رؤية الشيعة الإمامية ٣٣

صفحات من تاريخ القرآن المجيد ٤٧

لماذا كان قرآناً عربياً ٧٥

من جهات الإعجاز في القرآن الكريم ١٧

عن الاعجاز العلمي والتشريعي في القرآن ٣٨

مستشرقون في مواجهة القرآن الكريم ٩٧

حداثيون: تمييع القرآن وتضييع الشريعة ١٠٩

قرآنيون ضد القرآن ١٢١

القرآن وجوب التعلم واستحباب التلاوة والحفظ ٣٣١

علم تجويد القرآن في نظريتين متعاكستين ١٤٥

قراءات سبع أو حرف واحد؟ ١٥٩
التَدَبُرُ في القرآن الكَرِيم ١٧١
ما يحتاجه المفسرون من علوم ١٨٣
أحكام فقهية مرتبطة بالقرآن ١٩٥
هل في القرآن الكريم تِبيانُ كُل شيء ٢٠٧
آيات تنسب المعصية للأنبياء كيف تفسر؟ ٢٢١
القرآن مكي ومدني ٢٣١
ماذا عن العلاج بالقرآن ٢٤٥
نماذج من التفسير بالرأي لمعاصرين ٢٥٥
..و القرآن مع علي عليه السلام ٢٦٩
الإمام الحسن المجتبى وتفسير القرآن ٢٧٩
شكر خاص ٢٨٧
المصادر ٢٨٩
إهداء ٢٩١